رابطة العالم الإسلامي
إدارة الثقافة والإعلام

دعوة الحق

الدعوة والداعية
رؤية معاصرة

د. منقذ بن محمود السقار

العدد ٢٦٦
السنة الثامنة والعشرون ١٤٣٦هـ

رابطة العالم الإسلامي

الدعوة والداعية

رؤية معاصرة

د. منقذ بن محمود السقار

المستشار في رابطة العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين، وبعد:

الدعوة إلى الله تعالى مهمة الأنبياء، وميراثهم في أممهم ، أشرف المقاصد، وأعلى المراتب، وهي محور حديثنا في هذه الصفحات.

وقد عرَّف الإمام ابن تيمية الدعوة بأنها: «الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم بما أمروا به، فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى.

وما أبغضه الله ورسوله، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه.

ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله، ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»(١)، فموضوعها التصدي لتعريف الناس بالدين الذي ارتضاه الله للبشرية ديناً، بقواعده ونظمه وتشريعاته وآدابه، وحثهم على الالتزام بها والاستمساك بعراها، سواء كانت الدعوة موجهة لمسلم أو كافر، وسواء كانت تعريفاً بمبادئه، أو وعظاً بقرآنه، أو تذكيراً بشيء من شرائعه وفروعه، أو أمراً بمعروف الشرع الحكيم ، ونهياً عن منكره، أو فعلاً حسناً يقتدي به الناس، فيرغبهم في مرضاة الله أو يذكرهم ببعض وجوهه، فهذا كله من الدعوة.

واليوم تنوعت وسائل الدعوة، وتعددت مؤسساتها، ولم تعد مقتصرة

---

(١) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/٧).

على الصورة التقليدية الجميلة التي ألفناها في تاريخنا الطويل، فقد استجد لدينا منها فنون متنوعة، وأبواب متجددة، فقد دخلت وسائط الدعوة الجديدة إلى كل بيت عبر قنوات التلفاز ومواقع الشبكة العنكبوتية وبرامج التواصل والدردشة، ولم تعد الدعوة بالضرورة عملاً فردياً يقوم به إمام في مسجد، أو شيخ في مناسبة، لا بل لم تعُد حكراً العلماء وطلاب العلم، بل أصبحت عملاً جماعياً، يشترك فيه حتى عوام الناس.

وهذا التطور ليس خاصاً بالدعوة الإسلامية ووسائلها، بل لعل الرابح الأكبر منه هو القوى المعادية للإسلام التي وجدت فيه منفذاً للولوج إلى حصون لطالما استعصت عليهم، فازداد التحدي، ووجب التجديد في وسائل الدعوة واستراتيجياتها ، لتلائم وتوائم التطور المتسارع، وتكافئ الكم والكيف للقوى التي تنافح الدعوة الإسلامية.

إننا اليوم معاشر الدعاة بحاجة إلى تجديد خطابنا الدعوي وآلياتنا في هذا العمل النبيل، هذا التجديد لا يعني التفلت من الأصول ولا الفروع، بل إعادة قراءة تجاربنا الدعوية ونتاجها والنظر في واقعنا ومستجدات مجتمعاتنا، ثم رسم أولويات الدعوة ومنهجها من حيث انتهى المجددون في أعصُر الإسلام المتتاليات، الذين صدق فيهم قول النبي ﷺ: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لهذه الأمة أمر دينها»(١).

وليس المقصود بتجديد الدين اختراعَ شرائعَ جديدةٍ أو ابتداعَ عقائدَ

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٢٩١) والحاكم (٤ / ٥٢٢) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٥٩٩).

مستحدثةٍ، بل «المراد من تجديد الدين للأمة إحياءُ ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة ، والأمرُ بمقتضاهما ، وإماتةُ البدع والمحدثات ، وكسرُ أهلها باللسان ، أو تصنيفُ الكتب ، أو التدريسُ أو غيرُ ذلك»[١]، أي أن مهمة المجدد فرداً كان أو مؤسسة؛ هي التذكير بما تمس الحاجة إليه من المعاني الشرعية الغائبة عن أذهان الناس، بسبب الجهل أو النسيان أو الغفلة أو غلبة التصورات المادية والضغوط الحياتية.

وقد جمع الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى التجديد بقوله: «إن الله تعالى يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب»[٢]، فالأمة المسلمة بحاجة دوماً إلى هذا النوع من التجديد ، لتسير على هدي من كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ في معالجة أمراض واقعها ودفع الأباطيل التي تستهدف عبودية الأمة لربها، وسيرها في مراضيه ومحبوباته.

إذاً ، نحتاج إلى التجديد أو الرؤية المعاصرة لمسيرة الدعوة، وهو ما نحاول تلمس معالمه، ونحن نرنو إلى استعادة الصور الناجحة في الدعوة وصولاً إلى التأثير وتجاوز المعوقات والقفز من فوق العقبات.

فنسأل الله أن يجعلنا من الدعاة إلى دينه المسابقين إلى مرضاته، إنه أكرم مسؤول.

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري (١/٣٤٠).

(٢) موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، جمع وترتيب : السيد أبو المعاطي النوري وآخرين (٣/٨٠).

الفصل الأول:

الدعوة فريضة شرعية
وضرورة بشرية

أولاً: حكم الدعوة

الدعوة إلى الله ليست ترفاً اختيارياً نمارسه إذا شئنا، ونتركه إذا سئمنا، بل هي تكليف رباني وعبادة متجددة لا غناء لنا عنها في مواجهة جاهلية عاتية، لا يبددها إلا قيامنا بالدعوة إلا الله تعالى على أكمل وجه وأحسن صورة.

وقد اختلف العلماء في حكم الدعوة ، فعدَّها بعضهم من فروض الكفايات التي أوجبها الله على عموم أمة الإسلام، فإن قام بها من يكفي منهم سقط الإثم عن الباقين.

أما إن قصروا أو تهاونوا أو امتنعوا؛ أثموا جميعاً، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، فقوله: ﴿منكم﴾ يشير إلى وجوب الدعوة الكفائي.

ولا ريب أن أهل العلم هم أولى الناس للقيام بهذا الواجب، لما شرفهم الله من أدواته ووسائله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافةً فلولا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (التوبة: ١٢٢).

وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن الدعوة فرض على الأعيان، أي تجب على كل مسلم، واستدلوا لذلك بالآيات والأحاديث التي تلزم المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تفرق بين عالم وغيره،

فكل يدعو بقدر طاقته وإمكاناته «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[١]، وقد حكم الله تعالى بهلاك بني آدم ؛ فلم يستثن منهم إلا المؤمنين الداعين إلى الله والمتواصين به ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣).

وقد أورد الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿ولتكن منكم﴾ معنيين:

أولهما: أنها للتبعيض، كما تقدم.

والثاني: أنها للتبيين ، بمعنى: كونوا جميعاً أمة تدعو إلى الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ (الحج: ٣٠)، أي كل الأوثان، وليس بعضها.

واستدل له بدليلين: «الأول: أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والثاني: هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس، إذا ثبت هذا فنقول: معنى هذه الآية: كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر»[٢].

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بين القول بالوجوب العيني

---

(١) أخرجه البخاري ح (٨٩٣)، ومسلم ح (١٨٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤٥/٨).

والكفائي فقال: «الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ؛ لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيرُه، وهذا شأن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغِ ما جاء به الرسول والجهادِ في سبيل الله وتعليمِ الإيمان والقرآن»[١].

وأياً كان الوجوب في الدعوة عينياً أم كفائياً ؛ فإنه يلزمنا اليوم جميعاً التصدي لهذا العمل العظيم، ولا يليق بأحدنا أخذ إجازة مفتوحة عن الدعوة إلى الله وبلاغ دينه، بذريعة أنها من واجبات الكفاية، فأي كفاية تحققت في زماننا، والملايين من البشر لم يسمعوا عن الإسلام ابتداءً، ولا رأوا القرآن الكريم أبداً، وبعضهم سمع عنه من أعدائه وشانئيه، ولم ير في حياته واحداً منا يصحح تصوره المغلوط عن الإسلام!!، فهل يقبل – والحال هذه- تذرعنا بمسألة الكفاية، لتبرير تقاعسنا وتوانينا عن القيام بواجبنا في التعريف بدين الله والدعوة إليه.

أما نخشى أن يتعلق بعض هؤلاء برقابنا يوم القيامة، ويقولوا: يا رب قد قصروا في دعوتنا، شغلهم المال والبنون عن الدعوة والبلاغ والتبيين.

ومن أراد أن يتيقن بأننا لم نقم بواجب الكفاية، فليستعلِم: كم من موقع لأمة الإسلام على شبكة الإنترنت يعرف به باللغة الصينية التي ينطق بها خُمس سكان العالم؟ ألا نخجل من شكاة الأمم التي لم نترجم إلى لسانها معاني القرآن الكريم؟ أما آن أن نسأل أنفسنا ومؤسساتنا الدعوية: كم من داعية أعددناه ليقوم بالكفاية عنا في دعوة مليار من أهل الصين، ومثلِهم من

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٦٦).

أهل الهند، ومثليهم من الملاحدة الذين كفروا بالأديان لِما رأوا فيها من تبديل وتحريف وخرافات، ولم يجدوا منا مبلغاً يطلعهم على حقائق الإسلام وروائعه ، فبقوا أُسارى ظنونهم بأن الإسلام لا يختلف عن الأديان التي يعرفون، ومنها يفرون.

في عصرنا تقارب العالم، وحولته الوسائط الإلكترونية الحديثة إلى قرية صغيرة، فما عاد لنا عذر نتعلق به ونستتر به عن تخلفنا في الوفاء بواجب ديننا علينا في البلاغ والتبيين، ويصدق فينا قول الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني يصير فرض عين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف»[1].

وهكذا، فإنا معاشر المسلمين مطالبون جميعاً بالدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم ممن يعيش حولنا، أو يمكننا الوصول إليه عبر الإنترنت أو غيره، وكلٌ يكلف بحسب قدرته وطاقته، فمنا من يتكلم فيعظ ويعلم، ومنا من يكتب ويبين، ومنا من لا يقدر على ذلك ، لكنه يترجم جهود العلماء وطلاب العلم ، وينقل عن كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم المرئية والمسموعة، فيوصلها عبر الوسائط الإلكترونية إلى من يحتاج إليها ، فيشارك أهل العلم دعوتهم ، وينافسهم في أجورهم، و«الدال على الخير كفاعله»[2].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٣).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٣٠٢٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٣٨/١٣٢).

ثانياً : فضل الدعوة

وإذا كان حكم الدعوة إلى الله يدور بين فرض العين وفرض الكفاية، فإن المسلم الحريصَ الضنينَ بآخرته أسرعُ الناس إلى المسابقة إليه، لما في هذه العبادة من فضل يرفع عند الله مقداره ، ويثقل في الآخرة ميزانه، فقد ورد في فضل الدعوة وتعليم الناس الخير والعلم ودلالتهم عليه نصوصٌ لا تكاد تحصى لكثرتها.

فماذا أعد الله من الخير للدعاة إلى الله تعالى؟ وماذا ينتظرهم من عظيم الأجر عنده؟ وما هي منزلة الدعاة عنده تعالى؟

إن الدعوة إلى الله ودينه من أشرف العبادات عند الله، والقائمون بها وُراث منصب النبوة.. الدعاة ملح الأرض، لا تصلح الأرض بدونهم، وكيف لها أن تصلح بدون أحسن الناس قولاً وعملاً بشهادة ربهم تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).

قال أبو حيان التوحيدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا أحدَ أحسنُ قولاً ممن يدعو إلى توحيد الله ، ويعمل العمل الصالح ، ويصرح أنه من المستسلمين لأمر الله المنقادين له ، والظاهر [في أهل هذه الآية] العموم في كل داع إلى الله ، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة. وقيل بالخصوص ، فقال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ»[1].

(١) البحر المحيط (٧/٤٧٥).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ﴾: «هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله».

وعقب عليه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بالقول: «وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلَّها وأفضلَها ، فهي لا تُحصَّل إلا بالعلم الذي يدعى به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء»[(١)].

وهذه الخيرية أو الأحسنية للداعية هي التي أنالت الأمة المسلمة التفضيل على سائر الأمم، فوجود الدعاة ودعوتهم هو مقوم هذه الخيرية وسببها ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ولولا الدعاة إلى الله لكان حال المسلمين كحال من قبلنا من الأمم الذين غضب الله عليهم ولعنهم بسبب توانيهم وتساهلهم في الدعوة إلى الله وإلى مراضيه ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ (المائدة: ٧٨-٨٨).

ويحوز الداعية المزيد من أسباب الخيرية عندما يشارك الناس في

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٥٣).

أجورهم حين يعملون بموجب دعوته وإرشاده، فيُصلُّون قيام الليل مثلاً لحديث سمعوه منه، أو يتصدقون لآية قرأوها في مقاله، أو يصِلون أرحامهم، أو يعودون مرضاهم.. إلى غير ذلك من أبواب البر التي يتناولها الدعاة في وعظهم، وما أكثرها، فحين يمتثل الناس ذلك، فإنما يضيفون في حسنات الداعية أجوراً لا يعلمها، لكن الله يعلمها، ولا يضيع له نصيبه منها، فقد فقال ﷺ: «من دل على خير فله مثلُ أجر فاعله»(١)، وهذا الحديث العظيم «فيه فضيلةُ الدلالة على الخير، والتنبيهِ عليه، والمساعدةِ لفاعله، وفيه فضيلةُ تعليم العلم ووظائفِ العبادات؛ لاسيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرِهم»(٢).

وفي حديث آخر قال ﷺ: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه لا يَنقُص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه لا يَنقص ذلك من آثامهم شيئاً»(٣).

قال المناوي رحمه الله: «من تأمل هذا المعنى ورُزق التوفيق انبعثت همته إلى التعليم ورغب في نشر العلم ليتضاعف أجره في الحياة وبعد الممات على الدوام، ويكفَ عن إحداث البدع والمظالم من المكوس وغيرها، فإنها تضاعف عليه السيئات بالطريق المذكور ما دام يعمل بها عامل ، فليتأمل

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٨٩٣).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/٣٩).
(٣) أخرجه مسلم ح (٢٦٧٤).

المسلم هذا المعنى وسعادةَ الدال على الخير وشقاوةَ الدال على الشر»[(١)].

وقد اختلف العلماء في قدر الثواب الذي يناله الدال على الخير، فرأى الإمامان النووي وابن الجوزي وغيرُهما أنه ينال «ثواباً بذلك الفعل، كما أن لفاعله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قدرُ ثوابهما سواء»[(٢)].

وذهب آخرون إلى تساوي ثواب الدال على الخير وثواب فاعله في أصل أجر الطاعة، وأن الفاعل يختص عن الدال بمضاعفة الأجر ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

وأما الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فيرى أن الدال والفاعل متساويان في الأجر والتضعيف، بل قد يزيد أجر الدال على أجر العامل: «إنه مثله سواء في القدر والتضعيف، لأن الثواب على الأعمال إنما هو بفضل من الله، يهبه لمن يشاء على أي شيء صدر منه؛ خصوصاً إذا صحَّت النية التي هي أصل الأعمال في طاعةٍ عجز عن فعلها لمانع منعَ منها، فلا بُعد في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر والفاعل، أو يزيدُ عليه»[(٣)].

ومما يدل أيضاً على فضل عبادة الدعوة إلى الله ما رواه الشيخان وغيرهما من خبر علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم خيبر، فقد عقد له النبي ﷺ الراية ، وأوصاه بوصية جامعة: «انفُذ على رِسلك [أي امض على مهل] حتى تنزل بساحتهم،

---

(١) فيض القدير (٦/١٦٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٣/٣٩)، وكشف المشكل من حديث الصحيحين ، ص (٤٣٩).

(٣) عون المعبود (١٤/٢٦).

ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النعم»[(١)].

وفي رواية في إسنادها ضعف أن النبي ﷺ قال: «لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[(٢)] أي خير من الدنيا وما عليها.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حمْر النعم: « هي الإبل الحمْر ، وهي أنفَس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء ، وأنه ليس هناك أعظم منه . .. تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام ، وإلا فذرَّة من الآخرة الباقية خيرٌ من الأرض بأسرها ، وأمثالِها معها لو تُصوِرت، وفي هذا الحديث بيان فضيلة العلم ، والدعاءِ إلى الهدى ، وسنِ السنن الحسنة»[(٣)].

وفهمه آخرون من العلماء على أن المراد منه أن دلالة الناس وإرشادهم: «خير لَكَ مِنْ أن تكون لك [حمر النعم]، فتتصدق بها»[(٤)].

ومما يحفز المؤمن على الدعوة إلى الله ويشهد لعظيم فضلها قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به،

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٧٠١)، ومسلم ح (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ح (٩٣٠)، والحاكم ح (٦٥٣٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (٢٩٥٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٠/٨).

(٤) فتح الباري (٤٧٨/٧).

أو ولدٍ صالح يدعو له»، والداعية يترك بين الناس علماً يرشد الناس إلى جنة الله ومحبوباته، فياله من فضل يناله، وثواب يحوزه حين يطوي الثرى عظامه، فلا تطوى سجل حسناته .. كلما عمل عامل، أو تعلم متعلم من أثره كتب الله له بذلك أجراً.

ماتوا وغُيب في التراب شخوصُهم

والنشر مسكٌ والعظام رميم

وأخيراً ، فيكفي الداعية شرفاً وفضلاً دعاء النبي ﷺ له: «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع»[١]، ومعناه مأخوذ من: «النضرة: الحُسن والرونق .. خُص [مبلغ الناس الخير] بالبهجة والسرور والمنزلة في الناس في الدنيا ونعمة في الآخرة حتى يَرى رونق الرضاء والنعمة، لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السُّنة»[٢].

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٦٥٧)، وأحمد ح (٤١٥٧)، وابن ماجه ح (٢٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) شرح سنن ابن ماجة، للسيوطي ، ص (٢١).

ثالثاً : عاقبة ترك الدعوة إلى الله

إذا تجاوزنا اختلاف العلماء في حكم الدعوة بين قائل بالوجوب على الأعيان، وموسع له ليكون على عموم الأمة، وانتقلنا إلى مسألة أخرى، فإنا نتساءل عن عقوبة تقصيرنا في الدعوة إلى الله أفراداً ومجموعات؟

الدعوة ضرورة حياتية

وأحياناً يقول المثبطون والمتثاقلون عن طريق الدعوة، المتشبثون بالأعذار، والمستترون بالتعقل تارة، وبالحكمة تارة: ما لكم والآخرين، دعوهم يفعلون ما يحلو لهم، ما الذي يضيركم في منظر امرأة متهتكة إذا استترت نساؤكم؟ أو في رجلٍ يشرب الخمر فيضر نفسه ولا يؤذيكم، أو ثالث ينمي أمواله بالربا؟ ألا يكفي أن لا تشاركوهم معاصيِهم؟ دعوا الناس أحراراً، وربما قال بعض ظرفائهم: دعوا الخلق للخالق.

والسؤال: ماذا تخسر الأمة المسلمة لو تركت الدعوة إلى الله تعالى؟ كيف تكون دنيانا؟ وكيف ستغدو عند الله أُخرانا؟

والحق أن الله خلق الناس أحراراً، لكن حريتهم تنتهي حين تنتهك حرية الآخرين، والعاصي حين يعصي ربه لا يعتدي على حق الله فحسب، ولا يستجلب الشقاء لنفسه فقط، فمعصيته التي يسميها حرية شخصية يستجلب بها غضب الجبار على عموم المجتمع من حوله ، ويستمطر العذاب عليهم من السماء، ذلك أن لله قانوناً يتناساه البطالون يقضي بعقوبة المجتمع ؛ كلِ المجتمع إذا ظهرت المعاصي وفشت بين الناس من غير نكير ولا تبصير، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(الأنفال: ٢٥).

قال القرطبي: «قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُملت ، هلك الكل ، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر ، وعدم التغيير»، وقد قال عمر رضي الله عنه: «إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عُمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم».

وقد قال الحبر ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقِروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»[1].

ونزول العذاب بعموم الأمة يؤذي فيمن يؤذيه ؛ المؤمنين لأنهم ممن يقع عليهم العذاب، لكن هؤلاء الصالحين يكون أذاهم في الدنيا دون الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده» فقالت عائشة: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى .. يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»[2]، وفي حديث آخر: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»[3]، ولا يظلم ربنا أحداً.

وهكذا، فحين يقوم الدعاة إلى الله بواجبهم في النصح والإرشاد؛ فإنهم يدفعون عن أهلهم البأس والأذى، ويحققون الضمان والأمان لعموم مجتمعهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٩٢/٧).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٦٥٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير ح (٧٤٧)، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢١٦/٤٤).

(٣) أخرجه البخاري ح (٦٦٩١)، ومسلم ح (٢٨٧٩).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا صالحين في ذواتهم ؛ مصلحين لمن حولهم: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٦).

وفي الحديث أن أم المؤمنين زينبَ بنتَ جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: «نعم، إذا كثُر الخبث»[١]، فوجود الصالحين في مجتمع ما لا يمنع نزول العذاب، وأما وجود الدعاة المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فهو الأمان والضمان لأهل الأرض من عذاب السماء.

وفي عهد الصدر الأول؛ لما سمع بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥)، فهموا منها أن لا حرج عليهم في وجودهم والمعصية والعاصين جنباً إلى جنب، ما داموا لا يفعلون المعصية ولا يرتعون فيها، فصحح لهم أبو بكر الصديق فهمهم، وقال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ يوشك أن يعمهم الله بعقابه»»، وفي رواية: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٣٤٦)، ومسلم ح (٢٨٨٠).

يوشك أن يعمهم الله بعقاب»[(١)]، فقوله: ﴿لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ معناه : قوموا بالدعوة إلى الحق وتبصير الناس، ثم لا يضيركم ضلال من ضل بعد ذلك، فالله لن يؤاخذ المصلح بجريرة المفسد وعدمِ قبوله للنصح والتذكير.

إننا حين نترك هؤلاء العابثين يفعلون ما يحلو لهم من غير وعظ ولا إرشاد ولا تنبيه؛ فإنما نعرض سفينة المجتمع للغرق في بحور الرذيلة والفوضى والمشكلات الاجتماعية والصحية، وهي أنواع من الانتقام الإلهي، وقد شبه ﷺ هؤلاء العابثين بقوم ركبوا في سفينة، وأرادوا أن يخرقوا في نصيبهم منها بزعم أنه نصيبهم، وأن هذا من حقهم بموجب الحرية المزعومة، وأنهم لا يريدون إيذاء الآخرين ولا مضايقتهم « لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا»، قال ﷺ: « فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً»[(٢)].

ويبين النبي ﷺ اختصاص بعض المعاصي بعقوبات تصيب المجتمع ككل، فعن عبد الله بن عمر ، قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن :

لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٣٣٨)، وأبو يعلى في مسنده ح (١٢٨)، وصحح إسناده الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري ح (٢٤٩٣).

ولـم ينقصـوا المكيـال والميـزان ، إلا أُخـذوا بالسـنين ، وشـدة المؤونـة ، وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلا مُنعوا القطر من السماء، ولـولا البهـائم لـم يمطروا.

ولـم ينقضـوا عهـد الله ، وعهـد رسـوله ، إلا سـلط الله علـيهم عـدوا مـن غيرهم ، فأَخذوا بعض ما في أيديهم.

وما لـم تحكـم أئمتهم بكتـاب الله ، ويتخيروا ممـا أنـزل الله ، إلا جعـل الله بأسهم بينهم»[١].

ومن أعظم الخير الذي يفوت عموم الأمة إذا قعد الدعاة أو تلكؤوا عن الدعوة إلى الله وإلى معالم دينه؛ غلقُ أبواب السماء دون دعوات المؤمنين وردُّها وعدم قبولها.. تُرد دعواتهم وهم أحوج إلى ربنا وعونه في كل شاردة وواردة، ولا غناء لهم ولا لغيرهم طرفة عين عن رعايته، وتركُنا لواجب الدعوة يوصد أبواب الرحمة عنا، ويحيل دعواتنا إلى كلمات بكماء لا مجيب لها، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»[٢]، فأي مصيبة تلك التي تلحقنا حين ندعو الله فلا يستجيب لنا بسبب تقصير بعضنا في الدعوة، وغيرهم بالمعصية!!.

ولنتأمل قصة من تاريخ الإنسانية حكاها الله لنا في القرآن لنستلهم منها

---

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٤٠١٩).

(٢) أخرجه الترمذي ح (١١٣)، وحسن إسناده الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

العبرة والعظة .. القصة لأمة بني إسرائيل.. وقعت فيهم معصية لله، ثم جاهر بها أصحابها، فأنكرها أصحاب العقول والنُهى من المؤمنين، واستبشعها آخرون منهم من غير نكير للمنكر ودعوة للمعروف .. متذرعين بعدم فائدة النصح لأقوام استمرؤوا المعصية وداوموا على طرق أبوابها ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٣) وإذ قالت أمةٌ منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ (الأعراف: ١٦٣-١٦٤).

وهكذا فقد انقسم الصالحون من بني إسرائيل إلى قسمين: مصلحين أنكروا على العصاة نصب شباكهم للصيد في يوم السبت، ومتفرجين سكتوا عنه، فماذا قال الله عن عاقبة هؤلاء وهؤلاء؟ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون (١٦٥) فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ (الأعراف: ١٦٥-١٦٦).

والآية صريحة بنجاة الدعاة المنكرين للمنكر ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ ، وهي صريحة أيضاً بهلاك العصاة الظالمين ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون﴾ ، لكن ماذا عن مصير الطائفة الثالثة الساكتة عن إنكار الباطل والممتنعة عن فعله؟

سكتت عنهم الآية، فلم تذكر مصيرهم، فهل كانوا من الناجين أم الهالكين؟

وفي جواب هذا السؤال؛ اختلف العلماء بين قائل بهلاكهم، لعدم إنكارهم المنكر، فصاروا في عداد الظالمين الداخلين في قوله تعالى:

﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ﴾، وبين قائل بنجاتهم ، وهو قول جمهور العلماء الذين رأوا أنهم من الناجين؛ وإنْ سُكت عن مصيرهم استبشاعاً لفعلهم .

وقال ابن كثير: «فنصَّ [القرآن] على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيُمدَحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيُذَموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟»(١) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٤).

رابعاً: الإنكار القلبي آخر الإيمان

في مجتمعات تسودها قيم الجاهلية يصبح الأمر بالمعروف جريمة يعاقب عليها القانون الذي يحمي العابثين المستهترين بشرائع الله.. فهل نترك - والحال هذه - الأمر بالمعروف والدعوة إليه ونصطلح مع المنكرات وأهلها؟

لا ريب أن الشريعة لم تكلف المسلم بما هو فوق طاقته وإمكاناته، فالدعوة إلى الله كسائر العبادات يحكمها الاستطاعة ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ولئن عجز المرء عن بعض مراتب الدعوة ودرجات إنكار المنكر؛ فإنه لن يعجز عنها جميعاً، وهو ما يبقيه مكلفاً بإنكار المنكر وكراهيته بالقدر الذي يستطيعه، فقد جعل رسول الله ﷺ مراتب إنكار المنكر ثلاثة: الإنكار باليد، ثم اللسان، ثم القلب، قال ﷺ: «ما مِنْ نبي بعثَه الله في أمَّةٍ قبلي إلاّ كان له من أُمَّتِه حَوَارِيُّون، وأصحابٌ يأخذون بسنَّتِه، ويقتدون بأمرِه، ثم إنَّها تَخْلُفُ من بعدِهم خُلُوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيدِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبِه فهو مؤمنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل»[1].

خاتمة هذا الحديث العظيم ذكر ﷺ فيها مرتبة إنكار المنكر بالقلب، وعقب عليها بالقول: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»، وفي

---

(١) أخرجه مسلم ح (٥٠).

حديث آخر: «فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١]، فجعل ﷺ إنكار المنكر في القلب أدنى مراتب الإيمان وآخرَها وأقلَّها، وذلك أنه لا يعجز عنها أحد .. القوي والضعيف، والغني والفقير، والرجل والمرأة، لذا لما تكلم يحيى بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قالت له امرأة: هذا واجب قد وُضع عنا. فقال: هبي أنه قد وُضِع عنكن سلاحُ اليد واللسان، فلمْ يوضع عنكن سلاحُ القلب»[٢].

قال الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما القلب فيجب [الإنكار به] بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي ﷺ: (وذلك أدنى أو أضعف الإيمان) .... فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان»[٣].

ولما عرَّف رحمه الله الردة جعل من صورها ترك الإنكار القلبي، فقال: «المرتد من أشرك بالله تعالى، أو كان مبغضاً للرسول ﷺ ولِما جاء به، أو ترك إنكار منكر بقلبه»[٤].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: « إنكاره بالقلب لا بد منه ، فمن لم ينكر قلبُه

---

(١) أخرجه مسلم أيضاً ح (٥٠).

(٢) إعلام الموقعين ، ابن القيم (١٥٧/٢).

(٣) الاستقامة (٢/ ٢١٢-٢٢١).

(٤) الفتاوى الكبرى (٥٣٥/٥).

المنكرَ؛ دل على ذهاب الإيمان من قلبه»[١]، وقال ابن حزم: «ذلك أضعف الإيمان ؛ فإن لم يفعل فلا إيمان له»[٢] ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ (الحجرات: ١٤).

والإنكار بالقلب ليس معناه اعتقاد حرمة المنكر كما يفهم البعض ، بل يُطلب ما هو أكثرُ من ذلك .. تحركُ القلب كراهيةً للمعصية وتبرماً من وقوعها، كمن مرَّ على امرأة سافرة أو رجل يعاقر موبقاً، فإنكار قلبه لا يتحقق بمجرد معرفته بحرمة فعلهما، بل لابد أن ينضاف إليه معنى الكراهية والتحسر والألم لوقوع العباد في مخالفة أمر الله العظيم ، وعصيانِهم للملك الديان ، وذلك غَيرة على الله وحرماته، ورحم الله مطرِّفَ بنَ عبد الله القائل: «وددت لو أن جسمي يقرض بالمقاريض، وأن هذا الخلق أطاعوا الله»[٣].

إن الذين لا ينكرون المنكر قد تعرضوا لمسببات الفتن، وعرضوا قلبهم لنزغات الشيطان ، فقد قال ﷺ : «تعرَض الفِتن على القلوبِ كالحصير عوداً عوداً، فأيّ قلبٍ أُشرِبها نُكِتت فيه نكتةٌ سوداء، وأيّ قلب أنكرَها نكِتت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصيرَ على قلبين: على أبيضَ مثلِ الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السموات والأرض، والآخرُ أسودُ مرباداً كالكوز مجخِّياً [كالكأس المقلوب]، لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكر منكراً إلاّ ما أُشرِب من هواه»[٤].

والذين لا ينكرون المنكر بقلوبهم، لا يملكون – على الحقيقة – قلوباً،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٣٢١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٣١).

(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني (١٠/١٥٠).

(٤) أخرجه مسلم ح (١٤٤).

بل هم أموات في أثواب أحياء.. لما سئل ابن مسعود : «من ميت الأحياء؟ قال: الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً»[١].

وأما صاحب القلب الحي فيتفطر قلبه حياء من الله حين يرى معصيته في الأرض ، يقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأرى المنكر فلا أتكلم؛ فأبول دماً»[٢]، فهذا الإمام الجليل أنكر بقلبه الحي وغضِب لله حين رأى حرماتِه تنتهك، وحين عجز عن إنكار المنكر بلسانه، حزن قلبه وجَلاً من ربه ومولاه، وتعظيماً لشعائره، ولم يكن حاله كحال الرجل الذي ذكر خبره في بعض الآثار ، ولا يصح رفعها إلى النبي ﷺ ، يقول الخبر: « أوحى الله عز وجل إلى جبريل ـ عليه السلام ـ أنِ اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها ، قال : يا ربّ إن فيهم عبدك فلاناً لم يعصك طرفة عين ، قال: اقلبها عليه وعليهم ، فإنَّ وجهه لم يتمعَّر فيَّ ساعة قطُّ»[٣].

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أي قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر نكِّس، فجُعِل أعلاه أسفلَه»[٤]، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هلك من لم يعرِّف المعروف بقلبه، ولم ينكر المنكر بقلبه»[٥]، وقال: «ستكون هَنَات وهَنَات ، فبحسب

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٢٧/٢٨).

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦٤٠/٦).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ح (٧١٨٩) من حديث جابر مرفوعاً، وقال الألباني: «ضعيف جداً» السلسلة الضعيفة ح (١٩٠٤).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٣٧٥٧٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٣٧٥٨١).

امرئ إذا رأى منكراً لا يستطيع له تغييراً أن يعلم اللهُ أنه له كاره»[١].

وللإنكار بالقلب علامات لا تخفى، فلا يتصور من منكر في قلبه أن يضحك ملء شدقيه وهو يرى المنكر ، أو أن يهش لأصحابه، ويظهر لهم الإكرام والإجلال ، أو يكونَ من جلسائهم وشركائهم في لهوهم، فهذه الأفعال وأضرابها تدل على الرضا بالمنكر، ولا تتوافق مع زعم بالكراهية له وإنكاره بالقلب، قال ابن النحاس: «من لم يقدر على الإنكار باللسان، وقدِر على إظهار دلائل الإنكار، مثل تعبيس الوجه، والنظر شذراً، والتجهم، وإظهار الكراهية لفعله، والازدراء به، وهجره في الله تعالى؛ لزمه ذلك، ولا يكفيه العدول إلى الإنكار بالقلب مع إمكان دلائل الإنكار الظاهرة»[٢].

ولذلك المعنى ما يشهد له في حديث إسناده ضعيف، وفيه: « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل؛ كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ (المائدة: ٧٨)»[٣].

إن الرضا بالمعصية من الموبقات التي تجعل العبد شريكاً للعصاة في آثامهم، فقد قال ﷺ : «إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٣٨٤٦٠).

(٢) تنبيه الغافلين، ص (٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٣٣٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (١١٠٥).

فكرهها أو أنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[١]، وذلك «أن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات، ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب، وهو فرض على كل مسلم، لا يسقط، عن أحد في حال من الأحوال»[٢]، وقد قال ﷺ في الرضا بالمعصية: «يكون عليكم أئمة تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع فأبعده الله»[٣]، قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «إنما عقر الناقة رجل واحد، فعمهم الله بالعقوبة، لأنهم عمُّوا فعله بالرضا»[٤].

وأخطر من الرضا بالمعصية الفرح بها ومحبة انتشارها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (النور:١٩).

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٣٤٥).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن عبد البر (٢/٢٤٥).

(٣) أخرجه أبو عوانة في مسنده ح (٧١٦٤).

(٤) الاستذكار، ابن عبد البر (٨/٥٨٦).

الفصل الثاني:

صفات الداعية

الداعية العالم بما يدعو إليه

لعل من أهم الصفات التي لا يجوز فقدها في الداعية؛ العلم.. كيف يدعو إلى مسألة من هو جاهل بها!، فلعله يحرم حلالاً، أو يحل حراماً .. لذا أحسن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ حين بوَّب في موطئه: «بابٌ: العلم قبل العمل».

ولسنا نريد هنا تكبيل كل أحد عن الدعوة بذريعة قلة العلم وعدم بلوغه شأواً فيه، فالأصل في كل منا أنه يعرف من دينه شيئاً ، ولو كان ضئيلاً، فهو في هذا القدر عالم، وجاز له الدعوة إليه إعمالاً لأمر النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[1]؛ فمثل هذا البلاغ يقدر عليه كل مسلم؛ وإن لم يحز أبواب العلم المختلفة، فالدعوة لا يشترط فيها أن تكون من عالم مطلق، أو مجتهد خرّيت، بل يدعو المرء بما يحسنه، مع استصحاب أن يكون ملماً بأقوال العلماء واختلافاتهم في موضوعه، حتى لا يقع في إنكار معروف، أو التعريف بمنكر جهله .. ولا يغيب عن ناظريه قول الله تعالى: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علمٌ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ (الإسراء: ٣٦)، فالجاهل بالمسألة قد يضل من حيث أراد أن يهدي، أو يدل على باطل، أو ينكر حقاً جهله، وفي كل ذلك من الشر ما فيه، قال ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٤٦١).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٠٠)، ومسلم ح (٢٦٧٣).

وفي عهد المأمون وقع بعض الآمرين بالمعروف بتجاوزات ، فأمر المأمون مناديه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: قد اجتمع الناس على إمام، أي هو وشرطته يقوم بالحسبة فحسب.

فمر أبو نعيم الفضل بن دكين فرأى منكراً، فأزاله، فحملوه إلى المأمون، ولنقرأ ما حدث بعد ذلك!

يقول أبو نعيم: فأدخلت عليه بكرة وهو يسبح، فقال: توضأ. فتوضأتُ ثلاثاً ثلاثاً على ما رواه عبد خير، عن علي، فصليت ركعتين.

فقال المأمون: ما تقول في رجل مات عن أبوين؟ فقلت: للأم الثلث وما بقي للأب؟

قال: فإن خلف أبويه وأخاه؟ قلتُ: المسألة بحالها، وسقط الأخ ، قال: فإن خلف أبوين وأخوين؟ قلت: للأم السدس وما بقي للأب.

قال: في قول الناس كلهم؟ قلت: لا ، إن جدك ابن عباس يا أمير المؤمنين ما حجب الأم عن الثلث إلا بثلاثة إخوة.

فقال المأمون: يا هذا من نهى مثلك عن الأمر بالمعروف؟! إنما نهينا أقواماً يجعلون المعروف منكراً[(١)].

واليوم تواجهنا مصطلحات تتجذر في مجتمعاتنا يوماً بعد يوم، ومن أخطرها ذاك الذي يفصل بين الدعوة والعلم، فيجعل لكل واحدة منها أهلون مختلفون، فهذا عالم، وذاك داعية غير عالم، وهو تقسيم غريب لا يعرفه

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/١٥٠).

الإسلام الذي لا يقبل المجافاة بين العلم والدعوة.

على كل حال هذه الفرقة البغيضة موجودة في واقع الناس اليوم، فثمة من يُسمَون العلماء، وهم المختصون بالفتيا والقضاء، بينما يطلق اسم الدعاة على الذين يتصدون لوعظ الناس وإرشادهم في الحياة العامة.

وهؤلاء الدعاة يتفاوتون في قدراتهم العلمية، فمنهم من يرتفع إلى مصاف العلماء، ومنهم الواعظ الذي عرف مسألة ، فبلغها لمن حوله أو لأهل مسجده؛ ممتثلاً أمر النبي ﷺ : «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً، فحفظه حتى يبلغه، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورُبَّ حامل فقه ليس بفقيه»[1].

وتثور مشكلة مهمة حين ينظر عوام الناس إلى هذا الداعية الذي يذكرهم بأمور دينهم على أنه العالم أو المرجع الذي يرجعون إليه في الكثير من أمورهم، بما فيها المسائل التي تنبو عن معارفهم الدينية، فقد أضحى الشيخ في مجتمعاتنا المتدينة التي تعطي للدعاة والوعاظ والمشايخ مساحة كبيرة في التوجيه والتأثير، أضحى مرجع الكثيرين في حل مشاكلهم الحياتية، وأحياناً الصحية، ناهيك عن المشاكل الاجتماعية وتأويل أحلامهم ومناماتهم... وهم يفترضون في الداعية أن يجيبهم في هذه الأمور جميعاً.

ظاهرة التعالم اليوم من أكبر ما يقلق المربين والعلماء، فقد تفشت بين العوام ، وكذلك بين شباب الدعوة أو بالأصح غلمانها، حيث يحسب

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٦٥٨)، وأبو داود ح (٣٦٦٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

الواحد من هؤلاء نفسه أحد الأئمة المقتدى بهم لأنه ألمّ بمسألة، أو أتقن اثنتين، حتى رأينا من يزهو كالطاووس، لموعظة ألقاها في محفل، أو ظهوره في برنامج فضائي، أو لإسلام البعض على يديه، فيفتي في القريب والبعيد، وهو يخطئ في آي القرآن إذا قرأها، فلا يكاد يحسن تلاوتها على وجه صحيح.

وحين ندرك اتساع هذه الظاهرة بسبب وسائط التقنية الحديثة، يغدو مهماً التذكير بأهمية أن يعرف كلٌ تخصصه وقدْره، فلا يتجاوزه إلى ما لا يستحقه، ولا يفوه إلا بما يعلم من مسائل ومعارف، ولا يكلم الناس في أمورهم الدنيوية أو الأخروية إلا في حدود معلوماته وخبراته، فالداعية المسدد عالم بما يدعو إليه، متوقف فيما يجهله.

وأسوته في ذلك محمد ﷺ، فقد كان لا يتحدث إلا بعلم وبرهان من الله.. سأله جابر بن عبدِ الله رضي الله عنهما : يا رسول الله كيف أصنع في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ يقول جابر: فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية المواريث[(١)] وهو ﷺ يعلم أمته من بعده الأناة في الفتيا وعدم التسرع فيها، وأن لا يتحدث المرء إلا بعلم صحيح.

وفي موقف آخر جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي البلدان شر؟ فقال ﷺ وهو المعلَم من ربه: «لا أدري حتى أسأل ربي»، فلما أتاه جبريل عليه السلام قال: «يا جبريل أي البلدان شر؟» فقال جبريل: «لا أدري حتى أسأل ربي عز وجل»، فانطلق جبريل عليه السلام، ثم مكث ما شاء الله

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٧٢٣) ، ومسلم ح (١٦١٦).

أن يمكث، ثم جاء، فقال: «يا محمد: إنك سألتني أي البلدان شر؟ .. وإني سألت ربي عز وجل أي البلدانِ شر؟» فقال: «أسواقُها»[(١)].

وفي هذين الحديثين نرى النبي ﷺ وهو أعلم الخلق بما ينزل عليه من وحي الله وعلمه، ورغم ذلك فإنه لا يرى حرجاً من التريث في الإجابة وترك الفتيا في مسألة لا علم له فيها، بل ينتظر ما ينزله الله عليه من الوحي والعلم، ولا يجد غضاضة أن يقول هو وجبريل كلمةً يستكبر عن قولها كثيرٌ من الناس اليوم، وهي كلمة: لا أدري.

وقد تأسى أصحاب النبي ﷺ بنبيهم الأسوةِ الحسنة، فأحجموا عن الفتيا بغير علم، وذلك باب واسع يطول تتبعه، فها هو الصديق رضي الله عنه يُسأل عن تفسير آية فيقول: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا أنا قلتُ في كتاب الله بغير ما أراد الله بها؟»[(٢)].

وأما ابن عمر رضي الله عنه فدخل عليه أعرابي، وهو في نفر من أصحابه، فقال: أنت عبد الله بنُ عمر؟ قال: نعم. قال: أخبرني: أترث العمة؟ فقال ابن عمر: لا أدري !! فقال الأعرابي: أنت لا تدري؟! قال: نعم، اذهب إلى العلماء بالمدينة، فاسألهم.

(١) رواه أحمد في المسند ح (١٦٣٠٢)، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٣٠٨/٢٧).

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم (١٢٦/٢).

فلما أدبر الرجل قبَّل ابنُ عمرَ يديّ نفسِه، وقال ممتدحاً جوابه ومعلماً طلاب العلم من بعده: نِعم ما قال أبو عبد الرحمن [يعني نفسه]، سُئل عما لا يدري، فقال: لا أدري[١].

وهكذا فما زال الهداة على أثرهم يلوذون بـ«لا أدري» هذه الجملة التي عزّ أن نسمعها اليوم .. كلمة ما فتئ العلماء يرددونها ويعلمونها لطلابهم، حتى قيل: ينبغي للعالم أن يورِّث أصحابه : لا أدري، لكثرة ما يقولها.

قال عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سأل رجل الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مسألة. فقال: لا أدري. فقال: يا أبا عبد الله، تقول: لا أدري؟ قال: نعم، فأبلغ من وراءك أني لا أدري[٢].

وقال الهيثم بن جميل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شهدت مالكاً سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري، وكان يقول: من أجاب في مسألة ، فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف خلاصه، ثم يجيب[٣].

وأما الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول عنه محمد بن عبد الحكم: سألت الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المتعة أكان فيها طلاق أو ميراث أو نفقة تجب أو شهادة؟ فقال: والله ما ندري[٤].

---

(١) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن ح (٧٩٦).
(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم (١/٢٧).
(٣) التمهيد لما في الموطأ، ابن عبد البر (١/٧٣).
(٤) تذكرة السامع والمتكلم ، ابن جماعة ، ص (٢٣).

وأما الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول عنه الأثرم: سمعت أحمد يكثر أن يقول: لا أدري[١].

وهكذا فالداعية من أعرف الناس بحق الله تبارك وتعالى، لذلك لا يفتر لسانه عن ترداد (لا أدري) في مواضعها .. تلك الكلمة السحرية التي يخجل من قولها الأدعياء ، ويفخر بها العلماء، فهي العاصم لهم من قواصم الإفتاء بغير علم أو تفسير القرآن بغير هدى، فتَحولُ بينهم وبين موبقات القول على الله بلا برهان، الذي يفسد على الداعية دنياه وأخراه ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ۝ متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾ (النحل: ١١٦-١١٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقاً على الآية: «فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لمْ يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه؛ أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام؛ إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه، وقال بعض السلف: ليتقِ أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرم كذا، فيقول الله له: كذبتَ، لم أُحِلَّ كذا ، ولم أُحرمَ كذا، فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله وتحريمه: أحله الله، وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل»[٢] ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

(١) آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، النووي، ص (١٥).

(٢) إعلام الموقعين (٣٩/١).

الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣)، فقرن سبحانه وتعالى القول على الله بغير علم بالفواحش والبغي والشرك.

وفي زمن النبي ﷺ خرج بعض الصحابة في سفر ، فأصاب رجلاً منهم حجر، فشجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات ... أفتوه بغير علم، فتسببت فتواهم بموت صاحبهم، يقول جابر: فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال»[1].

ومن بعده كان الصحابة يود كل منهم لو كفاه غيرُه فتيا الناس؛ خشية أن يقول ما لا يعلم، يقول التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أدركت عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، يُسأل أحدهم عن المسألة، فيرُدها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول[2].

وهكذا فإن التريث في الفتوى والامتناع عن القول بغير علم وتعلم المسائل ومعرفة أقاويل العلماء فيها قبل النكير عليها؛ أدب من الآداب التي يتعلمها الداعية من الأسوة الحسنة نبينا محمد ﷺ الذي أدبه ربه: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كان عنه مسؤولاً ﴾ (الإسراء: ٣٦).

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن ح (٦٥٥).

الداعية الرفيق

صفات كثيرة هي تلك التي ينبغي أن يتخلق بها الداعية، وهو يبذل جهده ووقته في استنقاذ مدعويه من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، أو من البدعة إلى السنة.

لكن لربما كان الرفق أهم تلك الصفات وأكثرها حاجة، وبخاصة خلال تعاملاته التي يتوقع لها أن تكون متشنجة أو غير سلسة .. حين يتصدى لتقصير الناس وأخطائهم ، أو تذكيرهم بما غفلوا أو تغافلوا عنه، أو يدعوهم إلى ترك إلفهم، أو يشنع عليهم قبوعهم عند شهواتهم، أو يحاورهم فيما استقر في مكنوناتهم من صور ورؤى خالفت الحق .. فحينذاك تقع النفرة والاختلاف والتنازع، فنحتاج إلى الرفق، وإلى الوصاة به.

وأما جلسات الوداد والخلان والوفاق فالرفق فيها تحصيل حاصل، ولا حاجة للوصاة به، لأنها مجالس تقوم وفق طبائع الأمور ومعتادها.

والرفق هو «لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل»[١]، وهو خلة جليلة اتصف بها الله تبارك وتعالى: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[٢]، وفي رواية: «إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه، ويعين عليه ما لا يعين على العنف»[٣].

وقد بيَّن ﷺ أن هذه الصفة الحسنة لازمة للمسلم في كل شؤونه

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر (١٠/٤٤٩).
(٢) أخرجه مسلم ح (٢٥٩٣).
(٣) أخرجه أحمد ح (١٦٨٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (٢٦٦٨).

الدعوية؛ بل والحياتية: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[١]، وأن الذين يُحرمون هذه الخلة الجليلة في معاملتهم مع الآخرين، فهؤلاء هم المحرومون حقاً : «من يحرم الرفق يحرم الخير»[٢].

وقد حاز نبينا ﷺ السهم الأول والحظ الأوفر من الرفق، ولا عجب، فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ٤).

ولنعرض إلى درس نبوي في الرفق مع المخطئ، يقصه علينا معاوية بن الحكم ﷺ، فقد عطس أمامه رجل، وهو يصلي، فشمَّته معاوية وهو لا يدري بحرمة الكلام في الصلاة، فوقع له من الصحابة الكرام ما يتوقع لمثله من اللوم والعتاب، يقول: «فحدقني القوم بأبصارهم، فقلتُ [أي وهو في الصلاة]: واثكل أمياه، مالكم تنظرون إليّ؟

قال: فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتونني، لكني سكت.

فلما انصرف رسول الله ﷺ دعاني، بأبي هو وأمي، ما ضربني، ولا كهرني، ولا سبني، ما رأيتُ معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه»[٣] موقف في الرفق مع الجاهل بأحكام الصلاة .. لم ينسه معاوية ﷺ يوماً، بل قصَّه على الأجيال لتتعلم منه هذا الخلق الرفيع في معاملة الجاهل والمقصر والمخطئ ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا

(١) أخرجه البخاري ح (٦٠٢٤) ومسلم ح (٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٥٩٢).

(٣) أخرجه مسلم ح (٥٣٧).

من حولك ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وفي صبيحة يوم آخر جلس النبي ﷺ في المسجد مع أصحابه، فقام أعرابي فبال في طرف المسجد، فوثب إليه الصحابة يعنفونه على فعلته القبيحة، أما وجد مكاناً أليق لحاجته من مسجد رسول الله ﷺ؟! فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه [أي يكمل بوله]، وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذَنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين».

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»[1].

قال أبو حاتم، ابن حبان البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العاقل يلزم الرِفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛ لأنَّ الزيادة على المقدار في المبتغى عيبٌ، كما أنَّ النقصان فيما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرِّفق لم يصلحه العنف، ولا دليلَ أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرِّفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز ترجى السلامة، وفي ترك الرِّفق يكون الخَرَق، وفي لزوم الخَرق تُخاف الهَلَكَة»[2].

ومن نماذج الرفق عند سيد الدعاة وأرفقهم ما حكاه لنا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسنده .. موقف نبوي يصور الرفق في أضوأ تجلياته .. مشهد لا يكاد ينقضي العجب منه، فقد دخل شاب على النبي ﷺ يستأذنه بأمر لا

(١) أخرجه مسلم ح (٢٨٥).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص (٢١٦).

يخطر على بال سامع .. يستأذن أطهر خلق الله بالزنا! أما يرعوي هذا الشاب؟ كيف يستأذن نبي الطهر والفضيلة بفعل أقبح الرذائل وأشنعها؟

وأهمس في أذن قارئي الكريم: كيف ستتصرف لو استأذنك ابنك أو ابنتك في إتيان هذه السفالة؟

لقد نال الشاب ما يتوقعه القارئ من التقريع والزجر، يقول أبو أمامة: فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه.

وأما النبي ﷺ فقد أدرك أن انحراف الشاب لن يقوَّم بالزجر والوعيد والتقريع، بل بالحوار الرفيق مع داخله ، واستلال سخيمة الغواية من قلبه بالتكأة على مكنون القيم ومعاني العفة والشرف وحماية العِرض والغَيرة التي يدخرها هذا العربي بين جنباته، فقال له: «ادنه، أتحبه لأمك؟»، فانتفض الشاب غَيرة على أمه، وقال: لا، والله جعلني الله فداءك. فقال له ﷺ: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، أفتحبه لابنتك؟» فأجاب الشاب: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. فقال ﷺ: «ولا الناس يحبونه لبناتهم».

ومضى النبي ﷺ يستثير كوامن الغيرة الممدوحة في صدر الشاب «أفتحبه لأختك؟ .. أفتحبه لعمتك؟ .. أفتحبه لخالتك؟» لقد كان ﷺ يستل بالحوار دخن قلبه، ويطفئ بحواره الرفيق نار شهوته، مستعيناً بتعداد محارمه، وقد تعرضن لما يريد هو من محارم غيره، والشاب يكره لمحارمه ما يذكره رسول الله ﷺ، بل ولا يطيق سماعه، فبين له النبي ﷺ كراهية الناس لهذه الفعلة في أهليهم، كما كرهها هو في أهله؛ فأوصله إلى استبشاع فِعلة الزنا والترفع عنها، قال أبو أمامة رضي الله عنه: «فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى

شيء»[١].

والرفق في معاملة المدعوين قبل أن يكون معاملة مع الناس هو حق لله تعالى ومعاملة معه، لذا يتحلى به المسلم وهو يعامل الناس؛ حتى في حال إساءتهم وخطئهم، أو كونهم كفاراً معادين، ومن أراد أن ينشرح صدره بهذا؛ فليتأمل ما صنعه النبي ﷺ مع ثلة من اليهود دخلوا بيته، فما راعوا حرمة البيت ، ولا التزموا آداب الزيارة ، فبدلاً من إلقاء التحية عليه، كما هو مقتضى أصول التزاور؛ قالوا: السامُ عليكم، أي الموت عليكم .. نفوس خسيسة ينقصها إضافة إلى الدين الكثير من الأدب والذوق والتربية.

سمعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إساءتهم، فقامت ترد عليهم وتدافع عن زوجها، فقالت: وعليكم السامُ واللعنة، فقاطعها النبي ﷺ بقوله: «مهلاً يا عائشة، إن الله يُحبّ الرفق في الأمر كله»[٢]، وفي رواية أنه قال: «يا عائشة ، لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه ، ولم ينزع من شيء إلا شانه»[٣]، فقد طالبها ﷺ بمعالجة الموقف بتصرف رفيق، يتعالى على المكافاة والتشفي والانتقام ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولي حميمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤)، فالهمز واللمز والسباب والتنقص والتسفيه والتطاول يقدر عليه كل أحد؛ وبخاصة السفهاء، وأما مقابلة الشين بالحسن فتلك منازل رفيعة لا يبلغها إلا الأصفياء ﴿ وما يلقاها

---

(١) أخرجه أحمد ح (٢٢٢١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (٦٠٢٤)، ومسلم ح (٢١٦٤).

(٣) أخرجه أحمد ح (١٣٥٣١)، وفي إسناده المؤمل، وهو ضعيف.

إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن﴾ : « هو الرجل يسب الرجل، فيقول الآخر: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك»، وكان ﷺ يقول: «ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك»[1].

ومن أهل هذه المنازل العالية، بل مقدمهم محمد ﷺ، وقد وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[2]، وهي صفته التي أخبر الله عنها في التوراة، ففي حديث البخاري عن عمرو بن العاص ﷺ: «قال في التوراة: ... ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»[3].

وفي التوراة التي يتداولها اليهود والنصارى اليوم نبوءة عن نبي قادم: «هوذا عبدي الذي أَعضُده، مختاري الذي سُرّت به نفسي، وضعتُ روحي عليه، فيخرج الحق للأمم، لا يصيح، ولا يَرفع ولا يُسمع في الشارع صوتُه، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ، إلى الأمان يخرج الحق،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١٥/٣٦١).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ح (٦٤٤٣)، والترمذي ح (٢٠١٦)، واللفظ لابن حبان، وصححه شعيب الأرناؤوط في الإحسان (١٤/٣٥٥).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٨٣٨).

لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته، هكذا يقول الله الرب خالق السموات» (إشعيا ٤٢/ ١ - ٤).

وطوال تاريخ الإسلام حافظ الدعاة والمربون على خلة الرفق، وتمثلوها إماماً لهم في دعوتهم، وقدموا لخلفهم دروساً مهمة يجتمع عليها من أراد التأسي بهم والسير على غرزهم، ومنها: أن رجلاً شتم قنبراً مولى علي بن أبي طالب ﵁، فناداه عليٌ: «يا قنبر! دع شاتمك ، والهَ عنه؛ ترضِ الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب شاتمك، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه»[(١)].

ومرَّ فتى على صلة بن أشيم العدوي ﵀، وهو يجر ثوبه، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم، فقال صلة: دعوني أنا أكفيكم أمره، ثم دعاه فقال: يا ابن أخي، لي إليك حاجة. قال الفتى: وما حاجتك؟ قال صلة: أن ترفع إزارك. قال الفتى: نعم، ونعمت عين. فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا أمثلُ مما أردتم، لو شتمتموه لشتمكم[(٢)].

وأما الإمام الزاهد مالك بن دينار ﵀ فدخل عليه لص، فما وجد في البيت ما يأخذه، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا، فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس، وخرج إلى المسجد، فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/٣٦٢).

(٢) البداية والنهاية (٩/٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٣٦٣).

وهكذا فلا غناء للداعية عن الرفق بمدعويه، وصدق الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلاَّ من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى».

وقال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناس محتاجون إلى مداراة ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجلاً معلناً بالفسق، فلا حرمة له»، قال: «وكان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلاً رحمكم الله، مهلاً رحمكم الله»[١].

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب (٢/٢٥٦).

الداعية الحريص

أرسل الله أنبياءه ليكونوا نقلة رسالته وحملة دينه، وليقدموا المثل الأعلى لأممهم، فجعلهم أصدق الناس طوية، وأرحم الخلق بالخلق، وأحرصهم على هداية الناس وسعادتهم؛ بما اجتباهم الله له من كريم العمل، وما جبلهم عليه من محبة الخير والبذل له، وقد تجردوا عن حظوظ أنفسهم، وعاشوا وغاية مأمولهم أن يهتدي الناس إلى ربهم، وأن يلتزموا شرائعه، فكانت دعوة الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة همَهم ومبتغاهم.

هذا أبو الأنبياء نوح عليه السلام يجهد في دعوة قومه قرابة الألف عام، وهو يدعوهم إلى طاعة الله وعبادته، وليس له من همٍّ إلا خيرُهم وهدايتهم، لا يكل ولا يفتُر ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ (نوح: ٥)، لكنهم لم يؤمنوا، فما توانى عليه السلام في دعوتهم وما تقاعس، وهو الحريص على خلاصهم وإيمانهم ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ (نوح: ٨-٩)، و«كل هذا من نوح عليه السلام مبالغةٌ في الدعاء لهم ، وتلطفٌ في الاستدعاء»[1].

وأما يوسف عليه السلام، فلم يمنعه ظلامُ السجن وظلامتُه أن يدعو إلى الله تعالى خلف قضبانه، فالداعية لا يعرف في دعوته حدود الزمان ولا فواصل المكان، ولما جاءه صاحباه في السجن يقصان عليه رؤياهما ، لم يفرط في الفرصة التي لاحت له، فاهتبلها، ودعاهما إلى الله ودينه قبل أن يفسر لهما رؤياهما ﴿قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٨/٣٠١).

يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون (٣٧) واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيءٍ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ (يوسف: ٣٧-٣٨).

وقبله وبعده توالى الأنبياء ، يجمعهم جميعاً نهج الحرص على هداية الناس والشفقة عليهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ أستاذ الدعاة وأعظمهم، فوصفه ربه تعالى بما لا يصح أن يتخلف عنه داعيةٌ إلى الله.. الحرص على المدعوين والدأب في أسباب هدايتهم ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)، قال أبو الحسين الفارسي رَحِمَهُ اللهُ: «هل وصف الله عز وجل أحداً من عباده بهذا الوصف من الشفقة والرحمة التي وصف بها حبيبه ﷺ؟ ألا تراه في القيامة إذا اشتغل الناس بأنفسهم كيف يدع حديث نفسه ويقول: أمتي أمتي؟ يرجع إلى الشفقة عليهم»[(١)].

لم يدخر النبي ﷺ جهداً ولا وقتاً إلا وأشغله في استنقاذ نفوس أمته من النار، وقد شبه حاله معهم تشبيهاً بليغاً «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم، وأنتم تَقَحَّمون فيها»، وفي رواية: «وأنتم تَفلَّتون من يدي»[(٢)].

قرأ عليه الصلاة والسلام يوماً قول أبيه إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً

(١) شعب الإيمان، البيهقي (١٦٣/٢).
(٢) أخرجه مسلم ح (٢٢٨٥).

مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وقول أخيه عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨) ، فبكى عليه الصلاة والسلام، فما الذي أبكاه، أي ألم دهاه عليه الصلاة والسلام؟

جواب سؤالنا نراه في مشهد يديه، وقد رفعهما إلى السماء، وهو يقول: «اللهم أمتي أمتي»، إنه يخشى عليهم أن يصيبهم ما أصاب السابقين من الضلال والانحراف واستحقاق العذاب.

فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله [أي عن سبب بكائه]، فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك»[(١)]، وهو مصداق بشارة الله تعالى له: ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ (الضحى: ٥).

الداعية الرسول ﷺ ، كان أولَ همه أن يهدي الله العالمين إلى الإسلام على يديه، ومن كان هذا حاله لم يكن من عجبٍ أن يعاتَب بسبب بالغ شفقته عليهم، والتي استجلبها فرطُ حرصه على هداية جبابرة الكفر من قومه، وقد حكى القرآن عتاب الله للنبي ﷺ أو بالأحرى تسليته له في حزنه على كفر وعناد من طبع الله على قلوبهم، فقال له: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ (الشعراء: ٣)، و«هذه تسلية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى:

(١) أخرجه مسلم ح (٣٤٦).

﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (فاطر: ٨)، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (الكهف: ٦))»[١]، فهؤلاء الكفار معاندون لا يستحقون حزن هذا القلب الأسيف عليهم، فلا تأسَ عليهم ولا تهلك نفسك بالتحسر والحزن عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.

ولمزيد من برد الرضا لقلب الداعية الكبير ﷺ؛ أخبره الله تعالى أن حرصَه على هداية أهل الدنيا وبذلَه لأسبابها لن يجعلهم مسلمين ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣)، فثمة قلوب طبع الله عليها بكفرها وعنادها ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل: ٣٧).

الداعية الشفيق ﷺ تناهى إلى مسامعه مرض غلام يهودي كان يخدمه، فأتاه ﷺ يعوده، ومثل هذه العيادة للمريض تمثل فرصة مهمة للدعوة إلى الله.. لقد قعد ﷺ عند رأسه، وقال له: أسلم ، فأسلم الغلام، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[٢]، فقد فرح لاستنقاذه نفساً من غياهب الكفر، وهو يعلم أن الغلام على فراش الموت، فلن يزيد إسلامُه المسلمين في قليل أو كثير، كما لن يضرهم بقاؤه وموته على الكفر.

ومن يقرأ شمائل النبي ﷺ يعجب لصور حرصه التي شملت جميع أمته، ومن ذلك ما صنعه مع عبد الله بن أُبي كبير المنافقين، فقد مات بعد حياة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١٣٥/٦).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٣٥٦).

حافلة بالنفاق والكيد للإسلام، ورغم ذلك فإن النبي ﷺ كفَّنه في ثوبه، وتقدم ليصلي عليه، فقال له عمر رضي الله عنه: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: «إنما خيرني ربي فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠)، وسأزيده على السبعين».

لقد كان ﷺ حريصاً على أن تدرك رحمة الله كل أحد، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ﴾ (التوبة: ٨٤)، فترك الصلاة عليهم[(١)].

ولما آذى أهل الطائف النبيَ ﷺ ، وأغروا به صبيانهم ، أدموا جسده الشريف، فكان ذلك اليوم أصعب أيام حياته.. استذكر ﷺ مع زوجه عائشة رضي الله عنها أصعب أيام دعوته، فقال لها: «لقد لقيتُ من قومكِ ما لقيت، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة.. فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب»، هذا الأذى الأليم لم يحرم هؤلاء من رحمة النبي ﷺ وشفقته، فلم يرض بعذابهم ، بل قال: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[(٢)].

ومن جاد بوقته وعمره في سبيل هداية الناس لن يبخل بالمال، ولو كان أحوج الناس إليه .. هذا ما صنعه ﷺ حين غنم غنائم حنين، فدفعها بسخاء نادر إلى المؤلفة قلوبهم، يشتري قربهم إلى الإسلام وهدايتهم إليه، فقد «أعطى ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٧٠)، ومسلم ح (٢٤٠٠).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٢٣١)، ومسلم ح (١٧٩٥).

حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فاستزاده، فزاده إلى المائة»[١]، وفي رواية لمسلم أيضاً أنه أعطى صفوان بن أمية «مائة من النَعَم، ثم أعطاه مائة، ثم زاده مائة»، ما قيمة مال الدنيا أمام استنقاذ نفس صفوان وغيره من ربقة الكفر، فقد ظفر بنعمة الإسلام، يقول صفوان ﵁: «والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ»[٢].

وأعطى ﷺ رجلاً آخر غنماً بين جبلين، فأتى قومه فقال: «أي قوم، أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر»، وقد نجح هذا العطاء في استجلاب الناس إلى الإيمان، فقال أنس ﵁: «إنْ كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[٣].

وهكذا، فإن الداعية يتفطر قلبه كمداً وحزناً أن لا يهتدي الناس إلى ما هدي إليه، فيبذل غاية وسعه ومنتهى جهده في هدايتهم ودلالتهم على الخير.

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٠٦٠).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٣١٣).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٦٧٠)، ومسلم ح (٢٤٠٠).

الداعية الحكيم

الدعوة إلى الله عمل نبيل في غايته، وهو أيضاً سام في وسائله وطرائق تحصيله، فالبدايات كما النهايات مرسومة في الشرع ومرقومة، والداعية فيها ليس مطلق اليد، بل هو أسير منهج رسمته آيات القرآن الكريم، ومشى عليه نبي الله ﷺ امتثالاً لأمر ربه له: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ (النحل: ١٢٥).

وصور الحكمة الدعوية كثيرة ومتناثرة، ولا يغيب كثير من معالمها عن فطنة العقلاء التي نثرها الله في خلقه، ليتدبروا أحسن ما يصلح للناس من وسائل التأثير والتهذيب مما لم يعارض قواعد الشريعة وأصولها، فالحكمة هي تخير الأسلوب الأفضل والعلاج الأنجع في معالجة انحرافات المدعوين وتصحيح مسار فكرهم وسلوكهم، وهي عملية معقدة تحتاج إلى معرفة غزيرة بأحوالهم واحتياجاتهم وأولوياتهم وطرق التأثير في كل واحد منهم، على اختلاف أفهامهم وطبائعهم، فالحكمة كما عرفها ابن عطية: «مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في عمل أو قول»[(١)]، أي تحقيق المراد بأخصر طريق وأقومه.

وحديثنا في هذا الموضع عن واحد من صور الحكمة، وهو حسن توجيه الناس وتصحيح خطئهم من غير استثارة مشاعرهم وتعصبهم لما هم عليه ، فإن من الحكمة في الدعوة؛ والحسن في الموعظة؛ بأن لا يواجه

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي (١/٣٦٤).

الداعية مدعويه بأخطائهم، حذراً من نفرة قلوبهم وإيذاء مشاعرهم ، أو فرَقاً من أن يستحوذ عليهم الكبر، فيرفضوا الحق والخير الذي جاءهم بأسلوب صادم ؛ لا يذعن له إلا من استعلى على حظ نفسه، وأسلم للحق قياده؛ ولم يكن ممن حكى الله في القرآن حالهم ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ (البقرة: ٢٠٦).

والداعية حيي، فالحياء شعبة من شعب الإيمان، وحياؤه من الناس يدفعه للتجافي عن مواجهة الناس بإساءاتهم، ويدعوه إلى تركِ جبههم بسوءاتهم، وعدم مصارحتهم بأخطائهم، ولكنه أيضاً لا يمكن أن يتوانى عن واجبه في الدعوة والإرشاد والنصح، لذلك هو يتحرى الأسلوب المناسب في الوعظ، الذي يحفظ لمدعويه ماء وجوههم؛ من غير أن يقصر في واجب ربه في البلاغ والتبيين والنصح للمسلمين.

النبي ﷺ كان من أشد الناس حياء، بل كان كما يصفه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه»[1]، وحياؤه ﷺ لم يوقف مسيرته الدعوية، بل حلَّاها بخلق كريم، وهو تجنب مواجهة الناس بأخطائهم، مع البحث عن وسائل أخرى للتنبيه على الخطأ .. من ذلك أن رجلاً دخل على رسول الله ﷺ وعليه أثر صُفرة، فكره النبي ﷺ ذلك، ولم يجبه بشيء؛ فلما قام قال لرجل من أصحابه: «لو أمرتم هذا أن يدع هذا»، قال أنس رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ لا يواجه أحداً في وجهه بشيء»، وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ قلَّما كان يواجه الرجل بالشيء

(١) أخرجه البخاري ح (٦١٠٢)، ومسلم ح (٢٣٢٠).

يكرهه»[١]، فهذا الموقف النبوي نرى فيه أسلوب النبي ﷺ في تنبيه المخطئ بحكمة، بترك إرشاده على الملأ ، أي من غير أن يجرح شعوره أو يفضحه بين إخوانه، قال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه لشدة حيائه لا يعاتب أحداً في وجهه، وإذا رأى شيئاً يكرهه يُعرف في وجهه، وإذا عاتب لا يعين أحداً ممن فعله، بل كان عتابه بالعموم، وهو من باب الرفق لأمته والسَتر عليهم»[٢].

وهذا الأدب لم يكن عارضاً في حياة النبي ﷺ، بل كان دأباً متواصلاً في التعامل مع المخطئين، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيءَ لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون: كذا وكذا» [٣]، فقد «كان لا يواجه أحداً في وجهه ، يعني لا يشافهه بشيء يكرهه ، لئلا يشوش عليه، فإنه كان واسعَ الصدر غزيرَ الحياء، فكان يقول: "ما بال أقوام يفعلون كذا"، وهذا أبلغ وأعم نفعاً؛ لحصول الفائدة فيه لكل سامع؛ مع ما فيه من حسن المداراة والسَتر على الفاعل وتأليف القلوب»[٤].

والمتأمل في سيرة النبي ﷺ يجد أمثلة كثيرة لهذا الصنيع الجميل، منها أن ثلاثةَ نفر من الصحابة رضي الله عنهم ألزموا أنفسهم بالسهر والرهبنة والصوم المتواصل، فلما بلغ النبيَ ﷺ أمرُهم؛ حمِد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأُفطر، وأتزوج

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ح (٩٩٩٤).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المناوي (١٥٧/٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٢٠٦٤).

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير (٥٢١/٢).

النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وذات يوم رخَّص النبيُ ﷺ في شيء، فتنزه عنه قوم من أصحابه، أرادوا التشديد على أنفسهم، فخطب النبي ﷺ ، فحمد الله، ثم قال معاتباً: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»(٢).

ولما بلغه ﷺ عن بعض أصحابه الكرام أنهم يواصلون الصيام؛ اليوم بعد اليوم؛ قال معرضاً بهم: «ما بال رجال يواصلون؟ إنكم لستم مثلي»(٣).

ولما بلغه ﷺ أن بعضاً من أصحابه يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة؛ قال: «ما بال أقوامٍ يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم»(٤).

وكذلك لما أرادت عائشة رضي الله عنها شراء جارية اسمها بَرِيْرة رفض أصحابها بيعَها إلا بشرط أن يكون ولاؤها لهم بعد إعتاق عائشة لها، فصعِد رسول الله ﷺ المنبر فقال: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليس في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له، وإن اشترط مائة مرة»(٥).

ففي كل هذه الصور نجد سيد الدعاة ﷺ يلجأ إلى عموم الخطاب وإبهام المقصود منه، فهو ينكر المنكر ويقوِّم الخطأ من غير أن يؤدي ذلك إلى جرح مشاعر المدعوين أو التشهير بهم، وهذا الأدب «موافق للمعروف من

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري ح (٦١٠١).

(٣) أخرجه مسلم ح (١١٠٤).

(٤) أخرجه البخاري ح (٧٥٠).

(٥) أخرجه البخاري ح (٤٥٦)، ومسلم ح (١٥٠٤).

خُطبه ﷺ في مثل هذا؛ أنه إذا كره شيئاً فخطب له؛ ذكر كراهيته، ولا يعين فاعله ، وهذا من عظيم خلقه ﷺ، فإن المقصود من ذلك الشخصُ وجميعُ الحاضرين وغيرُهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملأ»[١]، وصدق الله: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

ومما صنعه الأسوة الحسنة ﷺ في توجيه المخطئ بأحكم طريق أنه كان يوجه الخطاب إلى غير المخطئ، والمعني آخر لعله ينتبه ويرعوي، فعن سليمان بنِ صُرَد رضي الله عنه أن رجلين استبا عند النبي ﷺ، وأحدهما يسب صاحبه مُغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ مخاطباً الصحابة؛ لا الرجل المغضب: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

والحكمة النبوية هنا في مراعاة حال الرجل الغاضب؛ فخطابه بهذه الطريقة غير المباشرة أولى من النصح المباشر، لذا لما واجهه الصحابة بقول النبي ﷺ ، فقالوا: «ألا تسمعُ ما يقول النبيُ ﷺ؟» أعماه الغضب فقال: «إني لست بمجنون»[٢]، ففي مثل هذه الحال من الغضب المستبد لا يفيد النصح المباشر.

وأحياناً كان ﷺ يوجه المخطئ ويصحح خطأه عن طريق الإشارة، أو بتوجيه النصيحة إلى غيره ليسمعها المخطئ، فيتنبهُ لخطئه، ومن أمثلته أن

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٦/٩).

(٢) أخرجه البخاري ح (٦١١٥) ومسلم (٢٦١٠).

النبي ﷺ رأى رجلاً جالساً وسط المسجد مشبكاً بين أصابعه ، فأومأ إليه النبي ﷺ ، فلم يفطن [الرجل ولم ينتبه لإشارة النبي ﷺ].

فالتفت عليه الصلاة والسلام إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «إذا صلى أحدكم فلا يشبكن بين أصابعه، فإن التشبيك من الشيطان، فإن أحدكم لا يزال في صلاةٍ ما دام في المسجد حتى يخرج منه»(١)، فالحديث في ظاهره موجه إلى أبي سعيد، لكنه على الحقيقة يقصد به الرجل المشبك أصابعه.

فالنبي ﷺ يعلمنا طريقين من طرائق تنبيه المخطئ من غير أن نسيء إليه أو نحرجه أمام الآخرين، أولهما: تنبيهه بالإشارة. والثاني: توجيه الكلامِ والنصحِ إلى غير المخطئ، وفي كل ذلك ما يحفظ للمخطئ منزلته، ويراعي حاله، ويؤدي في الوقت نفسه إلى نصحه وتقويمه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ح (١١٥١٢) وحسن الهيثمي في المجمع إسناده (٢/٢٥)، بينما ضعفه الأرناؤوط في تخريجه للمسند (١٨/٧٨).

الداعية المخلص

يكدُّ الداعية بلا ملل في إرشاد مدعويه إلى الخير ما أمكنه، لا يدخر جهداً ولا وقتاً إلا وبذله في هداية مدعويه .. يستفرغ وسعه في ذلك، لكنه على كل حال لا يملك مفاتيح قلوب المدعوين ولا أزِمَّة هدايتها، فقد يستجيب الناس لدعوته، وقد لا يستجيبون، ولربما كان صدودهم بسبب تقصيره، أو سوء تصرفه، أو قلة علمه، أو فساد طريقته، فيلام على ذلك بقدره، لأنه مقصر في تحصيل الأسباب الموصلة إلى المقصود الشرعي من الدعوة.

لكن أيضاً لربما بذل الداعية كل مقدوره، ولم يفرط في أسباب النجاح والفلاح، ومع ذلك لم يستجب له المدعوون .. دعاهم للإسلام طويلاً فما أسلموا .. أو حثهم على الخير فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ، فصدودهم سببُه ما درجت عليه تلك النفوس من محبة الإثم وإلفه والرضا به ، وهو ما حرمها نعمة الهداية الإلهية وأنوارها ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴾ (النحل: ٣٧).

وهنا يتساءل المرء: هل ينقص قدر الداعية عند الله إذا لم يستجب الناس لدعوته رغم تحقيقه للأسباب الموجبة لذلك؟ وهل استجابة المدعوين دليل رضا الله عليه؟ وهل هي أمارة لصحة المنهج ونجاعة الأسلوب؟

وفي الإجابة نقول بأن مهمة الأنبياء والدعاة من بعدهم هي البلاغ والتبيين وإرشاد الناس إلى ما يحملونه من خير للعباد في دنياهم وأخراهم ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ (الشورى: ٤٨) ، ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم

بمسيطر﴾ (الفجر: ٢١-٢٢)، وأما الهداية أو الاستجابة؛ فالله تعالى فقط هو من يَملِكها ويُملّكها ﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ (النمل: ٨١)، فالدعاة «أجراء عند الله ، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا.. عملوا وقبضوا الأجر المعلوم، وليس عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شان صاحب الأمر ؛ لا شأن الأجير»(١).

وهكذا فالبلاغ هو مهمة الدعاة، وأما الهداية فهي منحة الله لمن يستحقها، وكم من نبي يأتي يوم القيامة، وليس معه من الأتباع إلا النذر القليل ، فما ينقص عند الله أجره، ولا يذم بذله وسعيه، قال ﷺ: «عُرضت عليَّ الأمم [أي في المنام] ، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل، والرجلان، والنبي وليس معه أحد»(٢) أفيضيع أجر هذا النبي أنْ لم يستجب لدعوته أحد؟!!

وفي حديث آخر يحكي النبي ﷺ عن أحداث يوم القيامة، وفيه أنه «يقال: ادعوا الأنبياء، قال: فيجيء النبي ومعه العصابة، والنبي ومعه الخمسة والستة، والنبي وليس معه أحد»(٣)، فهل تراه طاشت أعمال نبي لم يستجب له من قومه إلا العدد اليسير؟ أفيضيره صدودهم؟ أم يزيد في أجره ما بذله من جهد حثيث وبالغ في استمالتهم إلى الحق وتعريفهم به؟

---

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص (١٨١).
(٢) أخرجه البخاري ح (٥٧٠٥)، ومسلم ح (٢٢٠)، واللفظ له.
(٣) أخرجه أحمد ح (١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (٣٦٤١).

هذا نوح عليه السلام أول المرسلين؛ دعا قومه زهاء ألف عام، في الليل والنهار، بالسر والإعلان ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً (٥) فلم يزدهم دعائي إلا فراراً (٦) وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً (٧) ثم إني دعوتهم جهاراً (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ (نوح: ٥-٩)، ورغم هذا الجهد الكبير الذي لا نظير له في مسيرة الدعاة على مرِّ العصور؛ فإن النتيجة لم تجاوز إيمان حفنة من الرجال الذين حملهم معه في الفلك ﴿ وما آمن معه إلا قليلٌ ﴾ (هود: ٤٠)، ولم يقدر حتى على هداية زوجه وابنه!!.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قال ابن عباس رضي الله عنهما : آمن مِن قومه ثمانون إنساناً ، منهم ثلاثة من بنيه ؛ سام وحام ويافث ، وثلاث كنائن له» ... ثم نقل عن قتادة وغيره من التابعين «أنه كان في السفينة ثمانية أنفس [فقط]»[١]، ثمانية أم ثمانون!! أي الرقمين كان؛ فإنه يعني أن المؤمنين بنوح كانوا قلة زهيدة لا ترقى لجهد ألف عام من الدعوة والنصح، وقد عزَّاه الله تعالى على قلة عددهم بقوله: ﴿وأوحي إلى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ (هود : ٣٦).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البؤس: الحزن، أي: فلا تحزن، والبائس: المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين، لأن الابتئاس حزن في استكانة»[٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٥/٩).
(٢) فتح القدير (٤٩٧/٢).

ما يقسمِ اللهُ فاقبلْ غير مبتئسٍ

منه واقعد كريماً ناعمِ البال[١]

إيمان هذا العدد القليل بعد الجهد الكبير أحزن نوحاً عليه السلام وآلمه، فهذه طبيعة البشر ، يفرحون حين يستجاب لهم، ويحزنون حين يُكذَّبون ، لكن ذلك لا يعني نقص أقدارهم عند الله، ولا بوار أفعالهم عند عبيده، فالله اصطفى نوحاً على سائر الناس رغم قلة أتباعه مقارنة بغيره من الأنبياء والمرسلين ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ (آل عمران: ٣٣)، وامتدحه الله فقال: ﴿ إنه كان عبداً شكوراً﴾ (الإسراء: ٣)، ﴿سلامٌ على نوحٍ في العالمين (٧٩) إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين﴾ (الصافات: ٧٩-٨١).

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالاقتداء بنوح في الصبر، فقال بعد أن عرَّفه بقصته عليه السلام: ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (هود: ٤٩)، وطلب منه ﷺ ومن الدعاة بعده أن يقتدوا بنوح أول المرسلين وأحد الخمسة أولي العزم منهم: ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

ولأن النتائج أمرها إلى الله، فقد علَّم النبي ﷺ أمته مبدأ العمل بغير انتظار النتيجة حين قال: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيل ، فإن

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص (١٧٢).

استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليفعل»[1]، فالمسلم مأمور باستفراغ الجهد في العمل؛ ولو لم يكن له ثمرة عاجلة أو فائدة ونتيجة ظاهرة، ففسيلة يغرسها غارس قبيل قيام الساعة لن يتاح لأحد أن يفيد من ظلها أو يطعم من ثمرها؛ فضلاً عن تمكنه من رعايتها وسقايتها، فالأرض حينذاك تتبدل، والناس عن الدنيا كلها في شغل؛ وهذه الفسيلة لا تثمر، ولا تُظِلُّ إلا بعد سنين طويلة .. ورغم ذلك فإن رسول الله ﷺ يأمر بغرسها، لتكتب عملاً صالحاً في ميزان غارسها، فالأجور يعطيها الله للعامل؛ أثمر عمله أم أخفق، والمسلم مثاب لامتثاله أمر الله بدوام العمل الصالح ما دام في الأجل فسحة، وفي العمر مدة ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (الحجر: ٩٩).

ولأن العبد غير مسؤول عن فوات نتيجة عمله إذا أحسنه وأخلصه؛ فإن الله عز وجل قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة: ١٠٥)، فضلال الضالين يعود عليهم وحدهم بالبوار والخسران، والمرء لا يُسأل إلا عن هداية نفسه، ولا يحاسب إلا على ضلالها.

لا أسألكم عليه أجراً

ومن أهم علامات الإخلاص، انفصاله عن الأجر الدنيوي والمطمع الأرضي، فالدعوة إلى الله بذل وعطاء، وجهد يتواصل في الليل والنهار؛ ومقصوده وغايته الأخذ بنواصي العباد إلى رضا رب العباد، والمضي بهم إلى ساحات الجنان.

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٢٩٨١)، والبزار ح (٧٤٠٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والطيالسي ح (٢١٨١)، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (١٤٢٤).

والداعية في سعيه المبارك إنما يرقب الأجر على دعوته من الله فحسب، رائده فيها قول الله تعالى: ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ (الإنسان: ٩) ، فهو يدعو لله، وإلى الله بما يرضي الله، ولا يرقب من مدعويه جزاءً ولا شكوراً، لا مدحاً ولا ثناءً، وهو لا يتطلع منهم إلى مال أو جاه أو شيء من دنياهم، فالبذل عنده بلا مقابل، إلا ما تعلق به قلبه من موعود الله في الجنة، ولذا فهو لا يربط عطاءه للدين بشيء من متاع الدنيا وأجورها، فدينه ودعوته أكرم في نفسه من أن يتعلق عمله بقليلها أو كثيرها ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيرٌ وأبقى ﴾ (طه: ١٣١).

وأنبياء الله تعالى هم طليعة الدعاة ودليلهم .. طمعوا بما عند الله، ورغبوا بأجره عن دنيا الناس، فكانوا نبياً تلو نبي يجأرون بالقول: ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾، قالها نوح عليه السلام: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ (هود: ٢٩)، وهود ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾ (هود: ٥١)، وكذلك قال صالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

ثم لخص صاحب القرية رَحِمَهُ اللهُ نصحه لقومه بتذكيرهم بصفة رئيسة من صفات الدعاة المرسلين: ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ (يس: ٢٠-٢١)، فهذا حالهم دوماً عليهم الصلاة والسلام.

﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ هذا القول الجميل غدا علامة فارقة في دعوات الأنبياء السابقين، وشعاراً واقعاً لمن تبع منهجهم من الدعاة، وفي مقدمتهم محمد ﷺ ، فقد أمره الله بالسير على غرزهم، والاقتداءِ بحسن صنيعهم، وجميلِ بذلهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ (٩٠)، فامتثل ﷺ أمر ربه، وقال : ﴿ ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين (٨٦) إن هو إلا ذكرٌ للعالمين (٨٧) ولتعلمن نبأه بعد حينٍ ﴾ (ص: ٨٨).

والداعية حين يتعفف عن دنيا الناس ويتسامى عليها؛ فإنما يعيش حالاً شعورية فريدة ، لا غَناء لداعية عنها، وهي العزة بالله، والخُلوص من ذل الرجاء في الدنيا والحاجة إلى الناس فيها، فالمرء دائماً أسير عند من احتاج إليه، وقد قال ﷺ : «شرفُ المؤمن قيامه بالليل، وعزةُ استغناؤه عن الناس»[1].

وفي هذا الصدد يكشف لنا النبي ﷺ جانباً من أسرار النفس البشرية، وهي أن الناس تحب من يبذل لها بالمجان، فتكبر في عيونهم دعوتُه، وتنفتح الآذان ومن قبلها القلوب لمقاله، قال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[2]، فالناس مجبولون على حب المال والدنيا، فمن نازعهم فيما يحبونه أو شاركهم كرهوه وأبغضوه، ومن زهد في

(١) أخرجه البيهقي في الشعب ح (١٠٠٥٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٨٣١).
(٢) أخرجه ابن ماجه ح (٤١٠٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٩٤٤).

محبوبهم أحبوه.

وكذلك اعتاد الناس المكافأة والأجر في كل شاردة وواردة؛ فإذا ما وجدوا بذلاً لا عوض له؛ طاطأت هاماتهم لما جمعه صاحبه من عز العفاف والاستغناء وعلو البذل والعطاء، لذا لما سأل أعرابيٌ أهلَ البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: « لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه»[1].

وصدق أيوب السَّختياني رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «لا يُقبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم»[2]، فالناس إذا علموا أن الداعية يرمق بعين الطمع أموالهم أو يتطلع إلى شفاعتهم وجاههم، وأنه يرجو من وراء دعوته المنافع والمقاصد الشخصية؛ فإنهم في الغالب الأعم لا يقبلون منه، ولا يتأثرون بخطابه.

وهكذا فالدعوة - أيها الداعية المبارك - رسالة نبيلة ذات مقصد كبير، وهي مشروع للأجر الرباني؛ لا الرزق والاكتساب الدنيوي، وأصحابه حملة رسالة، ووراث منصب النبوة؛ قبل أن يكونوا موظفين ومستخدمين.

وصدق أبو الحسن الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ لما قال:

---

(١) فيض القدير بشرح الجامع الصغير ، المناوي (١/٤٨١).

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص (٣٠٠).

أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزةُ النفس أُكرما
ولم أقض حق العلم إن كان
كلما بدا طمعٌ صيرتَه لي سُلَّما
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت: قد أرى
ولكنَّ نفسَ الحر تحتمل الظما
أُنهنها عن بعض ما لا يشينها
مخافةَ أقوالِ العدا فيم أو لِم؟(١)

لذا حرص العلماء والدعاة على الترفع على أموال مدعويهم والزهد في عطاءاتهم، ليبقى لكلمتهم أثرها ووقعها، ومن ذلك أن واعظاً قال لهارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هب أن قد ملكت الأرض طُرا
ودان لك العباد فكان ماذا
أليس غدا مصيرُك جوفُ قبر
ويحثو عليك الترابَ هذا ثم هذا

(١) انظر: التذكرة السعدية، العبيدي، كتاب إلكتروني.

يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالاً وجَمالاً فعفَّ في جَماله، وواسى في ماله، كُتب في ديوان الله من الأبرار.

فظن هارون أن الواعظ يريد بقوله شيئاً من المال، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك.. وأن يجري عليك رزق تقتات به.

فقال الداعية العفيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجر عليَّ رزقاً، فلا حاجة لي في جرايتك. قال: فانصرف عنه الرشيد، وقد تصاغرت عنده الدنيا[١].

وها هنا سؤال يطرح نفسه: هل يجوز للداعية الارتزاق من عمله الدعوي، كمن يعمل خطيب جمعة أو واعظاً في مؤسسة ما، أو معلماً للقرآن، أو مفتياً، أو ينال أجراً على عمل دعوي يقدمه في قناة تلفزيونية؟

والجواب على التحقيق: جواز ذلك، بدليل قوله ﷺ: «إنّ أحقّ ما أخذْتُم عليه أجراً : كتاب الله»[٢]، وبخاصة إذا كان منقطعاً لعمله الدعوي ؛ منشغلاً به عن الاكتساب والاسترزاق، ومنعُهُ من تلك الأجرة أو الراتب مؤد إلى فساد هذه الوظائف الدعوية لكثرة أشغال الناس وتضايق أوقاتهم.

وينبغي ملاحظة أن الداعية هنا يأخذ الأجر من جهة عمله؛ لا من المدعوين.. وعلى كل حال فالإخلاص في عمله وإتقانه مظنة الصدق؛ والواجب أن لا يقتصر في عمله على ما يتحقق فيه الأجر الدنيوي.

(١) الحجة في بيان المحجة، أبو القاسم الأصفهاني (١/١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (٥٧٣٧).

الداعية الممتثل لما يدعو إليه

الدعاة إلى الله هم مشاعل المجتمع وأنوار الدنيا، يحملون الهداية إلى الناس؛ بما يبذلونه من نصح وتبيان ودلالة على الخير، والمتوقع منهم أن يكونوا أسبق الناس إلى التزام ما يدعون الآخرين إليه؛ وأحرصَهم عليه، فليس مقبولاً في الشرع ولا المنطق أن يدعو الداعية إلى فاضل الأخلاق، وهو من أفقر الناس إليها، أو أن يزهِّد الناس في دنيا تملأ قلبه، وتشغل باله، وتعشعش في آماله وتراوده حتى في أحلامه.

وحين لا يلتزم الداعية فيما يدعو الناس إليه تعطب كلماته ويذوي أثره، بل قد يكون صادّاً عن الدين في حين يظن نفسه داعية إليه، ولهذا يسمي الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ هذا الصنف بـ: «علماء السوء، جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا. قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقّاً كانوا أول المستجيبين له؛ فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قُطّاع الطريق»[١].

حين تخالف أقوالُنا أفعالَنا يكون حالنا كحال من قبلنا من الأمم الضالة التي شبهها الله بحمار يحمل أسفاراً على ظهره، من غير أن ينتفع به، وهو أحوج الناس إليه ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الجمعة: ٥).

---

(١) الفوائد، ص (٦١).

وقد نعى الله تعالى عليهم هذا الصنيع في غيرما آية من كتابه ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤)، أي: «كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير ؛ أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمرونَ بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتَعلمون ما فيه [من الوعيد] على من قصر في أوامر الله، أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتتنبهوا من رقدتِكم، وتتبصروا من عمايتِكم»[(١)].

وقد حكى الله في قرآنه قصة عالِم بني إسرائيل بلعام بن باعور، فقد حاز علماً غزيراً، إلا أنه علم فاسق لا ينتفع بالخير الذي يتلجلج بين جنبيه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥- ١٧٦) .. آتاه الله من العلم ما حُرم منه كثيرون ، لكنه «ترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله تعالى على رضاه، ودنياهُ على آخرته، والمخلوقَ على الخالق، فشبهه بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعِها قدراً، وأخسّها نفساً، وهمتُّه لا تتعدى بطنه .. قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به»[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢٤٦/١).

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم (١٦٥/١).

ولئن ذم الله تعالى هذا الصنيع في أهل الكتاب؛ فإنه كذلك مذموم في هذه الأمة سواء بسواء، فسنن الله لا تحابي أحداً من خلقه، «فهذا المثل [الحمار أو الكلب]، وإنْ كان قد ضُرب لليهود، فهو متناوِل من حيث المعنى لمن حُمِّل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حقه رعايته»(١).

وقد أنكر الله علينا نحن معاشر المسلمين بسؤال تقريعي توبيخي أن نحذو حذو السابقين، وأن نتوانى عن فعل الخير الذي ندعو الناس إليه، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣)، فما يستجلبه من غضب الله الشديد، ومقته الكبير، سببه أن الله بثَّ العلم بين الناس ليعملوا به، لا ليتشدقوا به في المجالس، أو يُسوِّدوا به الصحف، ليلفتوا الأنظار إلى شخوصهم؛ من غير أن تنقاد إلى هديه قلوبُهم، أو تستنيرَ بمشعله أفعالُهم، قال ﷺ: «لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فَعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(٢)، فتأمل - يا رعاك الله - قوله: «وعن علمه فيما فعل فيه»، فالعلم ثمرته العمل والفعل.

وهذا ما أدركه سلفنا الصالح، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إني لخائف يوم ينادي مناد فيقول : يا عويمر .. كيف عملت فيما علمت؟ فتأتي كل آية في

---

(١) المصدر السابق (١/١٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٢٤١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٩٤٦).

كتاب الله زاجرة وآمرة تسألني فريضتها ، فتشهد علي الآمرة بأني لم أفعل ، وتشهد علي الزاجرة بأني لم أنته أو أترك، فأعوذ بالله من قلب لا يخشع ، ومن عمل لا ينفع ، ومن صوت لا يسمع ، وأعوذ بالله من دعاء لا يجاب»(١).

لما جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنه يستفتيه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى دينه قال له: «إن لم تخش أن تُفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل، قال: وما هي؟ قال: قولُه تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤)، وقولُه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٣)، وقولُه تعالى عن العبد الصالح شعيبٍ عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ (هود: ٨٨)»(٢).

ويحكي النبي ﷺ خبراً من الغيب تطيش لهوله الأحلام، إذ يحدِّث عن المصير الذي ينتظر الدعاة الآمرين بالخير؛ المعرضين عن فعله، فيقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه (أي أمعاؤه) في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان، ما شأنُك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتابه الزهد ح (٢١٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ح (٧١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣٢٦٧).

وفي رحلة المعراج رأى النبي ﷺ قوماً «تُقرَض شفاهُهم بمقاريضَ من نار، كلما قرِضت وَفَت (أي طالت من جديد)، فقلت : يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: خطباء من أمتك ، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»[(١)]، رحماك ربي، إنه العلم الذي لا ينفع صاحبه، وهو بعض ما كان ﷺ يستعيذ منه في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[(٢)].

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «مثلُ العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه؛ كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[(٣)].

وقال الإمام الحسن البصري رحمه الله: «إذا كنتَ آمراً بالمعروف، فكن من آخَذ الناس به، وإلا هلكت، وإذا كنتَ ممن ينهى عن المنكر، فكن من أنكر الناس له، وإلا هلكتَ»[(٤)].

إنا - معاشر الدعاة - إذا سَبقْنا الناسَ إلى الخير الذي ندعوهم إليه، كان فعلُنا تصديقاً لقولنا، بل كان دعوة عملية تفتح مغاليق القلوب أمام أقوالنا، وتعطيها دفعاً من الحياة، وإلا ولدت تلك الكلمات ميتة، فالناس يؤثر فيها الحال أكثر من تأثير المقال.

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٣٥٤٩)، وحسنه البغوي في شرح السنة ح (٤١٥٩).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٧٢٢).

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (١٦٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (٥٨٣١).

(٤) البيان والتبيين، الجاحظ، ص (٥٩)، وزهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق الحصري القيرواني (١٩٦/١).

لذا لما سمع الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ متكلماً يعظ، ولا تقع موعظته بموضع من قلبه، قال له: «يا هذا، إن بقلبك لشرّاً أو بقلبي»(١)، فهذا فقط ما يفسر تبعثر الكلمات بعيداً عن قلب سامعها.

لكن ثمة مسألة مهمة تطرح ههنا، فإننا جميعاً؛ دعاة ومدعوين متلبسون بالمعاصي؛ نسأل الله أن يتجاوز عنا، فهل وقوع الداعية بمعصية ما يحرم عليه الوعظ فيها؟ كأن يكون الداعية قاطعاً لرحمه ، أو عاقاً لوالديه، أو سيء الخلق، أو مضيعاً لوقته فهل يجوز له أن يدعو الناس إلى ترك ما يفعله من السوء؟ أم يحرُم عليه ذلك حتى يتوب من هذه الآفات؟

وفي الجواب، نقول: إن فعل المعصية، لا يمنع العاصي من الإنكار على شركائه فيها، وإنكاره عليهم فيه دعوةٌ للنفس قبل الغير وتذكير لها، روى الإمام مالك عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء؛ ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر»، وعقَّب مالك بقوله : «وصدق، من ذا الذي ليس فيه شيء؟»(٢).

ودعوة العاصي الآخرين إلى فعل ما قصر فيه أو هجر ما يفعله قد يكفر سيئته، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)، ويقول رسوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»(٣).

(١) أخرجه عنه أحمد في الزهد ح (١٤٥٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١/٣٦٨).
(٣) أخرجه الترمذي ح (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي ح (١٩٨٧).

لكن بعض الناس تسبق إلى ذهنه المفاهيم السلبية ، فيرى الوعيد في مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ (الصف: ٢) مدعاة للتقاعس في الدعوة أو تركها بالكلية؛ بذريعة تقصيره في أداء بعض الواجبات الشرعية، وأنه يتحرج من أداء واجب الدعوة، وهو غير الملتزم بفعل ما يدعو إليه، ولربما ترك أحدهم تعلم العلم مخافة أن لا يقوم بحقه، أو خشية أن لا يعمل بموجبه ، كما قال رجل لأبي هريرة ﷺ يبرر عدم حفظه للقرآن: أخشى إن حفظتُه أن أنساه، فأجابه الصحابي الفقيه: «كفى بك نسياناً أنك ما حفظته».

ولمثل هذا الفهم القاصر قد يترك أب النصح لابنه الذي يقترف بعض المنكرات لأن الأب يفعلها، فهل تراه فعلاً صحيحاً أن يدع المرء تذكير أبنائه بالصلاة لأنه لا يصلي، أو أن يترك حاكم شعبه يشرب الخمر لأنه يعاقرها؟ هل فعل المحرمات يسقط واجب النصح فيها والدعوة إلى تركها؟ وهل هذا الفهم هو المعنى الصحيح لقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤)؟ وهل الآية الكريمة توبخ الدعاة على نصحهم الآخرين؟ أم على نسيانهم حظ أنفسهم من ذلك الوعظ؟

في جواب هذه المسألة يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر؛ لا بسبب الأمر بالبر»[1]، ويوافقه الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٦٦).

يفعلونه، وليس المراد ذمُهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له .. فَكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعلِه واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف.. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه»[(١)].

واستدل العلماء على لزوم الدعوة وإنكار المنكر على العاصي بوجوب نصرته للإسلام، ولو كان عاصياً، فالنبي ﷺ قال في غزوة خيبر تعليقاً على خبر قزمان الذي أبلى بلاء حسناً في المعركة ثم قتل نفسه: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[(٢)]، فلم يذم النبي ﷺ قتاله مع المسلمين ودفعه معهم، بل ذم انتحاره وضعف إيمانه وقلة صبره على الألم، وحاله كحال أبي طالب الذي ناصر النبي ﷺ مع شركه، فلا يُذم من جهة نصرته للنبي ﷺ ، وإنما يذم من جهة كفره؛ وإذا كان نصر الإسلام وتأييدُه من غير المسلم ممدوحاً فهو من باب أولى من أهل المعاصي من المسلمين، كما في قصة أبي محجن ﷺ يوم القادسية[(٣)]؛ إذ لم يمنعه معاقرته للخمر من البذل للدين ونصرتِه.

واستدل بعض الأصوليين على هذه المسألة بظاهر قول الله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (المائدة: ٧٩)، ففهم من قوله: ﴿منكرٍ فعلوه﴾، أنه يقتضي اشتراكهم في الفعل معهم، وأنهم استحقوا الذم بسبب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣٨٢).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٦٠٢).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/٥٤٨- ٥٥٠).

عدم التناهي عن المنكر، قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال حذاق أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً من المعصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً، وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس [أي كؤوس الخمر] أن ينهى بعضهم بعضاً»(١).

ونقل الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العلماء قولهم: «ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإنْ كان مخلاً بما يأمر به، والنهي وإنْ كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه؛ فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يُباح له الإخلال بالآخر»(٢).

ومثل هذا الفقه الدقيق لا يغيب عن صدر الأمة وأعلمها بدينها، فأبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لآمركم بالأمر وما أفعله، ولكني أرجو فيه الأجر»(٣).

وأما حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيقول: «إنا حملنا هذا العلم، وإنا نؤديه إليكم؛ وإن كنا لا نعمل به»(٤).

وقال الحسن لمطرف رحمهما الله تعالى: «عظ أصحابك، فقال: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال الحسن: يرحمك الله، وأينا يفعل ما يقول؟ ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف، ولم ينه عن

(١) البحر المحيط (٣/٥٤٩).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٣).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ح (٣٤٥١).
(٤) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ح (٦٩١).

منكر!»[١].

وأما إمام العدل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ فقد كتب لأحد عماله: «وإني لأعظك بهذا، وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكِم لكثير من أمري، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يُحكِم نفسه ويكمل في الذي خلق له لعبادة ربه؛ إذاً تواكل الناس بالخير، وإذاً رُفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستُحلت المحارم، وقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٦٧).

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب (١/١٧).

الداعية الصبور

لا يخلو طريق الدعاة إلى الله تعالى من المنغصات والمكدرات التي تتراءى للداعية في طريقه، وهي في حقيقتها ضريبة معهودة يعرفها ويألفها العاملون مع الله في نصرة دينه، فتستنبت الإخلاص في قلبه، وتصقل إيمانه، وتجدد عزيمته، إذ من عادة النفوس التراخي إذا ما لقيت طريقاً ممهداً وغاية ميسورة.

أما حين يلاقي الداعية العنت في دعوته، ويواجه البلاء في سبيل دينه فهو يعيش المنحة في طيات المحنة، فالبلاء يمحص الله به المؤمنين، ويعلي بحرارته درجاتِهم، ويرفع عنده مقاماتِهم، وهو برهانُ محبته تبارك وتعالى لهم، وعلامة على صحة منهجهم وأصالة طريقتهم، فقد «سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركَه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[1].

قال المناوي: «ومن ظن أن شدة البلاء هوان بالعبد فقد ذهب لُبُّه، وعمي قلبه ، فقد ابتلي من الأكابر ما لا يحصى، ألا ترى إلى ذبح نبي الله يحيى بن زكريا، وقتل الخلفاء الثلاثة ، والحسين وابن الزبير وابن جبير ، وقد ضُرب أبو حنيفة، وحُبس ومات بالسجن ، وجُرِّد مالك وضرب

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٣٩٨)، وابن ماجه ح (٤٠٢٣)، وأحمد ح (١٦٠٧)، وحسنه الالباني في صحيح ابن ماجه.

بالسياط، وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه، وضرب الإمام أحمد حتى أغمي عليه ، وقطع من لحمه وهو حي، وأُمر بصلب سفيان فاختفى، ومات البويطي مسجوناً في قيوده ، ونفي البخاري من بلده إلى غير ذلك مما يطول؟»[(١)].

لذا كان من قدر الله السائر في أوليائه أن يبتليهم بصنوف الأذى التي تمتحن محبتهم لدينهم وثباتهم على دعوتهم ﴿الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (العنكبوت: ١-٣)، فالدعوة إلى الله طريق محفوف بالشوك والصعاب؛ ولم يكن قط - لداعية ما - مفروشاً بالورود والرياحين.

وكيف للدعاة أن يتوقعوا سهولة طريقهم وهم ينهضون لمقاومة الشيطان وجنده، ويبذلون طاقتهم في رد ضلاله واستنقاذ الأنفس من إغوائه، وهو غاية عالية، فلن يكون مرتقاهم إليها ذلولاً ؛ وبخاصة أن الداعية يتصدى أيضاً لنوازع الشر التي لا ينفك عنها الناس، فيواجههم بما يكرهونه؛ مع أنه يحمل الخير إليهم.

وقد صدق ورقة بن نوفل رحمه الله حين قال للنبي ﷺ: «هذا الناموس الذي نزَّل اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك .. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»[(٢)]، وهذا العداء مكر كُبَّار قائم

---

(١) فيض القدير، المناوي (١/٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣)، ومسلم ح (١٦٠).

ما دام الليل والنهار، فأعداء الدعوة لا يقدرون على التعايش مع دعوة تكشف عوارهم، وتحول دونهم ودون شهواتهم ونزواتهم ومآربهم الشخصية.

ويقابل الداعية - العارف بسنن الله في الدعوات - هذا العداء بالاحتساب والصبر ﴿إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (العصر)، فالتواصي بالحق والدعوة إليه لا ينفك عن الأذى الذي يتعرض له الداعية ، ويستوجب منه التصبر وثبات القلب.

وهو يوقن - على كل حال - أن ما يتعرض له؛ إنما هو أذى عارض لا يمكنه أن يوقف مسيرة الدعوة، وإن أعثرها لبعض الوقت ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

لقد واجه النبي ﷺ صنوف الأذى من المشركين وغيرهم من المدعوين بالصبر والصفح، بل والإحسان إلى المسيء ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ (المزمل: ١٠)، ولم يقابل ﷺ إساءتهم بالمثل.

ولهذا الخلق الجليل شواهد كثيرة في سيرته ﷺ، منها أنه في يوم حنين قسم ﷺ الغنائم، فآثر بها قوماً تألَف بها قلوبهم، فقال الأقرع بن حابس: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فلما أُخبر النبي ﷺ بذلك غضب ، ثم قال مسكناً غضب نفسه، ومعزياً لها بما تعرض له الدعاة قبله: «يرحم الله موسى،

قد أوذي بأكثر من هذا، فصبر»[١].

قال ابن بطال: «وفي تمعر وجه النبي عليه السلام حين أُخبر بقول الرجل من الفقه؛ أن أهل الفضل والخير قد يعز عليهم ما يقال فيهم من الباطل، ويكبُر عليهم، فإن ذلك جِبلَّةٌ في البشر، فطرهم الله عليها، إلا أن أهل الفضل يتلقون ذلك بالصبر الجميل اقتداء بمن تقدمهم من المؤمنين، ألا ترى أن الرسول قد اقتدى في ذلك بصبر موسى»[٢]، فقد كان ﷺ يمتثل أمر ربه الذي قال له: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ (الحجر: ٨٥).

وفي مرة أخرى دخل رسول الله ﷺ المسجد؛ فأدركه رجل، فجبذ بردائه من ورائه، وكان رداؤه ﷺ خشناً، فحمّر رقَبَته، فقال: يا محمد، احمل لي على بعيريَّ هذين، فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك.

فقال رسول الله: «لا، وأستغفر الله، لا أحملُ لك حتى تُقِيدني مما جبذتَ برقبتي»، فقال الأعرابي: لا والله لا أُقيدُك.

يقول أبو هريرة: فلما سمعنا قولَ الأعرابي أقبلنا إليه سراعاً، فالتفت إلينا رسول الله ﷺ وهو يقول: «عزمتُ على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامَه حتى آذن له»، ثم قال لرجل منهم: «يا فلان، احمل له على بعير شعيراً، وعلى بعير تمراً»، ثم لما انصرف الرجل قال ﷺ لأصحابه: «انصرفوا»[٣].

والمتأمل في هذين الشاهدين وأمثالهما يرى أن النبي ﷺ بشر يتأذى مما

---

(١) رواه البخاري ح (٣٤٠٥)، ومسلم ح (١٠٦٢).

(٢) شرح ابن بطال (٩/٢٥٣).

(٣) رواه النسائي ح (٤٧٧٦)، وأبو داود ح (٤٧٧٥).

يتأذى منه الكرام ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ (الحجر: ٩٧)، لكنه ﷺ يستعين على حظ نفسه بخلق عظيم قرأه في تاريخ الدعاة من قبله، وهم يقولون: ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ (إبراهيم: ١٢) ، فكان على معرفة ودراية بما يتعرض له الدعاة في كل عصر وحين، فتشبث بالصبر واستمسك بالمحاسنة، ممتثلاً قول الله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ (آل عمران: ١٨٦).

وتتنوع أنواع العذابات التي يجتمع فيها للمؤمن العذوبة والعذاب ، إذ لن يعدم السفهاء طريقة لإيذاء الداعية في نفسه وماله وأهله ودعوته، فلا يرضي الباطل إلا زهوق الدعوة وتوقفها وانكسار أهلها ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (البقرة: ١٢٠)، فالشيطان وجنده ما زالوا يخترعون الأفانين في مواجهة الحق ومحاولة طمس نوره ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (التوبة: ٣٢)، ومن ذلك قتل الداعية أو سجنه أو تعذيبه أو محاربته في رزقه والتضييق عليه في عمله: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ (المنافقون: ٧)، وتتبع هذا وأمثاله مما يطول به المقام، ونكتفي بالتركيز على صورتين، وهما تشويه سمعة الداعية، والسخرية منه.

أولاً : تشويه السمعة

ولعل من أعظم أنواع البلاء ما يتعرض له الداعية من تشويه سمعته، واللمز في عرضه، أو القدح في أمانته، أو التشنيع على سلوكه وأهل بيته بما يغلب عليه الكذب والبهتان.

ومثل هذا التشويه لا يبالي به صاحب الحس البليد ، ولا يأبه له التافه من الناس، وأما الداعية وهو الرجل المهيب الذي لا يفتأ يدعو إلى الفضيلة ومعالي الأمور؛ فإنه يؤذيه ويدميه أن تلوكه الألسنة بباطلها، وأن تشوه ناصع صفحته بإفكها ونفثها.

والمبطلون حين يلصقون بالداعية التهم أو يتعرضون له بالسوء؛ فإنما يرومون الالتفاف حول دعوته، بإشغاله بالدفاع عن نفسه، والانتقالِ به من الانشغال بالدين وقضايا المسلمين العامة إلى التردي في متاهات المسائل الشخصية، التي لا تكاد تنتهي، فاليوم يتحدثون عن ملابسه وهندامه، وغداً يلمزون سيارته ومنزله، وبعدها يتشككون في مصادر دخله، قبل أن يصل التشويه إلى سيرة أهله ومسلك أولاده، والهدف من ذلك كله إفقاد عوامِ الناس الثقةَ بالداعية، والحيلولة دون وصول دعوته إليهم، فسمو غايات الدعاة لن يمنع أهل الجاهلية من الافتراء على الدعاة وتشويه سمعتهم، حتى يخيل لسامعهم أنهم يتحدثون عن رؤوس الانحراف والضلال، لما يسمعه من عظم الافتراء وشناعة المقال.

وقد نال أنبياء الله تعالى - وهم طلائع الدعاة - النصيب الأكبر من هذا النوع من الأذى والتشويه؛ رغم أنهم أكرم الناس خَلْقاً وخُلُقاً، وأطيبهم نسباً

وحسباً، وأحسنهم سجية، وأصدقهم طوية، لكن ذلك كله لم يمنع قصد الجاهلين لهم بالافتراء والتشويه بعد أن عجزوا عن مقارعة حججهم ومصاولة دامغ دليلهم ، فما وجدوا من سبيل للنيل منهم إلا الكذب عليهم والتشهير بهم باختراع القصص وافتراء الزور.

ولهم في أسلافهم مثل سوء ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ (٥٢) أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون﴾ (الذاريات: ٥٢-٥٣)، لقد أعيتِ الجاهلين الحيلُ، فما وجدوا على اختلاف العصور ما يرمون به الأنبياء إلا تلك المعزوفة النشاز التي جمعت بين ضدين لا يجتمعان إلا في أذهان الأدعياء؛ السحر الذي يستلزم عادة الفهم والمكر والخداع، والجنون الذي هو خفة في العقل، وفساد في القول، وسفاهة في العمل، كيف يا هؤلاء يجتمعان؟

ولو عرضنا لمسيرة الافتراء على الأنبياء الهداة لوجدنا صفحات شوهاء قد اسودت من عظم التجني وسوء الاتهام الذي ينبو عن الدليل ويفتقر إلى البرهان .. وإلا فما جناية نوح عليه السلام حتى يقال له: ﴿إنا لنراك في ضلالٍ مبينٍ﴾ (الأعراف: ٦٠)؟ ولمَ قيل لأخيه هود عليه السلام ﴿ إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ (الأعراف: ٦٦)؟

أي عالَم هذا الذي يسمح لفرعون طاغية عصره أن يتهم موسى عليه السلام بتهمة الفساد .. اتهام أرعن لا يصدق على أحد قدر انطباقه عليه ﴿إنه كان من المفسدين﴾ (القصص: ٤)، لكن هذا المفسد المبير أظهر - كعادة المفسدين- دعوى حب الخير والخشية على مصالح قومه مما سماه إفسادَ

موسى ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ (غافر: ٢٦)، لقد قذف موسى بدائه وبليته، فصدق فيه قول المثل السائر: «رمتني بدائها وانسلت».

ثم لما بعث محمد ﷺ ناله حظه من هذه الدعاوى الممجوجة، فقال كفار قومه: ﴿ أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنونٍ ﴾ (الصافات: ٣٦)، وقالوا: ﴿هذا ساحر كذاب﴾ (ص: ٤)، فيا حيرة العقلاء من جمعهم بين الجنون والشعر والسحر في شخص واحد!

ولما اجتمعت قريش، لتصدر عن قول واحد تؤلِّب به الحجيج القادمين إلى مكة عن الإسلام؛ وتصطنع الجُدُر التي تصد بها عن سماع القرآن وعن الإيمان بصاحبه، قال لهم النضر بن الحارث: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به؛ قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة؛ نفثهم وعقدهم.

وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة ؛ تخالجهم، وسمعنا سجعهم.

وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورَجزه.

وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، انظروا في شأنكم، فإنه والله لقد

نزل بكم أمر عظيم»[1]، وقد أكذب الله قيلهم بقوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسولٍ كريمٍ (٤٠) وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكرون (٤٢) تنزيلٌ من رب العالمين﴾ (الحاقة:٣٨- ٤٣).

وأما قصة أصحاب الإفك التي طعن فيها المنافقون في عرض النبي ﷺ فتلك باقعة ما لها من راقعة .. ما أصعبها من أيام أربعين تمر على الحبيب ﷺ، وهو يسمع همهمة المنافقين وأذاهم له، حتى وقف يخطب فيهم: «مَن يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً»[2].

إنا لن نتوقع أبداً أن يوقف الباطل نصب سفاهته في وجه الدعاة، ولربما لم يجد فيهم مغمزاً، فطعنهم بما يفخر به العقلاء ، كما حكى الله عن قوم لوط لما قال لهم: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قومٌ مسرفون﴾، فبماذا أجاب المبطلون؟ ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ (الأعراف: ٨١-٨٢).

إذا محاسني التي أدلي بها
عُدت ذنوباً فقل لي كيف أعتذر

إنه العالم الجاهلي الذي انقلبت مفاهيمه، وانتكست موازينه .. عالم

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١٣٨/٢).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤١٤١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

يتكرر في دورات التاريخ، مرة بعد مرة، فلا ينقضي الزمان إلا وقد تقلبت الأمور، فطعن التحوت بالوعول، وتحدث الأصاغر عن الأكابر مؤذنين بقرب الساعة: «إن بين يدي الساعة سنينَ خداعة، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، ويَنطق فيها الرويبِضة»(١)، وهم التافهون الذين نراهم أحياناً يتصدرون المجالس أو الشاشات .. يتحدثون في أمور الأمة والمسائل المدلهمة «إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر بن الخطاب ﵁ لجمع لها أهل بدر»(٢).

ولسنا هنا ندعي عصمة الدعاة، وأن كل نقد يوجه إليهم هو افتراء وكيد، إذ لا نزعم براءتهم من كل ذنب وخطيئة، فهم كغيرهم من البشر يخطئون ويذنبون، لكن زلتهم عند الناس أكبر، وخطأهم أعظم، لما أولاهم الله تعالى من شرف المهمة وعظيم المكانة وجليل القدر عند الناس، ولأنهم في موضع القدوة التي يستعظم الناس أن يروا فيها زلة أو عثرة.

والملاحقة المجهرية التي تلاحق الداعية تستعظم الخطأ دوماً، وتبرزه بين الناس، فلكأنما هو الوحيد الذي يخطئ ، فتُفتضح كبوتهم ، ويشيعها المضلون من أولياء الشيطان وزبانيته، فتتهادى ككرة الثلج في صحفهم وقنواتهم ومواقعهم الإلكترونية التي أشبهت الذباب الذي يترك الطيب ، ولا يقع إلا على القذر، فيقيمون الدنيا ولا يقعدونها لخطأ وقع فيه الداعية، أو تصريح جانَب فيه الحكمة والصواب، ليتحول هذا الخطأ إلى سلاح

(١) أخرجه البخاري ح (٢٦٦١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى، من كلام أبي حصين ح (٨٠٣).

يقاومون به الدعوة ، فيحذرون الناس من الداعية الذي فعل وقال، ويستحيل الخطأ الصغير في ألسنتهم إلى كبيرة تذوي لها الجبال، فالمتربصون للدعوة لا يعرفون العذر ولا الاعتذار.

وهكذا يجلس السُّمَّار يتحدثون في مجالسهم، وينجر الحديث إلى ما تذكره الجهات المغرضة الكارهة للدعاة من قصص وأحاديث لا تثبت ولم تقع.

ويطول المجلس فيتسع الخبر، وكلما مر على مجلس طالت ذيوله ، بما تولد عنه من تفاصيل السُّمار التي لا يصح شيء منها، ولا تنقضي الأيام المعدودات إلا وقد صار خبراً مهولاً يشيع بين الناس وعلى صفحات الإنترنت ومنتدياته على غير الوجه الذي حصل به.

وفي جسامة هذا الخطب وبالغ أثره ما يدعو المتصدرين للدعوة إلى الاحتراز عن كل ما يشين أو يهين، فزلتهم ليست كعثرة غيرهم، بل ينبغي عليهم التوقي حتى عن الأمر الحلال إذا كان يفتح باباً للشانئين عليه ، فسمعة الداعية ينبغي أن تكون فوق مواطن الشبهة، وسيرته بعيدة عن مسارب الاتهام.

الداعية الأول محمد ﷺ، وهو من هو، كان أسرع الناس إلى استبراء ساحته مع غنائه عنه بما آتاه الله من اصطفاء ورسالة، لم يكن يترك باباً لشاك أو مشكك أو مرتاب، فلم يدع ملمزاً أو مطعناً للمتربصين به السوء، فدفع ﷺ الرِّيَب عن نفسه، وما بقي للشيطان وجنوده ما يقولونه صدقاً من قالة السوء وظنه.

ومثال ذلك لما اعتكف عليه الصلاة والسلام في مسجده، فجاءت صفية أم المؤمنين تزوره في معتكفه، فلما أرادت أن ترجع إلى بيتها في وسط الليل قام النبي ﷺ يرافقها في مسيرها، فلما بلغا باب المسجد مر رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ، وأسرعا في المسير بعيداً عن النبي ﷺ وزوجته، فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي».

كبُر على الصحابيين الجليلين أن يعرِّفهما النبي ﷺ بالمرأة التي ترافقه، وأن يبين لهما أنها زوجته، فالسوء لا يخطر على بالهما، فهو رسول الله ونبيه المختار؛ اصطفاه الله برسالته من دون العالمين، فقالا: سبحان الله ، يا رسول الله!! فقال النبي القدوة ﷺ وهو يعلِّم الدعاة من بعده: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً»[1]، وهذا الخبر فيه دروس منها «التحرز من التعرض لسوء الظن ، والاحتفاظ من كيد الشيطان ، والاعتذار، قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومَن يُقتدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم؛ وإن كان لهم فيه مَخلص، لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم»[2].

وكذلك يندب له تعهد أهل بيته بمزيد من العناية والتربية والتعالي على موارد الزلل، ولسان حاله يستذكر قوله تعالى: ﴿ يا نساء النبي لستن كأحدٍ من النساء﴾ (الأحزاب: ٣٢)، فامرأة الداعية وأهل بيته دوماً تحت مجهر

(١) أخرجه البخاري ح (٢٠٣٥).
(٢) فتح الباري (٤/ ٢٨٠).

الناقدين والمقتدين على السواء، وأيضاً هم محل للحكم على مصداقية الداعية وكلماته ووعظه، فلا تعجبنْ حين يرى الناس الخطأ في أهل الداعية؛ أن يذوي تأثير كلماته، وتطيش خطبه ، وتبور مقالاته، فالأفعال أبلغ وأوقع وأدوم من الأقوال، وحال الناس يقول: لو كان ما يقول حقاً لكان أهله أولى الناس به.

وهكذا فالداعية يتتبع السفهاء عثراته، ويجعجعون بهفواته، فالواجب عليه أن يتحرز ويحرِّز أهله عن مواطن الريب والشبهة؛ قطعاً لطريق الشانئين والمرجفين أن يجدوا في سيرته مطعناً، أو في دعوته مغمزاً ، أو في مواقفه ملمزاً.

إن الداعية مطالب بسد الذرائع التي قد تمنع الناس من الإفادة من دعوته، وعليه التماس البراءة من العيب أو الشبهة، وقد يندب إلى ترك شيء من الحلال أو المأمور به صوناً لمصلحة الدعوة وحفاظاً على سمعتها من أن تخدش بسوء ظن أو شنيع تأويل.

وقد فعله النبي ﷺ كرَّة أخرى حين ترك إقامة الحد على المنافقين، وهم من أشد أنواع الكفار وأخبثهم ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ (النساء: ١٤٥)، ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يتعرض لهم بسوء، لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ولو أقام عليهم الحد، لشاع بين قبائل العرب أن محمداً يقتل أصحابه، فالعرب لن يدركوا الفارق بين الإيمان والنفاق ، فكلا الصنفين يدعي الإسلام ظاهراً، وإنما يختلفان في باطن لا يطلع عليه إلا الله، ففي قتل المنافقين تغرير بعوام الناس ، وفيه ما فيه من صدهم عن الإسلام وتخويفهم من القدوم إليه ﷺ ، لذا لما قال زعيم منافقي المدينة عبد الله بن أُبي بن سلول: والله لئن رجعنا إلى المدينة

ليُخرجن الأعز منها الأذل، يقصد النبي ﷺ ، قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فأجابه النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(١).

قال النووي: «فيه ما كان عليه ﷺ من الحِلم ، وفيه تركُ بعض الأمور المختارة ، والصبرُ على بعض المفاسد خوفاً من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم منه ، وكان ﷺ يتألف الناس ، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرِهم لتقوى شوكة المسلمين ، وتتمَ دعوة الإسلام ، ويتمكنَ الإيمان من قلوب المؤلفة ، ويرغبَ غيرُهم في الإسلام ، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك ، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى ، ولإظهارهم الإسلام ، وقد أُمِر بالحُكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر»(٢).

ومن أمثلة حرص النبي ﷺ على سمعة الدعوة ما صنعه يوم حنين، حين قسم غنائم هوازن، فأغدق الأموال على ضعاف الإيمان يتألف قلوبهم إلى الإسلام ، فقام رجل من بني تميم فقال: اعدل يا محمد، فقال ﷺ: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟

فقال ﷺ: «معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه .. إن هذا وأصحاباً له يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ؛ يمرقون من الدين كما يمرق

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٠٥)، ومسلم ح (٢٥٨٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣٩٢/٨).

المرماة من الرمية»[١].

ولما استأذنت أم كبشة القضاعية النبيَّ ﷺ أن تغزو معه، قال : لا . فقالت : يا رسول الله، إني أداوي الجريح، وأقوم على المريض. فقال لها ﷺ: «اجْلِسي، لا يتحدث الناسُ أن محمداً يغزو بامرأة»[٢].

وحين سحر اليهوديُ ابن الأعصم النبيَ ﷺ ؛ لم يقتله ﷺ خشية الفتنة، قال الشنقيطي: «وأما عدم قتله ﷺ لابن الأعصم فقد بينت الروايات الصحيحة أنه ترك قتله اتقاء إثارة فتنة، فدل على أنه لولا ذلك لقتله، وقد ترك المنافقين لئلا يقول الناس: محمد يقتل أصحابه؛ فيكون في ذلك تنفير عن دين الإسلام، مع اتفاق العلماء على قتل الزنديق»[٣].

فهل يعي الدعاة إلى الله أن أقوالهم وأفعالهم وفتاويهم ينبغي أن تكون بحساب، فالمطلوب من الداعية والعالِم أن يكون «ناظراً في المآلات قبل الجواب على السؤالات»[٤]، وأن يعلم بأن ثمة من يتربص به، ويلتمس له العثرات، ويحسب عليه السقطات، وأن الواجب الشرعي والمصلحة المأمور بتحصيلها تمليان عليهم سد ذرائع النفور عن دعوة الإسلام، والنأي بها عن المشكلات والمعوقات، تحصيلاً لمنافع الدعوة ومكتسباتها، وحماية لسمعتها.

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٤٨٢٠).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣٠٨/٨).

(٣) أضواء البيان (٦٢/٤).

(٤) الموافقات في أصول الشريعة (٤/ ٢٣٢).

ثانياً : السخرية

السخرية أسلوب سافل يبرع فيه – عادة – المفلسون في صناعة الدليل والبرهان، فلا يكادون يجيدون من الفنون إلا فن الاستهزاء الرديء، فترى الداعية – في صحفهم – مادة للكاريكاتير ، وفي قنواتهم قصة هزلية هابطة تعرض في مسرحية رخيصة أو فلم وقح، فيسخرون مرة من لحيته، وأخرى من حجاب زوجته، وثالثة من أحكام دينه .. يظنون أنهم بذلك يطفئون نور الله الذي يحمله ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ (الصف: ٨).

لقد كانت السخرية من الأنبياء دأْباً لا يفتر عنه الجاهلون على مرِّ العصور ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦) وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾ (الزخرف: ٦-٧)، فالجاهلون حين تعيهم الحيل في محاججة الدعاة، لا يجدون سبيلاً لمقارعتهم إلا السخرية .. حجة السفهاء البليغة والبليدة، لذا قال قائلهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (فصلت: ٢٦)، أي اجعلوه لغواً وباطلاً، واتخذوه هزواً بالصفيق والصفير والتخليط على قارئه وسامعه لعلكم تغلبون بذلك التشويش، وإلا غلبكم القرآن وأبان طيش عقولكم وضعف حجتكم.

وحين يعلم الداعية عثرات طريقه؛ يكون أكثر استعداداً للصبر عليها؛ وهذا أدعى لثباته وتجلده، فالبلاء عنده غائب منتظر، وليس فيه فجأة أو غرابة، فلا يفت في عضده سخرية، ولا ينال من عزيمته أذى، ولأجل هذا قص الله على نبينا ﷺ ما قص من أخبار إخوانه من الأنبياء السابقين الذين تعرضوا لصنوف السخرية والاستهزاء ﴿ولقد استهزئ برسلٍ من قبلك فحاق

بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ (الأنعام: ١٠)، وفي الآية تسلية لقلب النبي ﷺ بذكر عاقبة هذا الاستهزاء، وأنه يحور على صاحبه، وسبب نزولها كما نقل ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ مرَّ بالمغيرة بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل بن هشام ، فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله تعالى عليه الآية(١).

وقصَّ الله في القرآن الكريم على نبيه ﷺ صوراً من سخرية الكافرين والمنافقين والبطالين بالأنبياء والمؤمنين .. صور يكررها التاريخ في دوراته المتعاقبة، مع إعادة التدوير وبعض التغيير، ومنه ما حكاه عن سخرية قوم نوح عليه الصلاة والسلام، فقد قابلوا دعوته ووعيده لهم بالضحك والتندر: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ (هود: ٣٨ – ٣٩)، فغارت ضحكاتهم بين أمواج الطوفان.

وأما قوم شعيب فقالوا له: ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ (هود: ٨٧)، أي تدعي أنك الحليم الرشيد.

وأما فرعون فقال - قبحه الله - ساخراً: ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا

(١) انظر سيرة ابن هشام (٣١/٢).

في تبابٍ ﴾ (غافر: ٢٧).

وكذا كانت سخرية كافري هذه الأمة بالنبي ﷺ أشبه بسخرية إخوانهم الكافرين في الأمم الماضية ﴿وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ (الأنبياء: ٣٦).

وضرب القرآن أمثلة لسخريتهم تنبئ عن سفالة هؤلاء الكافرين وسماكة عقولهم وسماجة تفكيرهم، منها أن أبا جهل لما سمع قول الله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ (المدثر: ٣٠)، قال: يا معشر قريش، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أعظم الناس عدداً وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟!

فردَّ عليه القرآن: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكةً وما جعلنا عدتهم إلا فتنةً للذين كفروا ﴾ (المدثر: ٣١)[١].

ولما خوَّف الله المشركين بشجرة الزقوم قال أبو جهل: «يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ .. عجوة يثرب بالزُبد، والله لئن استمكنا منها لنتزقمَنها تزقماً»، فأنزل الله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ (الجاثية: ٤٤ – ٤٦)[٢].

وكذلك أخبر القرآن عن سخرية صنف آخر بالمؤمنين، وهم المنافقون الذين يدعون الإسلام بألسنتهم، وتكذبهم أفعالهم وتغامزهم وسخريتهم بالدين وأهله ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٢٧٤).

(٢) انظر المصدر السابق (٢/١٠).

إنا معكم إنما نحن مستهزءون (١٥) الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ (البقرة: ١٥ – ١٦).

ولسخرية هؤلاء المنافقين صور ممقوتة في تاريخ المسلمين، منه سخريتهم بالصحابة الكرام لما دعاهم النبي ﷺ للإنفاق؛ فابتدروا رضوان الله عليهم ينفقون مما يملكون، فمنهم المنفق بالقليل، ومنهم المنفق بالكثير، فسخر المنافقون من إنفاق الجميع، فقال الله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ (التوبة: ٧٩) [١].

وفي مرة أخرى جلس المنافقون يتحدثون ويخوضون في أصحاب النبي ﷺ ويمزحون بالطعن عليهم والسخرية منهم، فقال قائلهم: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء»، فأنزل الله تعالى: ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرجٌ ما تحذرون (٦٤) ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفةٍ منكم نعذب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾ (التوبة: ٦٤-٦٦) [٢].

وفي رواية لسبب نزولها أن أناساً من المنافقين قالوا: «يرجو هذا الرجل [أي النبي ﷺ] أن تفتح له قصورُ الشام وحصونُها؟ هيهات هيهات»، فأنزل

(١) أخرجه البخاري ح (١٤١٥)، ومسلم ح (١٠١٨).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/٣٣٣).

الله الآيات، ثم صدق نبيه ، ففتح له الشام، وزاده فارس واليمن ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيءٍ قديراً ﴾ (الفتح: ٢١)[(١)].

إن الهزء والسخرية لن يؤثر في مسيرة الدعاة إذا ما تجلدوا بالصبر وتحلوا به، واستعلوا على جراحاتهم ، ومضوا في طريقهم معتمدين على ربهم الذي يدافع عن أوليائه، ويكشف باطل عدوهم، كما قال الله لنبينا : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ (الحجر: ٩٤-٩٦)، وقد أخبر الله ببوار فعل المستهزئين، وأن ما يمكرونه أذى عابر يوشك أن ينجلي ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ (آل عمران: ١٨٦)، هذا في الدنيا.

وأما الآخرة، وهي موضع نظر المؤمنين، وغاية مأمولهم، وفيها يجازي الله العباد بعدله، فينعدل الميزان المقلوب، وكما يقولون: «من يضحك أخيراً يضحك كثيراً»، قال الله تعالى: ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ (المطففين: ٢٩-٣٦)، إي

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/٣٣٤).

والله قد نالوا جزاءهم، وخسروا بفعلهم ، فكانوا محل سخرية العقلاء.

وفي آية أخرى يحكي الله ندم هؤلاء الساخرين في يوم لا ينفع فيه الندم ﴿ أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ (الزمر: ٥٦)، وفي ذلك اليوم يقال لهم: ﴿ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون (١٠٨) إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين (١٠٩) فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون (١١٠) إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ (المؤمنون: ١٠٨-١١١).

وهنا يبكي الساخرون ويندمون، ولات حين مندم، ويستحسرون فلا تغيثهم الحسرات ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾ (يس:٣٠)، فقد ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (البقرة: ٢١٢).

الفصل الثالث:

أساليب الدعوة الناجحة

الموعظة الحسنة

حين أمرنا الله بالدعوة إلى دينه، فإنه لم يترك طريقة ذلك ورسومه إلى أهوائنا وأمزجتنا، بل بيَّن لنا ربنا تبارك وتعالى جادة السبيل الذي ينبغي أن نسلكه في تبليغنا لدينه ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل : ١٢٥)، آية تختصر الكثير من المعاني، وتشرح أهم ما يحتاج إليه الداعية من وسائل تبلغه غاياته الدعوية.

وهي كما يظهر من منطوقها تأمر بثلاثة أمور: (الحكمة، الموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن)، والحكمة هي وضع الشيء في محله؛ أي: تلمس أسباب الهداية وطرقها وعلومها ومعرفة أدلتها وكلُ ما من شأنه نشر الدعوة والانتصار لها.

والموعظة الحسنة واحدة من مظاهر هذه الحكمة، فما هي الموعظة الحسنة؟ وكيف نترجمها إلى واقع في نشاطاتنا الدعوية؟

الموعظة الحسنة هي تذكير الناس وتعليمهم دينهم بالأسلوب الجيد الذي يفيد السامعين ويؤثر فيهم ويجتذبهم إلى ما يريد الداعية بلاغه وامتثاله .. وهي النصح بالكتاب والسنة والقول الحسن .. وهي مراعاة أحوال المستمعين وظروفهم، بل هي اسم جامع لكل ما يحسن بالداعية التحلي به وهو يعظ مدعويه، وهي «التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها»[١]، قال الله تعالى: ﴿وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ (النساء: ٦٣).

---

(١) فتح القدير، الشوكاني (٣/٢٠٣).

ومظاهر الحُسن في وعظ الداعية كثيرة، وكلها يُحتاج إليه في سبيل تحقيق أهدافه الدعويةَ السامية، فالهدف النبيل لا ينفك عن الوسيلة النبيلة (الموعظة الحسنة).

وأول صورها أن يرفق الداعية في موعظته بمدعويه، فلا يُطيلها بما يشق عليهم، أو يصيبهم بالسأم والملال، فهذا رسول الله ﷺ وهو الذي أوتي مفاتيح الحُسن وجوامعه ؛ لم يكن يطيل على الصحابة رضي الله عنهم – وهم الصفوة - في مواعظه مخافة السآمة عليهم، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ ليحدث الحديث لو شاء العاد أن يحصيَه؛ أحصاه»[(١)]، كلمات موجزة، جوامع من الكلم الطيب المبارك، تغني عن كثير مما يطنب فيه الوعاظ اليوم على المنابر أو في الدروس العامة ، يقول حكيم بن حزام رضي الله عنه: «شهدت مع رسول الله ﷺ الجمعة، فكان متوكئاً على عصا، فحمِد الله وأثنى عليه، فكانت كلماتٍ خفيفاتٍ، طيباتٍ مباركاتٍ، ثم قال: أيها الناس، إنكم لن تطيقوا، ولن تفعلوا كما أُمرتم به، ولكن سددوا وأبشروا»[(٢)].

وأما جابر بن سمُرة رضي الله عنه فيقول: «كنت أصلي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً»[(٣)]، كيف لا وهو ﷺ القائل: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ مِن فقهه، فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، فإن من البيان

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٦٥٦)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود ح (٣٦٥٤).
(٢) أخرجه أحمد ح (١٧٨٥٦)، وأبو داود ح (١٠٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود ح (١٠٩٦).
(٣) أخرجه مسلم ح (٨٦٦).

لسحراً»[١]، وفي هذا القصد في الكلام ما سهل حفظ الصحابة رضي الله عنهم لحديثه ﷺ، فتناقلت الأمة أقواله ﷺ التي ندر أن يتجاوز طول الواحد منها ثلاثة أسطر.

وقد فقه الصحابة رضوان الله عليهم هذا الأدب الدعوي، وتنبهوا إلى آثار تجاوزه، فاعتبروا قِصر الموعظة من علامات نجاحها، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لعبيد بن عمير : «إياك وإملال الناس وتقنيطهم .. إذا وعظتَ فأوجز»[٢].

ولما رأى عمرو بن العاص رضي الله عنه رجلاً يعظ فيكثر القول، قال : لو قصد هذا في قوله كان خيراً له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد رأيتُ أو أُمِرت أن أتجوز [أي اختصر] في القول، فإن الجواز هو خير»[٣].

ومن بعده قال الأديب الجاحظ رحمه الله: «أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة، على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف؛ صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها

(١) أخرجه مسلم ح (٨٦٩).
(٢) أخرجه البيهقي في الآداب ح (٢٠٢).
(٣) أخرجه أبو داود ح (٥٠٠٨) ، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود ح (٥٠٠٨).

على هذه الصفة؛ أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة»[١].

وقد حذر السلف من تطويل الوعظ والتذكير بالنظر إلى آثاره .. لما خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس قال: «أيها الناس، لا تبغضوا اللهَ إلى عباده .. يجلس أحدُكم قاصاً، فيطوِّل على الناس، حتى يبغِّض إليهم ما هم فيه، ويقوم أحدكم إماماً، فيطولُ على الناس حتى يبغِّض إليهم ما هم فيه»[٢].

وأما فقيه الصحابة ابن مسعود رضي الله عنه فيقف بالداعية على علامات، متى رآها في مدعويه فإنه ينبغي عليه أن يتوقف في وعظه وينصرف عنه، فيقول: «حدِّث القوم إذا أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفتْ عنك قلوبهم فلا تحدثهم، قيل: وما علامة ذلك؟ قال: إذا أحدقوا إليك أبصارهم فقد أقبلت عليك قلوبهم، فإذا اتكأ بعضهم على بعض، وتثاءبوا فلا تحدثهم»[٣].

وكان رضي الله عنه يقول: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدباراً، فاغتنموها عند شهواتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»[٤].

ويزيدنا الحسن البصري رحمه الله علامة أخرى لملال الناس، وهي التفات الناس ونظرهم إلى بعضهم أو إلى الباب ، ومثله نظرهم إلى الساعة أو كثرة تغييرهم لجلستهم، يقول الحسن رحمه الله: «حدثوا الناس ما أقبلوا عليكم

(١) البيان والتبيين، الجاحظ ، ص (٨٧).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ح (٧٧٨٨).
(٣) أخرجه البيهقي في الآداب ح (٣١٤)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ح (٧٤٠).
(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ح (٧٤١).

بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلموا أن لهم حاجات»[١].

ويحسُن بالداعية أن يدخل في وعظه من الكلام ما يطيب به المجلس ويستطرد ملاله، وذلك بطرفة عابرة، أو قصة مشوقة، أو مزحة لطيفة، فإن القلوب تحتاج إلى ترويح وفسحة، وكما يقول علي بن أبي طالب ﷺ: «روحوا القلوب، وابتغوا لها طرف الحِكمة، فإنها تمَلُّ كما تملُّ الأبدان»[٢]، وكذا قال أبو الدرداء ﷺ: «إني لأُجِم فؤادي ببعض الباطل – أي اللهو الجائز – لأنشط للحق»[٣]، وأما ابن عباس ﷺ فكان يقول لأصحابه في الدرس: «أحمضوا»[٤]، أي أسمعونا من أشعاركم وحكاياتكم ما يذهب ملل النفس وسأَمها.

والزهري رحمه الله عالم التابعين كان يقول لأصحابه: «هاتوا من أشعاركم، هاتوا من حديثكم، فإن الأذن مجاجة، والقلب حمِض»[٥].

وكذلك قال إمام الهدى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «تحدثوا بكتاب الله وتجالسوا عليه، وإذا مللتم فحديث من أحاديث الرجال»[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٢٧٠٤٥).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي والسامع ح (١٣٨٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ح (٦٥٩).

(٣) فيض القدير، الشوكاني (٤/٤٠).

(٤) انظر: شرح السنة للبغوي (١٣/١٨٣).

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ح (١٣٩٢)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ح (٦٥٥)، وفيه: «والنفس حمضة».

(٦) الآداب الشرعية، ابن مفلح (٢/١٨٠).

ومن الموعظة الحسنة أن يتحين الداعية الأوقات المناسبة للوعظ، وأن لا يجعله يومياً أو في أوقات متقاربة يملُّ فيها الناس عادة، فمراعاة أحوالهم من أدب النبوة وحسن الموعظة، قال ابن مسعود ﵁ لأصحابه لما سألوه الموعظة كل يوم: «إني لأُخبر بمجلسكم، فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أمِلَّكم، وإن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا»(١)، فكان ﵁ يعظهم في كل خميس مرة.

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُستفاد من الحديث استحبابُ ترك المداومة في الجِدِّ في العمل الصالح خشية المَلال، وإنْ كانت المواظبة مطلوبة، لكنها على قسميْن: إما كل يوم مع عدم التكلف، وإما يوماً بعد يوم؛ فيكون يومُ الترك لأجل الراحة؛ ليُقبل على الثاني بنشاط، وإما يوماً في الجمعة، وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط»(٢).

ولو شئنا أن نستفيد من تطبيقات سلفنا الكرام لأدبِ تخول الناس في الموعظة؛ فسنسمع إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: «حدث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيتَ فمرتين، فإن أكثرتَ فثلاثَ مرار، ولا تمِلَّ الناسَ هذا القرآن، ولا ألفَيَنك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقصُّ عليهم، فتقطعُ عليهم حديثهم، فتُمِلُّهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه»(٣)، فهذا كله داخل فيما أمرنا الله تعالى به من الموعظة الحسنة.

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٤١١)، ومسلم ح (٢٨٢١).

(٢) فتح الباري (١/١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري ح (٦٣٣٧).

وقولوا للناس حسناً

الحديث إلى الناس ومشاركتهم في منتدياتهم من أهم وسائل الدعوة وأنجعها، إذ ليس من سبيل لتغيير قناعات الناس وتهذيب سلوكهم إلا الإقناع والتعليم والنقاش الذي قد ينطوي على أخذ ورد وتبادل للقول؛ وصولاً إلى الإقناع العقلي وطمأنينة القلب.

والمتحاورون في الدين ومسائله يختلفون في أعمق المسائل تأثيراً في الشعور وأكثرها حساسية، إذ الدين أغلى ما يملكه المرء؛ إن كان مؤمناً حقاً، والاختلاف في مسائله قد يجر إلى غلظة القول أو نفور القلب، لذا وجب على الداعية حين يدعو أو يحاور في الدين ومسائله أن يتمثل جملة من الآداب الإسلامية التي نعرض هنا لواحدة منها، وهي التزام القول الحسن، واجتناب القول السيء والعبارة القبيحة ، فالدعوة إلى الإسلام سامية المقاصد، ووسائلها كذلك غايةٌ في السمو .

وكيف لا يكون الداعية عفيف اللسان مهذب الكلمات، والله تعالى يقول: ﴿ وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة: ٨٣)، وفي الآية كما يقول القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطاً طلِقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع من غير مداهنة ... لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ (طه: ٤٤)، فالقائل ليس بأفضلَ من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبثَ من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه»[١].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢).

وبينما الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يطوف يوماً بالبيت إذ عرض له رجل أراد نصيحته وتذكيره، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة. فقال: «لا، ولا نعمت عين، قد بعث الله من هو خير منك [أي موسى وهارون] إلى من هو شر مني [أي فرعون] ، فأمره أن يقول له قولاً ليناً»[(١)].

والغلظة في القول والفعل ليست من أدب الإسلام في شيء، فالله تعالى قال لسيد الدعاة وأشرفهم: ﴿ فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ (آل عمران: ١٥٩)؛ فإن كان هذا حال الناس مع رسول الله وسيد الخلق ؛ لو كان فظاً، وحاشاه؛ فكيف يكون حالهم مع غيره من أغمار الدعاة وصغارهم؟

وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿ قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ (الإسراء: ٥٣)، فالله لا يريد من عباده القول الحسن فحسب، بل يطالبهم بالتي هي أحسن، وهي مرتبة أعلى وأرقى من الحسنى.

وقد فسر الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿التي هي أحسن﴾ بقوله: «هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله، يرحمك الله .. وعلى هذا تكون الآية عامة في المؤمن والكافر، أي: قل للجميع»[(٢)] ، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «لين القول من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله، وأحبه ... قال عطاء بن أبي رباح: من لقيتَ من الناس فقل له حسناً من

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (١٤/٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٧٧).

القـول»[١]، فالحسـن مـن القـول يقلـب العـدو إلـى صـديق، يسـتل السـخيمة، ويستنبت الحب، وينزع النزغ والضغينة ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت: ٣٤).

ويجدر هنا أن نـذكر أن سبب نـزول قوله تعـالى: ﴿ قل لعبادي يقولـوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ (الإسراء: ٥٣) أن رجلاً من العرب شتم عمر بن الخطاب ﷺ وسبَّه، وهمّ بقتله، فكادت تثير فتنة، فأنزل الله الآية تربية وصوناً للمجتمع المسلم عن موارد الشقاق والفتن[٢].

ومن صور حسن القول وتواضع الجانب مع المدعوين مناداتهم بأحب الأسماء إليهم، وبما يستحقونه من ألقاب علمية أو كهنوتية أو وظيفية، ولا يليـق بالداعيـة أن يخاطـب مـدعوه الكـافر: «يا كـافر»، أو المسـلم العاصـي: «يا فاسق» أو صاحب البدعة: «يا مبتدع»، فإن الله تعالى وهو الذي يقول ما يريد، ولا معقب لقوله؛ لـم يناد المشركين في القرآن بـ ﴿يا أيها الكافرون﴾ إلا مرة واحدة، وفيما عدا ذلك كان يقول : ﴿يا أيها الناس﴾ ﴿يا أهل الكتاب﴾.

وقد امتثل هذا الهدي رسولُه ﷺ فقال في رسالته إلى هرقل: «إلى هرقل عظيم الروم»[٣] فناداه بلقبه الذي يحبه، وكذلك لما لقي ﷺ أبا جهل يوماً قال له: «يا أبا الحكم، هلم إلى الله وإلى رسوله وإلى كتابه، أدعوك إلى الله»[٤]،

(١) جامع البيان (٣٩٢/١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٧٦/١٠).
(٣) أخرجه البخاري ح (٧)، ومسلم ح (١٧٧٣).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٣٥٨٢٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦٧/٢)، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص (١٦٢).

فناداه ﷺ بأحب الأسماء إليه تألفاً لقلبه، وقال لابنه عكرمة لما جاءه بعد فتح مكة ، وهو على الكفر حينذاك: «مرحباً بالراكب المهاجر»(١).

ومن قبلُ، خاطب مؤمنُ آلِ فرعون رحمه الله قومَه متألفاً قلوبهم: ﴿يا قوم﴾ (غافر: ٣٠)، وهو نداء تكرر على لسانه مرة بعد مرة، وهو يتلطف به لقوم كفار، لكنه داعية يرجو إيمانهم، ويمتثل ما سينزله الله من قول: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة: ٨٣)، ويتأسى بنوح عليه السلام وهو ينادي ابنه الكافر: ﴿يا بني﴾ (هود: ٤٢)، وبأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وهو ينادي أباه الكافر مرة بعد مرة : ﴿يا أبت﴾ (مريم: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥).

وإذا قيل هذا في حوار الكفار والمشركين؛ فإن ما نرقبه من الدعاة من لطف في معاملة المسلمين أكبر وأعمق، فالداعية المسلم لا غناء له عن التأدب باللطف والمداراة والرفق، الذي ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه، والكلمة الطيبة كما أخبر ﷺ صدقة(٢)، وهي سبب في دخول العبد في مرضاة الله وجنته، فـ«إن في الجنة لغرفاً، تُرى ظهورُها من بطونها، وبطونُها من ظهورها»، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٧٣٥)، الحاكم في المستدرك ح (٥٠٥٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ح (٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري ح (٢٩٨٩)، ومسلم ح (١٠٠٩).

(٣) أخرجه الترمذي ح (٢٥٢٧)، وأحمد ح (١٣٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي ح (١٩٨٤).

وهكذا فإن الشرع يأمر بالرفق وحسن الكلام ، ليكون الداعية ممن قال الله فيهم : ﴿وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ (الحج: ٢٤).

الدعوة بالحوار وآدابه

الجدال والمحاورة أولى وسائل الداعية في تعريف مدعويه بما لديه من معتقدات أو أفكار أو سلوكيات ، فهو يدعو إليها متسلحاً بالحجة التي هي سلاح العقلاء في الإقناع، فالعقائد والأفكار لا يمكن لقوة تغييرُها أو انتزاعها من قلوب أصحابها غير قوة الفكر والحجة، أي بالحوار المقنع الذي يرفع الحجب، فيرى المحاور الحقيقة التي غشيت عليه، ويقنع بفساد العقائد الأرضية ، وأحقية دين الله الذي أنزله على عباده.

والحوار أو الجدال هو ثالث ما أُمرنا به في قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل : ١٢٥)، والدعوة إليه مقرونة بشرط مهم ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، ذلك أن الحوار في مسائل الدين، بل وغيرها يكتنفه عادة قول ورد، وسؤال وجواب، واستشكال وبيان، لذا أمر القرآن الداعيةَ المحاورَ أن يكون راقياً في حواره؛ مترفعاً عن مسارب الجدل المذموم ، فجاءت آيات القرآن تهذب هذه الوسيلة الدعوية، وتسيجها بما يحقق هدف الداعية بأرقى الوسائل وأنجعها.

وفي الآية دعوة إلى خصيصة عالية لفتت نظر الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فالله يأمر نبيه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل : ١٢٥)، ولم يقل : جادلهم بالحَسنة ، كما في أمره بـ (الموعظة الحسنة)، وذلك «لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن، حتى يُصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة»[(١)].

---

(١) الرد على المنطقيين، ابن تيمية ، ص (٤٦٨).

وقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل: ١٢٥)، نص قرآني يحلي الجدال بصفة جميلة بديعة لا غناء عنها، ترقى به، ليكون جدالاً بالتي هي أحسن؛ أي: «من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.. فأمر تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤) »[١].

وقد فسر الإمام مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: ﴿بالتي هي أحسن﴾ بقوله: «إن قالوا شراً، فقولوا خيراً»[٢]، أي عامل مجادلك بالصبر والعفو والصفح الجميل، وهي أخلاق كريمة دعت إلى العضِّ عليها النصوص القرآنية، وهي تحث الداعية على الصبر على أخطاء المخالف ، وتندبه إلى مقابلة إساءته بالحسنى، منها قول الله: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ (فصلت: ٣٤١)، وقولُه: ﴿ادفع بالتي هي أحسنُ السيئةَ نحن أعلم بما يصفون ﴾ (المؤمنون: ٩٦)، أي: «خاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها: أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك»[٣].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٥٩٢).
(٢) جامع البيان (١/ ٢١).
(٣) المصدر السابق (١٤/١٩٤).

وللحوار آداب ينبغي على الداعية أن يمتثلها ويتأدب بها حتى يصل الحوار إلى غايته، ومنها:

١. الحكمة في الطرح والأسلوب

وله صور عديدة، منها أن يتخلى الداعية عن زهوه واستعلائه، ولو كان مستحقاً له ؛ لما وهبه الله من الحق واليقين والهدى الذي ينبغي أن يحليه بالتواضع لمحاوره رغم اعتقاده زيغه وزهوق حجته أو بطلان دينه ونفوق بضاعته، فالتعالي على المدعو في الحوار مفسد لأجوائه ومعطل لثمراته.. يوصد القلوب أمام الدعوة، ويصد عنها، ويستجيش في نفس المقابل كل معاني التعصب المقيت والكبر الذي يؤدي إلى غلبة الهوى واستمراء الباطل ورفض الحق مهما نصعت حجته واستبانت حقائقه.

ولأجل ذلك، وحرصاً من الداعية على بلوغ دعوته غاياتها؛ فإنه يتحاشى في دعوته الكبر والترفع على مدعويه، بل وكل ما يؤدي إلى صدود الناس وإعراضهم عن الحق الذي يحمله.

وهذا الأدب من آداب الحوار والجدال، علمه الله نبيه ﷺ في محاورة الكافرين ، وهو درس لكل داعية محاور؛ سواء كان المدعو مسلماً أو غير مسلم، قال الله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ: ٢٤)؛ فتأمل - يا رعاك الله - قوله: ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ، فهذا نوع من الإنصاف في الحجة ، «وقد علم أنه على هدى، وأنهم على ضلال مبين،

ولكنه رفق بهم في الخطاب، فلم يقل: أنا على هدى، وأنتم على ضلال»[١]؛ إذ ليس من أدب الإسلام أن يواجه المرء مقابله بكل ما يحيك في صدره عنه، ولو كان حقاً، فلا يستقيم في حكمة الدعوة مواجهة صاحب البدعة بالقول: إنك مبتدع، فهذا لن يوازي حكمة القول: إن كان رأيك مستنداً إلى كتاب الله أو قول النبي ﷺ فأنا أول متبعيه، أو إن أقمتَ عليه حجة فأنا من أنصاره، وحين يعجز المدعو عن جوابه يستبين له ما أضمره الداعية في صدره من معانٍ أبى لسانه العفُّ عن البوح بها.

وهذا الأدب علمه الله لنبيه ﷺ ثانية حين قال له: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ (الزخرف: ٨١)، وهذا الفرض ولا ريب مستحيل شرعاً وعقلاً ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ (الزخرف: ٨٢)، تنزه الله تعالى وتقدس عن أن يكون له صاحبة أو ولد، ولكنه تلطف في الكلام لاستمالة المدعو وإقامة الحجة عليه، وبيان ما عليه المسلم من إذعان الحق وأوبة إليه متى استبانت براهينه، وأما معناه فهو كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قل يا محمد: إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد، وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلتَ بالدليل، فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، أي لا سبيل إلى اعتقاده، وهذا ترقيق في الكلام كقوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ: ٢٤)»[٢].

(١) جامع البيان (٣/١٦٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/١١٩).

وأما الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «لم يكن على وجه الشك، ولكن على وجه الإلطاف في الكلام وحسن الخطاب .. وقد علم أن الحق معه، وأن مخالفيه في الضلال المبين»(١).

ومثل هذا الأدب نقرأه في جدال إبراهيم عليه السلام لقومه ، فقد أراد عليه السلام الاستدلال على بطلان عبادة الشمس والقمر، فقال لهم ما حكاه الله تعالى: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريءٌ مما تشركون﴾ (الأنعام: ٧٦-٧٨)؛ فإبراهيم عليه السلام يعرف جزماً يقيناً أن ربه هو الله تعالى وحده، وأن القمر والشمس مخلوقان له، يغيبان عن الأنظار في كل يوم .. فهذا حالهما الذي لم يتبدل على مرِّ السنين والأيام، وأراد عليه السلام أن يظهر لقومه عوار معبوداتهم وضلال طريقتهم؛ فادعى على سبيل التنزل للخصم في المحاجة؛ أن القمر ربُه، ثم أخبرهم أول النهار بنكوله عن قوله لوجود صفة نقص في القمر تمنع العقلاء من عبادته، ألا وهي الأفول والغياب، ثم انتقل معهم إلى معبودهم الآخر الشمس، فأخبرهم تنزلاً أنه رضي بها رباً لولا أنها هي الأخرى تأفل وتغيب آخر النهار، وهي صفة لا تليق بالإله الرب المحيط بكل شيء من خلقه.

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أراد عليه السلام إبطال قولهم بربوبية

(١) جامع البيان (٢١/٦٥١).

الكواكب؛ إلا أنه كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبُعد طباعهم عن قبول الدلائل؛ أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة، وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب، مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئناً بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا قوله، وتمام التقرير أنه لما لم يجد إلى الدعوة طريقاً سوى هذا الطريق، وكان عليه السلام مأموراً بالدعوة إلى الله كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر»[١].

وحكى القرآن الكريم عن مؤمن آل فرعون مثلَ هذا التنزل في حواره مع قومه، وهو يروم إقناعهم باتباع موسى عليه السلام: ﴿وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذابٌ﴾ (غافر: ٢٨)، فقد افترض رحمه الله فرضين أحدهما باطل عنده ولا ريب ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾، لكنه يريد أن يبين لقومه عاقبتهم وخسارتهم وفق كلا الفرضين، فلئن كان موسى صادقاً - وهو كذلك - فسيحيق بهم العذاب الأبدي الذي يتوعدهم به عليه السلام في نار جهنم، وأما إن كان موسى كاذباً في دعواه النبوة - وحاشاه- فإنهم لن يخسروا شيئاً إن تبعوا قوله في عبادة الله، وكذبُه – وفق هذا الفرض- لن يضر إلا الكذاب نفسه، فالله يتولى حسابه وجزاءه،

(١) تفسير الرازي (١٣/٤١).

والخلاصة: لم تريدون قتله ، وأنتم لم تتأذوا منه ومن دعوته على كل الأحوال.

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ: «لما صرح بالإنكار عليهم، غالطهم بعدُ في أن قسَّم أمره إلى كذب وصدق، وأدّى ذلك في صورة احتمال ونصيحة ، وبدأ في التقسيم بقوله : ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾، مداراة منه وسالكاً طريق الإنصاف في القول ، وخوفاً إذا أنكر عليهم قتلَه أنه ممن يعاضده ويناصره ، فأوهمهم بهذا التقسيم وبالبداءةِ بحالة الكذب حتى يسلم من شرهم ، ويكون ذلك أدنى لتسليمهم . .. وهو يعتقد أنه [أي موسى] نبي صادق قطعاً»[1].

وهكذا؛ فإن الداعية ينشرح قلبه بالإيمان، وعقله بالحجة والبرهان، فيقدمه لمدعويه مشفوعاً بحلة التواضع والإنصاف؛ ليكون بذلك سالكاً مسلك الهداة الدعاة الذين كان ديدنهم قول الله تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (النحل: ١٢٥).

٢. الحوار بقصد البحث عن الحق

ويحسن بالمحاور ترك الجدل الذميم وصوره التي يجمعها عادة قصد المغالبة؛ لا طلب الحق، أو اشتماله على جفاء المعاملة أو قسوة العبارة الذي يستتبع عادة الخصومة واللدد والسفه، وهو ما يفضي إلى الصياح

(١) البحر المحيط (٩/٢٥٢).

والسباب والعناد ؛ وهو ما يبعده عن جدل العقلاء الذي هو مقارعة بالحجة والبرهان.

ومن الجدل المذموم ما يسمونه الجدل البيزنطي أو السفسطائي، وهو الجدل العقيم الذي لا ثمرة منه لما تلبسه من آفات العناد والتعصب للرأي، وهو الجدل لذات الجدل، وهو مذموم لما فيه من مجافاة للموضوعية وتنكر للحقيقة، ولو كانت بادية كالشمس: ﴿وقالوا ءآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قومٌ خصمون﴾ (الزخرف: ٥٨)، ومثله قول الله تعالى عن الكافرين: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ (غافر: ٥)، وفي الحديث: «ما ضَلَّ قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»[١]، والمراد بذلك كله ذم الجدل الذي يهدف للخصام والمغالبة فحسب.

ويشبه الجويني رَحِمَهُ اللهُ هذا النوع من الحوار بحال الكباش والديكة ، لـ«قصده الظفرَ بالخصم، والسرورَ بالغلبة والقهر»[٢]، وهذا اللون هو ما أسماه النبي ﷺ المراء، ووعد مجتنبيه بعظيم فضل الله في الآخرة: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة [أطرافها] لمن ترك المراء؛ وإن كان محقاً»[٣]، فالنتائج عند أهل المراء محسومة سلفاً، والحوار عنده باتجاه واحد، والمقصد فيه الغلبة لا الحق.

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٢٥٣)، وابن ماجه ح (٤٨)، وأحمد ح (٢٢١٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ح (٢٥٩٣).

(٢) الكافية في الجدل، ص (٥٢٩).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٨٠٢)، وأحمد ح (٨٦٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود ح (٤٨٠٠).

قال الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعليك أن لا تفاتح بالمناظرة من تعلمه متعنتاً، لأن كلام المتعنت ومن لا يقصد مرضاة الله .. يورث المباهاةَ والضجرَ وحزن القلب وتعديَ حدود الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(١).

وفي المقابل فإنا واجدون من الأئمة الأعلام كلاماً يوزن بالذهب، يكشف حرصهم على الحق في حوارهم مع مخالفيهم، وتشوفهم إلى ظهوره، ولو على لسان الخصم، لأن الحق رائدهم؛ لا ذواتهم، ورحم الله الإمام أبي حنيفة ، فهو القائل: «كنا نناظر، وكان على رؤوسنا الطير مخافة من أن يزلَّ صاحبنا ، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم»(٢).

ومن بعده قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ناظرت أحداً قط إلا أحببتُ أن يوفق ويسدد ويعان، ويكونَ عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرتُ أحداً إلا ولم أبال؛ بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه»(٣).

وأما حاتم الأصم رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي: أفرح إذا أصاب، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي حتى لا تتجاهل عليه»، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: سبحان الله مَا كَانَ أعقلَه من رجل(٤)، فهذه الصور النفيسة تكشف عن مفاتيح الحوار الناجع الهادي إلى الحق والخير.

---

(١) الكافية في الجدل، ص (٥٣٢).

(٢) انظر : مناقب أبي حنيفة، لابن البزازي (١/١٢١)، نقله عنه محمد أبو زهرة في كتابه: أبو حنيفة، حياته وعصره، آراؤه وفقهه، ص (٢٨).

(٣) نقله عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١١٨).

(٤) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي (١١/٢٥٤).

٣. اجتناب المخاصمة

ومن آداب الحوار حسن معاملة المحاور واجتناب المنازعة، ونبذُ أسبابها ما أمكن، ومنه الإعراض عن إجابة سؤال المحاور أو التنبير على خطئه تحاشياً لخروج الحوار عن موضوعه إلى مسائل جانبية أو شخصية تشغب عليه، أو تطوح به بعيداً عن أهدافه.

وقد سبق إلى ذلك النبي ﷺ حين حاور قريشاً بغرض هدايتهم إلى الله ودينه، فحادوا عن حوار الحجة إلى أن عرضوا عليه ﷺ التصالح مع آلهتهم في مقابل أن يعطوه مالاً، فيكونَ أغنى رجل فيهم، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويسودوه عليهم.

ورغم ما في هذه العروض من سخافة ومساومة رخيصة؛ فإن النبي ﷺ لم يُرد أن يقطع - بكلمة حاسمة - حبالَ الوصل والحوار معهم ، بل قال متلطفاً: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي»، فنزل قول الله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ (الكافرون: ١) إلى آخرها[(١)].

وقوله: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي» نوع من التلطف في الخروج من الموضوع، «يَقصد به دفعَ الظالمين بالتي هي أحسن، ليجعل حجته أن الذي عليه طاعتُه [أي الله] قد منع من ذلك، فيؤخرُ الجواب حتى يستأمِره، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه، [كما] وقد تُخطب إلى الرجل ابنتُه فيقول: حتى أشاور أمها، وهو يريد أن لا يزوجها بذلك، ويعلم أن أمها لا تشير به، وكذلك قد يقول النائب: حتى أشاور السلطان، فليس في

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الصغير ح (٧٥١).

مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك»[١]، بل هو إعراض عن الجواب، وهو نوع من اللطف والمداراة، يُعتاض به عن الصد الصراح، وهو أدب من آداب الدعوة والحوار.

٤. التوقف عن الحديث فيما يجهل

ولعل من أهم آداب الحوار، بل من الضروريات التي لا يحسن بأحد تجاوزها؛ عدم خوض المرء فيما لا يملك عليه بينة ولا برهاناً، فالرزية أن يهرف المحاور بما لا يعرف، وأن يقول ما لا يعلم في حضرة من لربما تلمسوا سقطاتِه، وفرحوا بعثراتِه، فيكونُ سعيه على غير هدى كحاطب ليل ما يلبث أن يتعثر بحطبه.

وقد نعى القرآن على أهل الكتاب جدالهم بلا علم، وهو ذم لكل من صنع صنيعهم إلى يوم الدين: ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ (آل عمران: ٦٦)، والآية «دليل على المنعِ من الجدال لمن لا علم له، والحظرِ على من لا تحقيق عنده .. قد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن، فقال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾»[٢].

٥. امتثال الآداب العامة للحديث والمجلس

وللوصول إلى حوار ناجح نحتاج إلى بيئة إيجابية مشجعة يمكن للمتحاورين خلالها تقليب الأفكار بروية، ودراستُها وفحصها من خلال تتبع حجج المحاور الآخر، لذا لا غناء للمتحاورين عن البيئة الحوارية السليمة..

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٥٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/١٠٨).

بيئة تبني ولا تهدم، تصلح ولا تفسد، تقرب ولا تبعد .. بيئة علمية رصينة لا يسمع فيها الصياح والسباب والشتائم؛ إذ ليسا من الحوار في شيء، وكما قال الجويني: «تخجيل الخصم بالنوادر، وقطع خاطره بالتهويل والصياح، ليس ذلك من طريق أهل المروءة في الديانة والتقوى.. والمجادلةِ بالتي هي أحسن»[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿ واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ (لقمان: ١٩)، وفي الآية «دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية .. وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة ؛ وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز [أي بحسب رأيهم]، ومن كان أخفض كان أذل .. فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ ، أي لو أن شيئاً يُهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم في المَثَل سواء»[٢].

بل يرى المحققون أن الصياح ورفع الصوت علامة على العي والعجز عن الجواب، وأن المحاور يستدرك - برفع صوته - ما فاته من حجة، وما لم يجده من دليل، ومن ذلك ما روي من مناظرة الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ لرجل في مسألة، فمر بهما رجل، وسمع أبا حنيفة يرفع صوته، فقال:

---

(١) الكافية في الجدل، الجويني، ص (٥٣٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٧١).

أخطأتَ يا أبا حنيفة! فقال أبو حنيفة: ما هذه المسألة؟ كيف عرفتَ أني أخطأتُ، وأنت لا تعرف المسألة التي نتحاور فيها؟ فقال الرجل: لأنك إذا أخطأتَ صِحْتَ، وإذا أصبت رفِقتَ، فعلمتُ أنك أخطأتَ، حيث رأيتُك تصيح[١].

يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لي بشر المريسي: إذا رأيتني أناظر إنساناً، وقد علا صوتي، فاعلم أني ظالم، وإنما أرفع صوتي عليه لذلك»[٢].

وحكي أن رجلاً يدعى عبد الصمد تكلم عند المأمون رَحِمَهُ اللَّهُ فرفع صوته، فقال له المأمون: «لا ترفعن صوتك يا عبد الصمد، إن الصواب في الأسدِّ؛ لا الأشد»[٣].

ومن آداب الحديث والحوار؛ الإقبال على المحاور وحسن الاستماع إليه وعدم التشاغل عنه بقراءة كتاب، أو العبث بجهاز الهاتف الجوال أو القلم، أو بالتلفت أو الإشاحة عنه، فكل ذلك مما ينافي أدب المحادثة، ويدل على الاستخفاف بالآخر، والترفع عليه، وهو ليس من الأدب في شيء، علاوة على ما يستنبته من الضغينة والصد عن الحق والكراهية له ولأهله.

ألم تر إلى رسول الله ﷺ يجلس إلى واحد من كبار رؤوس الكفر والضلال؛ عتبةَ بنِ ربيعة فيستمع ﷺ إلى حديثه الممجوج الركيك، فقد جاء

---

(١) مناقب الشافعي، فخر الدين الرازي، ص (٣٦٠).

(٢) مناقب الشافعي، البيهقي (١/١٩٩).

(٣) الفقيه والمتفقه ، الخطيب البغدادي (٢/٥٤).

إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه حطاماً من الدنيا، إذا هو تخلى عن دعوته ودينه، فماذا صنع رسول الله ﷺ وهو يسمع هذا الهراء؟

يقول ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورسول الله ﷺ يستمع، حتى إذا فرغ عتبة منه، قال ﷺ: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني»، قال عتبة: أفعل»، فلم يقطع النبي ﷺ حديث عتبة - وهو كاره له - مراعاة لأدب الحديث والحوار.

وفي استماعه ﷺ لحديث عتبة وعدم مقاطعته؛ تطييب لخاطر محاوره، واستمالة لقلبه، واستجلاب لسمعه وإنصاته إذا صارت عُقبة النبي ﷺ في الكلام، وهو ما وقع في تمام القصة، حيث استمع عتبة بكُلِّيته إلى النبي ﷺ وهو يقرأ عليه أوائل سورة فصلت، «فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه» ، فما قام من عند رسول الله ﷺ حتى عرف التأثر في وجهه، فقالت قريش: «نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ... سحرك واللهِ يا أبا الوليد بلسانه»[(١)].

قال الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آدب المتحاورَين: «وعلى كل منهما أن يقبِل على خصمه الذي يكلمه بوجهه في خطابه ، المتكلمِ في كلامه ، والمستمعِ في استماعه ، فإن التفتَ [المحاور] أو أعرض عنه في الاستماع أو الخطاب وعظه، فإن لم يقبل قطَع مناظرتَه ، لأن تركَ الإقبال وحسنِ الاستماع يشغل قلب المتكلم والمستمع ، فتنقطع عليه مادة الفهم والخاطر»[(٢)].

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (١/٢٦٢).

(٢) الكافية في الجدل، ص (٥٣٤).

كيف تُراه سيكون حال الحوار ومآله لو قاطع النبي ﷺ عتبة مع كل جملة من هذرمته، أو قال له في وسط حديثه البائس: قد عرفني الله ما جئتَ تعرضه علي، أو قال: كلامك هراء، فلا تلقه على مسمعي، أو قال نحوَها من كلمات الصد والإسفاف بالمحاور وما يأتي به؟

لا ريب أن ذلك لو وقع ؛ لحال بين عتبة واستماعه إلى النبي ﷺ في نوبته في الحديث، ولأجل ذلك فإن العلماء أكدوا على ضرورة الاستماع للمحاور، فالمحاور الناجح هو بالضرورة مستمع جيد، كما هو متحدث جيد، فهو يصغي إلى حديث مقابله؛ ولو كان عارفاً به من قبل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي عليَّ ثلاثٌ: أن أَرميه بطَرفي إذا أقبل، وأن أُوِّسعَ له في المَجلس إذا جلس، وأن أصغيَ إليه إذا تحدث»[١].

وقال الحسين بن علي رضي الله عنه: «يا بني، إذا جالستَ العلماء فكن على أن تسمع أحرصَ منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت [لعلها القول] ، ولا تقطع على أحد حديثاً - وإن طال - حتى يمسك»[٢]، وقال عطاء بن أبي رباح رحمه الله: «إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصتُ له، كأني لم أسمعه، وقد سمعتُه قبل أن يولد»[٣].

قال الإمام الجويني رحمه الله: «وعليهما [أي المتحاورين] جميعاً أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه في نوبته، وإن كان ما يسمعه منه شبهُ الوسواس،

(١) عيون الأخبار (١/٣٠٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ص (٥١٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٨٦).

لأنهما متساويان في حق المناوبة، ومن لم يصبر منهما لصاحبه ، فقد قطع عليه حقه، ومتى لم يصبر عليه خصمُه ، بل داخله بالاعتراض، أو الجواب في نوبته؛ احتمله ووعظه ، فإن أصر عليه قطع مكالمته»(١) أي ترك الحوار معه.

من لي بإنسان إذا أغضبته
وجهلتُ كان الحلمُ ردَّ جوابِه
وتراه يصغي للحديث بسمعه
وبقلبه ولعله أدرى به(٢)

وإذا كان الحوار تبادلاً بين طرفين، فلا يجوز لأحدهما الاستئثار بالحديث دون صاحبه، أو مقاطعته في وسط كلامه، أو في سكتاته.

وهكذا فعلينا معاشر الدعاة تعلم مهارات الاستماع والإنصات، التي تحولنا إلى محاورين ناجحين، متخلقين بالكثير من الصبر والأناة، وستقيلنا هذه الآداب من عثرات التعجل ، وتهيئ لنا الفرص الأفضل لاستكشاف المحاور المقابل، وسبر أغواره، وفهم مرامي كلامه، وتتيح لنا ترتيب أفكارنا والتؤدة قبل إلقائها على الآخرين جزافاً؛ واجتناب التسرع المذموم والتلقائية العبثية التي ستحوجنا – ولا ريب - إلى الاعتذار والتأسف والتراجع، وصدق رسول الله ﷺ بقوله: «إياك وما يعتذر منه»(٣).

---

(١) الكافية في الجدل، ص (٥٣٣).

(٢) من شعر أبي تمام. انظر: المستطرف من كل فن مستظرف، الأبشيهي (٢٦٦/١).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ح (٤٤٢٧)، والبيهقي في الزهد ح (١١١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (٣٣٥٠).

وقد كره العلماء في الحوار أن يشارك الرجل محاورَه في إكمال القول الذي ابتدأ به، كأن يكمل له العبارة المنقولة أو الشعر أو غيَره مما يشعر السامعين بمعرفة السامع المسبقة له، ورأوه من معايب الحديث، قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن سوء الأدب في المجالسة أن تقطع على جليسك حديثه، وأن تبتدره إلى تمام ما ابتدأ به منه خبراً كان أو شعراً ، تتم له البيت الذي بدأ به؛ تريه أنك أحفظ له منه، فهذا غاية في سوء المجالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه»[١].

ولا تشارك في الحديث أهلَه

وإن عرفتَ أصلهُ وفرعهُ[٢]

وأسوأ من المقاطعة في الحديث تكذيب القائل في نقله وخبره، وهذا ما يلزم الترفع عنه وتركه صيانة للحوار؛ ولا يُصار إليه إلا مع اشتداد الدواعي والاضطرار، والضرورات تبيح المحظورات، ولكنها تقدَّر بقدْرها، يقول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «ثلاثة من قريش ، أحسنها أخلاقاً، وأصبحها وجوهاً، وأشدها حياءً، إن حدثوك لم يَكْذِبوك، وإن حدَّثتهم بحقٍ أو باطل لم يُكذِّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح»[٣].

إن تخلق المحاور المسلم بهذه الآداب واجب شرعي، وهو أدعى إلى

(١) بهجة المجالس (١/١٦٢).

(٢) انظر: الجامع لأخلاق الراوي ، الخطيب البغدادي (١/٢٠١).

(٣) عيون الأخبار (٣/٢٣).

قبول دعوته وسماع حجته، فالدعوة إلى الله ينبغي أن تكون منضبطة بالوسائل والآداب الشرعية ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (يوسف: ١٠٨).

المتحدث الناجح

يصطف المسلمون في كل يوم جمعة بين يدي خطباء مساجدهم، وقد أمر الله تعالى المصلين بالإنصات إليهم، والاقتراب منهم ما أمكن .. وهكذا يستمع الملايين من المسلمين أسبوعياً إلى موعظة عالم أو طالب علم، يفقههم في دينهم، ويعرفهم الكثير مما يحتاجون إليه؛ علاوة على ما يلقى عليهم من دروس مسجدية أو محاضرات تلفازية أو كلمات وعظية في المناسبات الاجتماعية وغيرها.

وهنا يتساءل المرء عن الأثر الذي أحدثته ملايين الخطب والدروس والمحاضرات؟ هل حققت الثمرة المرجوة منها؟ أم كان كثير منها كهشيم تذروه الرياح؟

وإذا كان كذلك، فما الأسباب الروحية والموضوعية لضياع هذه الفرصة المتكررة أسبوعياً على أقل تقدير؟ وكيف لنا أن نضمن لها عوامل النجاح والتأثير؟

وقبل أن نجيب عن هذه التساؤلات؛ لابد لنا من الإقرار بأن لخطبائنا ووعاظنا جهد كبير لا ينكر في إصلاح مجتمعاتنا وإرشادها، وقد أسهموا بجهودهم المباركة في صناعة الصحوة الإسلامية العارمة التي تجتاح قارات العالم.

لكن ينبغي في المقابل أن نعترف بأن النتائج أقلُ بكثير من الجهد المبذول والفرصة المواتية .. ومن أراد مصداق ذلك فليسأل أبناء مسجده عن موضوع آخر خطبة حضرها .. هل يتذكره؟ هل أحدثت تغييراً ما في

سلوكه أو فكره؟ هل نقل شيئاً مما تعلمه إلى زوجته وأهل بيته؟

بحسب مشاهداتي - التي أرجو أن تكون خاطئة وقاصرة - فإن الإجابة ستنطوي على الكثير من الأخبار السلبية التي ينبغي أن تدعونا إلى مراجعة طريقتنا في الوعظ والتذكير؛ سعياً للوصول إلى أفضل النتائج وأحسنها.

سنقصر حديثنا هنا على الأسباب الفنية لتراجع التأثير لدى وعاظنا ودعاتنا، سنتحدث عن أدائهم فوق المنبر أو أمام الكاميرا أو خلف الميكرفون، فقد سئمنا تلك الرتابة التي نراها من بعض المتحدثين والخطباء الذين أَلِفنا رؤية جمهورهم وهم يتثاءبون في مجالسهم أو يترنحون.

ولو شئنا أن نعرِّف الخطيب الناجح لقلنا بأنه ذاك الذي يُصيخ له جمهورُه السمع، وهم مستمتعون برونق حديثه، الذي يتولد عنه سلوك إيجابي في حياتهم، أو معرفة نافعة لهم في دنياهم أو أخراهم، ففي عهد النبي ﷺ قدم رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» أو «إن بعض البيان لسحر»(١)، فقد حاز هذان الخطيبان موهبة الإلقاء الناجح، وهي ملَكة فطرية، ويمكن لفاقدها اكتسابُها أو تطويرُها بالدربة والتعلم.

ونحاول فيما يأتي نقل بعض الخبرات التي ذكرها أرباب هذا الفن والمتخصصون فيه؛ للخروج بالداعية عن الحال التي أضعفت تأثيره في جمهوره ومستمعيه.

أول خطوات تصحيح المسار أن يدرك الداعية أن المطلوب منه في يوم

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٧٦٧).

الجمعة خطبتان؛ لا قراءتان، فالخطبة تختلف عن القراءة من ورقة، والناس في طبيعتها تَمَلُّ القارئ، وتصغي إلى الخطيب.

وأيضاً القراءة - أي من ورقة - ليست على نمط واحد، فمنه القراءة الصماء التي تخلو من الروح والعاطفة، فتشبه قراءة المذيع لنشرة الأخبار، ومنه ما يطوره صاحبه؛ فينقلُ فيه بعضاً من الأحاسيس والمشاعر التي كادت تبتلعها الأوراق بين يديه.

وهنا نتساءل: لمَ لا يدرب خطيبنا نفسه على هجر الورقة التي كثيراً ما حجبت وجهه عن المصلين، وأخفت عيونهم عن عينيه؟ ألم يفكر مرة بتفرس وجوههم ليرى إقبالَهم عليه وتفاعلَهم مع كلامه؟ .. حين كان مبتدئاً كان يقرأ من ورقة، ويومذاك التمسنا له عذره، ولكن متى سينتقل من حال الابتداء ليصل إلى حال النضج والإتقان؟ ما المانع أن يقلص خطبته في سبيل أن يتخلص من أسرِ أوراقه؛ إلا قصاصةً تذكره ببعض النصوص أو ترتب له أفكار خطبته؟

ليس عيباً أن يدرب المرء نفسه ليرقى بها إلى إتقان فن لا يجيده ، كأن يخطب في أهل بيته قبل الذهاب إلى مسجده، أو أن يخطب في كراسي البيت وأثاثِه ، أو أمام المرآة، أو أن يسجل لنفسه، ثم يستمعَ لخطبته، ويتجنبَ أخطاءها .. فهذه الدربة كفيلة - بعد حين - بنقله من مصاف القراء إلى جمهور الخطباء.

ومما ورد عن العلماء من الدربة على التدريس والتعليم أن إسماعيل بن رجاء كان يجمع صبيان الكتاب يحدثهم لئلا ينسى حديثه، وأن إسماعيل بن

عطاء الخراساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا لم يجد أحداً أتى المساكين، فحدثهم يريد بذلك الحفظ.

وأما خالد بن يزيد بن معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكان إذا لم يجد أحداً يحدثه ؛ يحدث جواريه، ثم يقول: إني لأعلم أنكن لستن له بأهل. أي لسن من طلاب العلم، لكنه يريد الدربة والاستذكار(١).

والداعية الناجح يهتم في موعظته وخطبته بما يسمى اليوم «لغة الجسد»؛ والمقصود منه تعابيرِ وجهه وإشارات يديه وجسمِه .. طريقة وقوفه .. حركات رأسه، فهذه كلها تشارك الداعية فمه الوعظ، بل قد تسبقه أحياناً، فالدراسة العلمية التي أجراها العالم الأمريكي ألبرت ميهرابيَن في جامعة لوس أنجلوس في خمسينيات القرن الماضي؛ أعطت لهذا الجانب نسبة ٥٥% من التأثير في الجمهور، بينما أعطت أسلوب الإلقاء والصوت نسبة ٣٨%، في حين ذكرت أن المحتوى والمعلومات التي نطرحها لا تؤثر في الجمهور بأكثر من ٧%، أي أن ما نحمله من معالم الخير والهدى يستلزم أسلوباً ناجحاً في تبليغه وتبيينه يجمع بين روعة الأسلوب وجمال العرض.

قد يتشكك بعض القراء في نسبة الـ ٥٥% لتأثير لغة الجسد، وقد سبقتُهم إلى هذه الحيرة التي سرعان ما بددها تذكري لتأثري بالأفلام الصامتة التي رأيتها في طفولتي لتشارلي شابلن، وهي تحكي قصصاً مفهومة معبرة؛ من غير أن ينطق الممثلون فيها بحرف واحد!.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (١/٤٥٣-٤٥٤).

ولن تطول حيرتنا إذا تخيلنا خطيباً يقرأ آيات العذاب - وهو يبتسم ويضحك - لن يكون لموعظته أي تأثير على مشاهديه ومستمعيه، لأنه أخلاها من كل معانيها العظيمة بسبب عبثه وتعابير وجهه الخاطئة .. تلك المعاني كان يمكن لطفل صغير أن يُبلِّغها حين يقرأ هذه الآيات بخشوع وحضور قلب.

وهنا يجدر التنبيه على ضرورة أن تكون حركات اليدين والوجه متوائمة مع القول، وأن لا تسبقَه، ولا تتأخرَ عنه، وأن لا تكثر، فتشغلَ الجمهور بمتابعة الحركات عن سماع الكلام.

وأيضاً ينبغي على الخطيب والمحاضر أن يجتنب من الإشارات الجسدية ما له إيحاءات سلبية على السامعين كالإشارة إليهم بالسبابة مع ضم بقية الأصابع، فهي توحي بالاتهام والعدوانية، وكأن المشير يقول: افعل وإلا، وأما جمع الكفين على شكل هرم للأعلى مع ميل الرأس للوراء؛ فإنه يوحي للرائين بالعنجهية والكبر، ويضع بينهم وبين فاعله من الحواجز والجُدُر ما قد تعجز الكلمات - مهما كانت طيبة- عن تجاوزه.

ولعل في النِسب التي ذكرناها ما يفسر تعاظم تأثير بعض المتحدثين ممن لا علم عنده، ولا موضوع، لكنه يبرع في استخدام نبرات صوته وتعابير وجهه وحركات يديه؛ بما يستر ضعفَ موضوعه وقلةَ علمه؛ في حين أنَّا نجد عالماً أو محاضراً فقيهاً يفقد الكثير من التأثير في مستمعيه لقراءته خطبتَه القيمةَ من ورقة تخفي نصف وجهه، أو لعيب في أدائه وإلقائه، ولا يشفع له عندهم تحضيرُه الجيد ولا معلوماتُه القيمة، فالناس لا تتأثر

بالمحتوى قدر تأثرها بالأسلوب ونبرات الصوت وتعابير الوجه وحركات الجسد.

وللإلمام بعلم «لغة الجسد» فائدة أخرى لا يفرط فيها الداعية، وهي التعرف على أحوال جمهوره ومدى تفاعلهم أو تحفظهم أو موافقتهم على ما يقول ، ويمكنه الوقوف عليه من خلال تفرسه في وجوههم ونظرات عيونهم وحركات أيديهم ، فمما يدله على ملل مستمعه فرقعته لأصابعه، أو وضعه لرأسه بين يديه مع النظر إلى الأسفل، وأما نقره بأظافره على الطاولة فهو تعبير عن بلوغه غاية الملل ونفاد الصبر.

وأما لمسُه لأنفه فهو علامة على الرفض والتكذيب لما يسمع، أو الشكِ فيه، في حين أن لمس الأذن أو شدَّها يفيد التردد والحيرة، وأما قضم الأظافر فيعبر عن حال عصبية يفتقد صاحبُها الشعور بالأمان، وفي مقابله ، فإن وضعَ المستمع يده على خده أو لمسَه لذقنه، إشارةٌ إلى تقديره لما يسمعه وتأمله فيه.

وهكذا فإن إلمام الداعية بفن لغة الجسد يُحيزه علماً نافعاً؛ يضيف - ولا ريب - بصمة بالغة الأهمية في أدائه الدعوي ، ويجعله أكثر قبولاً عند جمهوره ومستمعيه.

وإذا رجعنا إلى الدراسة التي أجراها ألبرت ميهرابيَن حول عوامل التأثير في الجمهور فإنا نستذكر أنها أعطت الأسلوبَ ونبرةَ الصوت نسبة ٣٨٪ من عوامل التأثير في الجمهور.

ويمكن أن ندرك أهمية ما أشار إليه ميهرابيَن حول الأسلوب ونبرة

الصوت إذا تخيلنا ردود الفعل المتوقعة لتحيتك أحدَهم بالسلام وسؤالك عن حاله بنبرة حادة فظة، أو ساخرة موبخة، أو حزينة آسفة ، فالكلمات هي الكلمات، لم تتغير [السلام عليكم، كيف حالك]، لكن كيفية النطق ونبرة الصوت تحمل رسالة أخرى أهمَّ بكثير - في دلالتها - من كلمات السلام الطيبة التي بعثرتها نبرة الصوت الحادة أو الساخرة، ونقلتْ إلى المستمع معاني السخرية منه، أو الغضب عليه؛ مع أن القائل لم يتجاوز في كلماتِه التحية، التي لو أُلقيت بنبرة حانية لعبَّرت عن حب كامن ولهف وأخوة صادقة.

وبين يدينا - أخي الداعية - جملة من التوصيات التي يوصي بها علماءُ فن الإلقاء مَن أراد التأثير بمستمعيه والتغيير في آراء وسلوك جمهوره، ومن أهمها أن لا يجعل نغمة صوته ونبرته في خطبته أو درسه على وتيرة واحدة، فهذا اللحن يستجلب التثاؤب والنعاس، ولربما كان مناسباً لمذيع نشرة أخبار الطقس والبورصة؛ لكنه لن يحقق أهداف واعظ القلوب ومهذب النفوس.

كما يمكن للداعية أن يكون مؤثراً إذا أجاد فن تغيير نبرة صوته بحسب الموضوع الذي يطرقه، فينتقل من علو الصوت إلى انخفاضه، فالنبرة الضعيفة تناسب الحديث عن الحال الحزينة أو المحبِطة، بينما يحسن استخدام النبرة الصاعدة الجهورية في العبارات الحماسية والموضوعات التشجيعية، ويحسن الجمع بين النبرة الصاعدة والنازلة في العبارات التي موضوعها الاستفهام، والتمني، والترجي، والنفي ، والإنكار ، والتوبيخ، والتحقير، والتعجب، فلكل من هذه الأحوال نبرته الخاصة.

وثمة موضوعات يحافظ فيها الواعظ على نغمة ثابتة رصينة؛ لا صعود

فيها ولا نزول، كالمحاضرات الفقهية والدروس التعليمية التي تخاطب العقل؛ ولا يعنيها تجييشُ العاطفة ولا التأثير في عالم اللاشعور، وكذلك الحال في العبارات التفسيرية والشارحة والمدرجة.

والخطيب الحاذق هو من يزاوج بين ارتفاع نبرة صوته وانخفاضه بما يطرد السآمة عن المستمعين ويشد انتباههم إلى حديثه ، وهو علامة نجاحه ، وعنوان تمكنِّه من هذا الفن الذي يمكن تعلُمُه بالاستماع إلى أرباب صنعة الخطابة وفرسان المنابر.

وههنا أمر لن يفوت الداعيةَ التنبهُ إليه، وهو أن رفع نبرة الصوت لا يعني الصياحَ والنواحَ ورفع الصوت بما هو مزعج وخارج عن المألوف، فقد أمر الله تعالى بغض الصوت: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

ومن أدوات فن الإلقاء أن ينبِّر المتحدث على الكلمات المهمة في حديثه أو موضع الشاهد من اقتباسه؛ بالضغط عليها، أو على بعض حروفها، أو تكرارِها، أو رفعِ الصوت عندها، أو خفضِه، أو السكوتِ قبلها أو بعدها، وفي هذا كله ما ينبه السامع إلى موضع الشاهد من بين سائر الكلام، ويسهِّل عليه حفظَه واستذكارَه.

وينبغي على الداعية في خطبته ودرسه اجتناب تكرار بعض الكلمات المزعجة التي يسميها البعض «عواكيز الكلام»، لأن المتحدثين يتكؤون عليها كالعُكَّاز، فيفسدون بتكرارها الممجوج سلاسة الاستماع وجمال العبارة ونقاء الصوت، ولكل من هؤلاء المتحدثين عكازه الخاص، ومنها

قولهم: (إيش ، فهمتم، يعني، بصراحة ، في الحقيقة، والواقع، طبعاً، كما تعرفون)، وأسوأُ منها تكرار حروف الفَهاهة والعِي، كقول المتحدث: (آآآ، مممم، واااااا، للللللل)، وأمثالِها.

وينبغي على المتحدث أيضاً اجتنابُ أسلوب التشكي والملامة والتأنيب والتهديد إلا فيما لابد منه ووفق آدابه، وكذلك العبارات الاعتذارية التي تهز ثقة المستمعين في محدِّثهم؛ ولو كان يظن أنه من خلالها يتواضع ويتقرب إليهم، كقوله: (لست خبيراً في هذا الموضوع، لم أعرف عنوان موضوعي إلا متأخراً، موضوعنا اليوم صعب وجاف وسأحاول تبسيطه)، فهذه العبارات توصل إلى عالم اللاشعور رسالة سلبية ، وهي أن المتحدث لن يكون موفقاً في حديثه للأسباب التي يعتذر بها.

وأيضاً لا يحسن بالداعية أن يضيع معاني خطبته بتتبع السجع المتكلف، أو بتقعر اللغة، واستخدام كلمات مهجورة لا يفهمها جمهوره إلا إذا راجعوا قواميس اللغة ومعاجمها، قال ﷺ : «إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلَّلُ بلسانه تخلُّلَ الباقِرَةِ بلسانِها»[1] أي: يَتَشَدَّق في الكلام ويُفَخِّم به لسَانُه، ويَلُفُّه كما تَلُفُّ البقرة الكلأ ، وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «إن أحبَكم إليَّ وأقربَكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضَكم إلي وأبعدَكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقاً: الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٥٠٠٧)، والترمذي ح (٢٨٥٣)، وأحمد ح (٦٥٤٣).

(٢) أخرجه أحمد ح (١٧٧٣٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢/ ٣٧٩) بشواهده، والثرثرة: كثرة

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يكره التقعير في الكلام بالتشدق، وتكلفِ السجع والفصاحة، والتصنعِ بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون، وزخارفِ القول، فكل ذلك من التكلف المذموم ، وكذلك تكلف السجع ، وكذلك التحري في دقائق الإعرابِ، ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام ، بل ينبغي أن يقصُد في مخاطبته [إياهم] لفظاً يفهمه صاحبه فهماً جلياً، ولا يستثقله»[(١)].

ومما ضربوه من أمثال تقصد وحشي الكلام ما أجاب به الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ سائله عن معنى قوله تعالى: ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ (ق: ١٠)، فقال: «الطِّبِّيْعُ في كُفُرَّاهُ»[(٢)]، فكان جوابه من مبهمات القول وغريبه.

وأيضاً لا يحسن بالداعية أن يخطب أو يحاضر بلغة عامية، وإنْ قُبل من المتحدث الفصيح أن يضمِّن درسه مثلاً عامياً أو جملة باللهجة العامية ، يتقرب بها إلى جمهوره؛ من غير أن يكون ذلك دَيدناً وعادة له.

وينبغي اجتناب الكلمات ذات الإيحاءات السيئة عند الجمهور أو بعضه، مثل (الحريم، العصابة)، ومقصوده: (النساء، المجموعة)، وكذلك تجنب التعميم في الأحكام ، والغالب فيه أن يكون خاطئاً، سواء كان في مدح أو

الكلام ، والتفيهق: التوسع فيه، والتشدق التكلف فيه والتقعر. انظر: التنوير شرح الجامع الصغير، الأمير الصنعاني (٥/٥٣٦).

(١) الأذكار ، النووي ، ص (٣٧٢).

(٢) غريب الحديث ، الخطابي (٣/٨٧).

ذم، فالناس مختلفون في رؤاهم وسلوكهم، وإن جمعهم ما يجمع الناس من علائق مختلفة.

ومن فنون الإلقاء فن السكوت أثناء الحديث .. السكوت لثوانٍ يعين المحاضر أو الخطيب على قراءة وجوه مستمعيه، وعلى إعادة ترتيب أفكاره، ولا يحسُنُ أن يطيل سكوتُه، أو أن ينشغل فيه بترتيب أوراقه، أو البحث فيها عما يقوله، فهذا يمكن فعله أثناءَ نطقه بجملة لا تحتاج إلى تركيز عال، كعبارة يكررها، أو أثناء قوله لبيت شعر يحفظه، أو مأثورٍ محفوظٍ عنده.

ومن فنون الإلقاء أن يُقِل المرء في كلامه، فلا يطول وعظه، فالدراسات الحديثة تذكر أن تركيز السامعين يستمر عادة إلى عشر دقائق، ثم يبدأ بالتلاشي، ويذوي حتى لا يكاد السامع يعقل من كلام خطيبه شيئاً بعد عشرين دقيقة.

ومما يحسن بالداعية ملاحظتُه؛ أن يختِم حديثه بطريقة إيجابية تخلو من التشاؤم والقنوط والوعيد، فالنهايات - كما البدايات - لها وقع خاص في أذن السامع، ويحسن الختم بقصة مؤثرة أو تلخيص شامل لأهم نقاط محاضرته، أو جملة مدوية ينشئها أو يقتبسها من غيره.

وفي كل ما سبق ينبغي على الداعية أن يدرب نفسه ويغير أسلوبه، لتكون هذه المهارات سجية عنده، يفعلها بشكل عفوي ؛ من غير تكلف ولا تصنع، فهذا أدعى لحضور قلبه وتأثره بما يقول، وقد قالوا: «لا يؤثر إلا المتأثر»، وقال عامر بن عبد القيس رضي الله عنه: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان»[1].

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ (١/٨٨).

الدعوة بالقدوة

ليست الدعوة بالقدوة ترفاً زائداً أو خياراً ممكناً، بل لعلها أحد أهم وسائل الدعوة وأكثرِها تأثيراً .. تلك الوسيلة التي نقدر عليها جميعاً؛ مهما اختلفت أقدارنا العلمية، وتفاوتت قدراتنا الشخصية، إذ لا تحتاج إلى كثير موهبة خطابة ، ولا جرأة حديث، ولا علم محيط، إنها الدعوة بالفعل الصالح والسمت الحسن فحسب .. دعوة صامتة يقدم المسلم فيها موعظة بليغة من خلال سلوكه وتصرفاته، وهي أبلغ من كثير من الكلام الذي نهذر به ونتشدق؛ من غير أن تصدقه أفعالنا وتصرفاتنا، قال ﷺ: «استقيموا يُستقَم بكم»[(١)]، أي من خلال الاقتداء بأفعالكم واستقامتكم.

والدعوة بالقدوة مرتبةٌ سامقة وغايةٌ مطلوبة ، تطلع لها نبي الله إبراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه أن يجعله وبنيه قدوة للمؤمنين ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان: ٧٤)، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا»، وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي قادة في الخير، ودعاة هدى يُؤتَم بنا في الخير»، فالغاية ليست شرف الدنيا ولا رفعتها، بل أن نحوز عند الله أجر دلالة العباد على الخير، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من استطاع منكم أن يكون إماماً لأهله، إماماً لحيّه، إماماً لمن وراء ذلك [أي فليفعل]، فإنه ليس شيءٌ يؤخذ عنك [من الهدى] إلا كان لك منه نصيب»[(٢)]، أي من الأجر.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (٦٧٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ح (١١٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ح (٣٥٣٢١).

ولما كانت الدلالة بـ «الفعل أقوى من القول»[1] كما يقول الإمام ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإن الدعوة بالقدوة تترك من الأثر ما قد تعجز عنه الكلمات والمواعظ، ومصداق ذلك نراه في يوم الحديبية حين صالح النبي ﷺ قريشاً على عدم دخول مكة، فطلب من أصحابه أن يتحللوا من إحرامهم، فشق عليهم ذلك، وما قام منهم واحد، فكرره عليهم ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، دخل على أم سلمة رضي الله عنها يستشيرها، فقالت : «يا رسول الله .. لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك، فيحلقك»، ففعل ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً»[2]، فقد سارعوا إلى الحلق والتحلل من العمرة اقتداء بفعله ﷺ، وانقطع رجاؤهم بتبدل رأيه الذي ظنوا أنهم يؤثرون عليه بتأخرهم في إنفاذه.

ومن بعده ﷺ توالى العلماء في التأكيد على نجاعة الدعوة بالقدوة وأهميتِها، فقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من وعظ أخاه بفعله كان هادياً»، وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأصحابه: «ادعوا الناس وأنتم صامتون» قالوا: كيف ذلك؟ قال: «ادعوا الناس بأفعالكم»[3]، وقال غيره: «من وعظ بقوله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نَفَذَتْ سهامه»[4]، أي أصابت، وتأثر الناس بحديثه ، واستفادوا منه.

ولكي ينجح الداعية في هذا اللون (الدعوة بالقدوة) فإنه يُطلب منه

---

(١) شرح ابن بطال (٨/١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري ح (٢٧٣١).

(٣) انظر: دائرة معارف الأسرة المسلمة، إعداد: علي بن نايف الشحود، كتاب إلكتروني.

(٤) فيض القدير ، الشوكاني (١/١٠٤).

الارتقاءُ بنفسه والارتفاعُ بها عن مستوى دهماء الناس الذين يدعوهم ، فليس من عادة الناس التأثر بالندِّ أو الأقل، بل النفس تولع دائماً بتقليد الأقوياء، وحديثنا - بلا ريب - عن قوة الروح والعلم لا الساعد .. هذه القوة التي لمسها الآخرون في نبينا ﷺ بما سمعوه عنه أو منه، فقال الجُلندي ملك عمان : «والله لقد دلني على هذا النبي الأمي ؛ أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أولَ تارك له ، وأنه يَغلِب فلا يبطر، ويُغلَب فلا يضجر ، ويفي بالعهد، وينجز الموعود»(١).

النبي الداعية ﷺ قدم من نفسه القدوة الذي يسبق فعله قوله، فهو أسبق الناس إلى عبادة الله وامتثال أمره: «أما والله، إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»(٢)، وهو كذلك أكرمهم وأشجعهم وأحلمهم، واجتمع له ﷺ من الكمالات ما جعله أسوة في كل باب، وعلى كل وجه، فهو القدوة زوجاً وأباً وقائداً وعابداً، وهو الأسوة غالباً ومغلوباً، قوياً ومستضعفاً.

ودعونا نتأمل هذا الموقف الذي يحكيه لنا الصحابي أنس بن مالك ﷺ، فيقول: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس، وكان أجودَ الناس، وكان أشجعَ الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عُرِي [أي بلا سَرج] في عنقه السيف، وهو يقول: لم تُرَاعوا، لم تُرَاعوا»(٣)،

---

(١) أخرجه السهيلي في الروض الأنف نقلاً عن ابن إسحاق (٥١٦/٧).

(٢) أخرجه مسلم ح (١١٠٨).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٣٠٧).

أي لا تخافوا، فقد سبقهم ﷺ إلى مكان الصوت والخطر، فلم يجد ما يخيف المسلمين ويقلقهم.

لقد أدرك العلماء أهمية القدوة في الدعوة، إذ كلماتنا «تنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقّاً؛ إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعيّاً لِما ينطق.. عندئذٍ يؤمن الناس ويثقون؛ ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق .. إنها حينئذٍ تستمد قوتها من واقعها؛ لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها؛ لا من بريقها .. إنها تستحيل يومئذٍ دفعة حياة؛ لأنها منبثقة من حياة»[1].

والداعية إذا أراد أن يكون ناجحاً؛ ينبغي عليه أن يفوق مدعويه بروحه، وأن يبزهم بتقواهُ وخشيتهِ وسبقِهِم إلى ما يدعو إليه ، ليحصل له التأثير الذي يريده، فالناس تخضع لأصحاب المقامات العالية، وتتأثر بهم، وتسارع إلى محاكاتهم وتقليدهم ، فيستدركون نقصهم من خلال رؤيتهم لكمال صفات هؤلاء الرواد؛ ولا يهز شعورَ الناس المهزوزون والعاجزون عن إلزام أنفسهم بما يدعون إليه ؛ القابعون في الدون لا يقدرون على الارتفاع بأنفسهم إلى ما هو أعلى من أحوال عامة الناس.. مثلُ هؤلاء لا تؤثر مواعظهم في القلوب ولا الأبدان؛ كما قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ : «إن العالم إذا لم يعمل بعمله؛ زلت موعظته عن القلوب كما يزِّل القطر عن الصفا»[2]، أي تضيع،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١/٦٨).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل ، ص (٦١).

ولا ينتفع بها أحد.

يا معاشر الدعاة، حين ندعو بالكلام الذي لا يصدقه عمل؛ لن يستجاب لدعوتنا، فالشرائع والأوامر الإلهية فيها لم تنزل لتسود صفحات الكتب أو يُتشدق بها على المنابر، أو تعلق على الرفوف، أو تزين بها المجالس والسيارات، بل أراد الله منها أن تكون حركة تتجلى في شخوصنا الممتثلةِ لأوامر ربنا، وأن يتعرف الناس على هديه ودينه من خلال سلوكنا وفعلنا قبل أن يسمعوا أقوالنا ومواعظنا، وإلا فما فائدة علمنا وتشدقنا بهذه الشرائع والأحكام والآداب التي بقيت حبراً في الصفحات، قال الإمام سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان نهاري نهارُ سفيه، وليلي ليلُ جاهل، فما أصنع بالعلم الذي كتبت؟»، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكن ممَّن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء»[1].

ولتتحقق القدوة الصحيحة بعث الله النبيين من بني البشر، ليُقتدى بهم، وليكونوا نماذج تحتذى، يهتدي المؤمنون باستقامتهم، وتقام حجة الله على البشر بحسن صنيعهم، فلا يقول بعدهم قائل: لا نقدر على فعل ما يفعله هؤلاء الرسل من طول عبادة وحسن تزكية للنفس وجَلَد على الدعوة وصبر على لأوائها... فهم مثلهم من بني البشر، لكنهم ألزموا أنفسهم مقام العبودية الحقة لله ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ (الأحزاب: ٢١).

---

(١) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (٢٧١/٧)، وإحياء علوم الدين ، الغزالي (١٥٥/١).

ولعظيم مقام التأسي وكبير أثره وجليل قدره؛ أمر الله نبيه ﷺ بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء الكرام ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، فامتثل النبي ﷺ أمر ربه، فكان يستحضر معانيَ التأسي بالأنبياء حين يقاسي معاناتهم، ويتعرض لما سبقوا إليه من صنوف الأذى والبلاء، فحين قسم ﷺ غنائم حنين بين المؤلفة قلوبُهم دون المهاجرين والأنصار قال رجل: ما أراد بها وجه الله، فغضب النبي ﷺ لقوله، وتغير وجهه ، ثم استذكر أخاه موسى عليه السلام وصبره على سفهاء قومه، فقال: «يرحم الله موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(١)].

قال ابن بطال رحمه الله: «أهل الفضل والخير قد يعز عليهم ما يقال فيهم من الباطل، ويكبُر عليهم، فإن ذلك جِبلَّةٌ في البشر، فطرهم الله عليها، إلا أن أهل الفضل يتلقون ذلك بالصبر الجميل اقتداء بمن تقدمهم من المؤمنين، ألا ترى أن الرسول قد اقتدى في ذلك بصبر موسى»[(٢)].

وقد كان ﷺ يقص على أصحابه بعض مواقف إخوانه الأنبياء؛ ملتمساً من نفسه وأمته الاقتداء بهم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»[(٣)] ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً

(١) أخرجه البخاري ح (٣٤٠٥)، ومسلم ح (١٠٦٢).
(٢) شرح ابن بطال (٢٥٣/٩).
(٣) أخرجه البخاري ح (٣٤٧٧)، ومسلم ح (١٧٩٢).

إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ (الأنعام: ٩٠).

لقد أدرك سلفنا الصالح فضل الدعوة بالقدوة وعظيم تأثيرها، فتواصوا بثني الركب عند حِلَق المربين من العلماء رجاء التعلم من سلوكهم قبل علومهم، قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ : «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم»[(١)].

ويحكي الصلت بن بسطام التيمي عن أبيه قولَه: «الزم عبد الملكِ بنَ أبجر، فتعلم من توقيه في الكلام؛ فما أعلم بالكوفة أشد تحفظاً للسانه منه»[(٢)]، فهذا الأب الحصيف يوصي ابنه برفقة هذا العالم الرباني رجاء أن يتعلم منه حفظَ اللسان وتركَ غيبة الناس وذكرِ معايبهم.

وأما إبراهيم بن حبيب الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ فكان والده يقول له : «يا بُني، إيت الفقهاء والعلماء ، وتعلم منهم ، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم ، فإن ذلك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث»[(٣)].

وقد تكاثر طلاب الأدب في مجالس المربين يتعلمون من آدابهم، ويتخلقون بأخلاقهم، قال عبدُ الرحمنِ بنُ مَهدي: «كنا نأتي الرجل ما نريد علمه؛ ليس إلا أن نتعلم من هديه وسمته ودلّه»[(٤)].

ومن هؤلاء الهداة الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد: «كان يجتمع في

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ح (٩).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ح (٤٢٨).
(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ح (١٠).
(٤) أخرجه عنه البيهقي في شعب الإيمان ح (٨١٥٥).

مجلس أحمد زُهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحوُ خمسُ مائة يكتبون [أي الحديث والعلم]، والباقون يتعلّمون منه حُسْنَ الأدب والسَّمت»[١].

ومن هؤلاء الباقين أبو بكر بنُ المطوعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو القائل: «اختلفتُ إلى أبي عبد الله [أي أحمد] ثنتي عشرة سنة، وهو يقرأ المسند على أولاده، فما كتبتُ عنه حديثاً واحداً، إنما كنتُ أنظر إلى هديه وأخلاقه»[٢].

ومن الذين يهتدى بسمتهم الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول تلميذه ابن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه»، وكان ابن مهدي يقول: «ما رأيت أحداً أهيب، ولا أتم عقلاً من مالك، ولا أشد تقوى»[٣]، ومكث يحيى بن يحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ زمناً يأخذ من شمائل مالك بعد أن فرغ من علمه[٤].

وهذا الإمام الجليل؛ أي مالك كانت أمه توصيه إبان طفولته: «اذهب إلى ربيعة [الرأي]، فتعلَّم من أدبه قبل علمه»[٥].

وكذلك كان علي بن المديني وغير واحد يحضرون عند يحيى القطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يريدون أن يسمعوا شيئاً إلا أن ينظروا إلى هديه وسمته.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣١٦/١١).

(٢) المصدر السابق (٣١٦/١١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨٧/٧).

(٤) انظر: المصدر السابق (٣٥/١٤).

(٥) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض اليحصبي (١٣٠/١).

ولما سئل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أين تريد؟ قال: إلى البصرة، إلى ابن عون، آخُذ من أخلاقه، آخذ من أدبه»[١].

وإذا أردت أن تقف على بعض ما كان الطلاب يتعلمونه من مشايخهم فدونك ما يقوله سَلْم بنُ جنادة عن صحبته للإمام وكيعٍ بنِ الجراح شيخِ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: «جالست وكيعاً سبع سنين ، فما رأيته بزق ، ولا مس حصاة، ولا جلس مجلساً فتحرك ، وما رأيته إلا مستقبل القبلة ، وما رأيته يحلف بالله»[٢].

وأما الإمام المربي إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فينقل عن معاصريه أنهم «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه»، ويقول: «كنا إذا أردنا أن نأخذ عن شيخ سألنا عن مطعمه ومشربه، ومدخله ومخرجه؛ فإذا كان على استواء أخذنا عنه، وإلا لم نأته»[٣].

ولنسمع إلى الواعظ الخِرِّيت ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يحكي لنا عن تأثره بمشايخه، فيقول: «لقيتُ مشايخ، أحوالُهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعُهم لي في صحبته العاملُ منهم بعلمه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه.. ولقيتُ عبدَ الوهاب الأنماطيَّ، فكان على قانون السلف، لم تُسمع في مجلسه غِيبةٌ، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنتُ إذا

(١) الآداب الشرعية، ابن مفلح (٢/٢٣٧).
(٢) تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/٢٢٤).
(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ح (١٣).

قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى، واتصل بكاؤه، فكان - وأنا صغير السن حينئذ - يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل، ولقيتُ الشيخَ أبا منصور الجَوَالِيْقِيَّ رَحِمَهُ اللهُ، فكان كثيرَ الصمت، شديدَ التحري فيما يقول، متقناً، محققاً، وربما سُئل المسألة الظاهرة، التي يبادر بجوابها بعضُ غلمانه، فيتوقف فيها حتى يتيقن، وكان كثيرَ الصوم والصمت، فانتفعتُ برؤية هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي بغيرهما، ففهمت من هذه الحال؛ أن الدليل بالفعل أرشدُ من الدليل بالقول»[(١)].

إن ظاهرة الأئمة الهداة تتجلى في أناس يكفي أن تراهم لتستذكر عظيم تقصيرك في جنب الله، فرؤية هؤلاء العباد تذكرك بالله الذي عبدوه، وقصرتَ في عبادته، يقول: يونس بن أبي إسحاق السبيعي عن التابعي عمرو بن ميمون رَحِمَهُ اللهُ: «كان إذا دخل المسجد فرئي ذُكر الله»[(٢)]، وقال أبو عَوانة رَحِمَهُ اللهُ: «رأيت محمد بن سيرين في السوق؛ فما رآه أحد إلا ذكر الله»[(٣)].

وفي سبيل الوصول إلى دعوة ناجحة ينبغي على الداعية الحرص على جمال صورته عند الناس ونقائها، فإن خدشت مرآته امتنع الناس عن النظر إليها ، وأن يتحرز عن مواطن الريب وكثير مما هو من الحلال، لأن العيون تتطاول إليه وتقتدي به، وتوسعُه في المباحات مثلاً كركوب أغلى أنواع السيارات أو الاحتفال المبالغ فيه بمناسبة ما؛ قد يكون من الحلال المباح

(١) صيد الخاطر ، ص (١٥٩).
(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر (٤١٩/٤٦).
(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦١٠/٤).

والتوسعةِ عن النفس، لكنه لا يليق بالداعية المقتدى به ، فالأولى له التنزهُ عنه ، والأخذُ بالعزائم ما أمكنه، واجتنابُ المشتبهات وخوارمِ المروءة ، وأيضاً الابتعاد عن المباح حراسة لمنزلته عند الخلق، ومراعاة لاقتدائهم به، فقد يظن المقتدون بعض الحلال من الحرام أو المكروه، فيسقط عندهم قدره، يضيع أثره.

يقول الامام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العلية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة»، ويعقب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: «فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام»[١]، فقد يشتبه على بعض الرائين، فيراه من ارتكاب الحرام.

ولما هَمَّ إمامُ مصر الليثُ بنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بفعل لا يليق بالإمام القدوة، قال له يحيى بن سعيد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تفعل؛ فإنك إمام منظورٌ إليك»[٢].

وأما الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكان يقول: «كنا نمزح ونضحك، فلما صِرنا يُقتدى بنا ، خشيت ألا يسعنا التبسم»[٣].

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا متأكد في حق من يقتدى بهم، فلا

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/٢١٤).
(٣) المصدر السابق (٧/١٣٢).

يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم، وإنْ كان لهم فيه مخرج؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم»[١].

أيها العالِم إياك الزلل
واحذر الهفوة فالخطب جلل
هفوة العالم مستعظمة
إن هفا أصبح في الخلق مَثَل
وعلى زلته عُمدتُهم
فيها يحتج من أخطأ وزل [٢]

قال ابن الحاج الفاسي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فالعلماء منزهون عن الشبهات، بل يتأكد الأمر في حقهم، وقد يصير ترك الشبهات في حقهم واجباً؛ لأنهم القدوة، والناس لهم تبع، فإذا اقتحموا الشبهات اقتدى بهم الناس في تناولها»[٣].

قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن صفات أهل الاقتداء والتأسي: «ولا يرضى من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها؛ بل يأخذ نفسه بأحسنها وأكملها، فإن العلماء هم القدوة، وإليهم المرجع في الأحكام، وهم حجة الله على العوام، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون، ويقتدي بهم من لا

---

(١) فتح الباري (٢٨٠/٤).
(٢) من شعر أبي المنصور الدمياطي. انظر: المدخل، لابن الحاج (١١٢/١).
(٣) المدخل، لابن الحاج (١١٤/٢).

يعلمون، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه ، فغيره أبعد عن الانتفاع به»[1].

أخيراً، فقد كان لأسلوب الدعوة بالقدوة والحال قصبُ السبق في إدخال الإسلام إلى كثير من البلدان التي آمن أهلها على يد تجار مسلمين، ولربما كانوا محدودي الثقافة الشرعية، لكنهم كانوا مشبعين بقيم الإسلام وأخلاقه التي أذهلت الآخرين وهم يرون تعاملهم الفريد، فرأوا من أمانتهم وصدقهم ما لم يعهدوه في التجار من قبل ومن بعد، فانفتحت مغاليق القلوب لدعوتهم، فأخذوا بنواصي من حولهم إلى الإسلام بسيف الخلق الحسن والفعل الرشيد.

واليوم نقدم نحن المسلمين - وللأسف - صورة عكسية لذلك الماضي الجليل، إذ ننفر من حولنا عن ديننا من خلال تصرفاتنا الطائشة التي تجافي هدي ديننا القويم، فنكون سبباً في ضلال الضالين وغياب الحقيقة عنهم .. الحقيقةِ التي لم تتحول إلى واقع نعيشه، فيراه الناس، ويتعلمون منه .. والناس في عادتها تبصر أكثر مما تسمع، ولذلك فكلماتنا تبقى جوفاءَ بتراء عاجزةً عن الوصول إلى قلوب الآخرين ما لم تتوج منا بفعال.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم بأدب الصالح والمتعلم، بدر الدين ابن جماعة، ص (٢٠).

التربية بالعقوبة

يضع الداعية نصب عينيه هدايةَ الناس واستنقاذَ أنفسهم من نار تلظى، لا تفتأ تستزيد، وتقول: هل من مزيد؟ وهو يبذل في سبيل فلاحهم وخلاصهم ما يستطيع من وسائل الدعوة والإصلاح؛ حتى إذا أعيته الحيل وضاقت به السبل فلم يجد إلا التربية بالعقوبة صار إليها حيث لا يجدي إلا القسوة والعقوبة.

فقسا لتزدجروا ومن يك راحماً

فليقسُ أحياناً وحيناً يرحم(١)

قال سفيان الثّوريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأصحابه: «تدرون ما الرّفق؟...أن تضع الأمور في مواضعها: الشّدّة في موضعها، واللّين في موضعه، والسّيف في موضعه، والسّوط في موضعه»(٢).

ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلا

مضرّ كوضع السّيف في موضع النّدى(٣)

والهدف من العقوبة ليس إهانةَ المخطئ وإذلالَه وانتقاصه؛ بل إصلاحَه وتطهيرَه من معصيته وفعله الرديء، فالتربية بالعقوبة هي مِبضعُ الجراح، ولا يصار إليه إلا حين يستفحل الداء، وتغدو العقوبةُ لوناً لازماً للعلاج رحمة بالعاصي، ومظهراً يدل على الحرص والشفقة عليه.

---

(١) انظر: ديوان أبي تمام، ص (٢٠٧).

(٢) فيض القدير، الشوكاني (٧٣/٤).

(٣) من شعر المتنبي. انظر: الأمثال السائرة من شعر المتنبي، ص (٤٨).

والدعوة بالعقوبة لا تعني بالضرورة ما يتبادر إلى الذهن من ضرب أو سباب، فالعقوبة لها صور كثيرة تتفاوت في غلظتها بحسب الشخص ورهافة حسه، وكذلك عظم ذنبه وخطيئته، فمنها الهجر والإعراض والتشهير والتوبيخ أو اللوم والعتاب، وكذلك العقاب البدني.

أولاً: اللوم والعتاب:

اللوم والعتاب مترادفات تتحدث عن وسيلة دعوية فاعلة يلجأ إليها الداعية أحياناً مع مدعويه حين يخطئون ، فثمةَ مواقفُ تحتاج في تصحيحها إلى قرع شديد وتأديب بالغ يوقظ صاحبها من سَكرةِ غيه، ويستفيقه من طول غفوته ورقاده، ويقف به على حقيقة حاله، ويبصره بمآله.

والنبي ﷺ ، وهو القدوة الحسنة لكل الدعاة؛ كان يلجأ أحياناً إلى التربية بالعقوبة عبر صورها المختلفة ، ومنها اللوم، ولكن علينا أن نتذكر أن النبي ﷺ حين يلوم أو يعاتب فإنه يفعل ذلك على نحو لا يهدر كرامة المدعو، فلا يصيبه ما قد يتبادر إلى الذهن من إذلال وقذف، ولا يُسمعه السباب والشتائم، فما هكذا يقوَّمُ المخطئ ، وما كان هذا سمتاً للدعاة، ولا فعلاً لسيدهم ﷺ، يقول أنس ﷺ: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعاناً ولا سباباً، كان يقول عند المعتبة (أي العتاب): «ما له ترِب جبينه»[1]، وهي: «كلمةٌ تقولها العرب، جرت على ألسنتهم، وهي من التراب، أي سقط جبينه للأرض، وهو كقولهم: رغم أنفه... كلمة تجري على اللسان، ولا يراد

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٠٤٦).

حقيقتها»[١]، التي تعني الفقرَ أو السقوطَ على التراب.

ومما يشهد لذلك أن النبي ﷺ كان يقولها في غير العتاب، كقوله لجابر بن عبد الله رضي الله عنه تحبباً إليه: «فاظفر بذات الدين، تربت يداك»[٢]، وقول فاطمةَ بنتِ النبي ﷺ لزوجها علي رضي الله عنهما: «تربت يداك يا ابن أبي طالب»[٣] ، ولذلك حملها بعض الفقهاء على معنى جليل، وهو الدعاء لصاحبها بالسجود لله تعالى على التراب، فترغيم الأنف واغبرار الجبين أو اليدين في سبيل الله من أعظم ما يلقى به العبد ربه تبارك وتعالى[٤].

وحين نتأمل بعض مواقف المربي العظيم ﷺ وهو يعاتب أصحابه أو يلومهم، فإنا نقف على بعض فقه اللوم والعتاب، فمن ذلك ما صنعه النبي ﷺ مع أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حين عيَّر بلالاً رضي الله عنه بأمه، وقال له : «يا ابن السوداء»، فقال له النبي ﷺ بلسان المؤدب الموبخ: « إنك امرُؤٌ فيك جاهلية» ، أي ما تزال فيك واحدة من خصال الجاهلية وأخلاقِها، وهي الفخر بالآباء والخيلاء بالأحساب.

وقد بلغ الدرس النبوي غايته، فرُئي أبو ذر رضي الله عنه بالربذة بعد سنين طوال، وهو يلبس بُرداً، وغلامه إلى جواره يلبس بُرداً مثلَه، فقال له قائل: «يا أبا ذر، لو كنتَ أخذتَ الذي على غلامك، فجعلته مع هذا، فكانت حلة، وكسوتَ غلامك ثوباً غيره»، فأخبرهم رضي الله عنه بخبره مع بلال، فقد تعلم من هذا الموقف

(١) فتح الباري (١٠/٤٥٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٥٠٩٠)، ومسلم ح (٧١٥).
(٣) أخرجه أحمد ح (٧١٠)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢/١١٧).
(٤) انظر: فتح الباري (١٠/٤٥٣).

التواضع حتى لغلامه.

ومن اللوم والتقريع للتربية ما نال أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، وهو الحب ابن الحب، هكذا لقبه الصحابة رضي الله عنهم لمحبة رسول الله ﷺ له ولأبيه زيد بن حارثة، ولكن هذا الحب لم يمنع من تقريعه حين أخطأ خطأً فاحشاً، فقتل رجلاً من المشركين بعد أن قال: لا إله إلا الله. فقال له رسول الله ﷺ مؤنباً: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟!» يقول أسامة: «فما زال يكررها، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»(١).

وفي رواية لمسلم أنه ﷺ قال له: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله ، إذا جاءت يوم القيامة؟» ، وجعل يكررها ﷺ(٢).

وذات يوم رأى رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب في يد رجل من أصحابه، فنزعه فطرحه، وقال مؤنباً: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده؟!»، ولا ريب أن في كلامه وصنيعه ﷺ تقريعاً قاسياً لهذا الصحابي، لكنه مصحوب بكمال الحب ، ويدل عليه فعل الرجل بعدها ، إذ لم يغضب رضي الله عنه من هذا التقريع، بل لما قيل له: خذ خاتمك، انتفع به، قال: لا والله، لا آخذه أبداً ، وقد طرحه رسول الله ﷺ(٣).

ومثله حين أخذ عمر رضي الله عنه صحيفة من كتب أهل الكتاب، فغضب منه رسول الله ﷺ ، وقال: «أَمُتهوِّكونَ فيها يا ابن الخطاب ، فوالذي نفسي بيده،

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٢٦٩)، ومسلم ح (٩٦).

(٢) أخرجه مسلم ح (٩٧).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٠٩٠).

لقد جئتكم بها بيضاء نقية»[1].

وأحياناً يخلط المربي بين اللوم والمزاح ، فيكون ذلك المزيجُ أقربَ لتأليف قلب المدعو وأرفقَ بحاله، ومن ذلك ما صنعه النبي ﷺ مع خَوَّاتِ بنِ جبير الأنصاري رضي الله عنه حين رآه جالساً إلى نسوة بطريق مكة، فقال له: «يا أبا عبد الله ، مالك مع النسوة؟»، فتلعثم خوات، وبدلاً من أن يقر بخطئه ويستغفر لذنبه قال كاذباً: يفتلنَ ضفيراً لجملٍ لي شرود.

فمضى رسول الله لحاجته، ثم عاد فلقي خوات، فقال له: «يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشِّراد بعد؟»، أي: هل ما زال جملك يهرب منك؟

قال خوات: فاستحيت وسكتُ، فكنتُ بعد ذلك أتفرر منه؛ حتى قدمتُ المدينة، فرآني في المسجد يوماً أصلي، فجلس إلي، فطوَّلتُ في صلاتي، فقال: «لا تطوِّل، فإني أنتظرُك»، فلما سلمتُ، قال: «يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشِّرادَ بعد؟»، فسكتُّ واستحيتُ، فقام.

وكنتُ بعد ذلك أتفرر منه، حتى لحقني يوماً، فقال: «يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشِّرادَ بعد؟».

وحينها بلغ المشهد غايته في التنبيه على الخطأ والإرشاد؛ فقال خوات معترفاً بالحقيقة: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمتُ.

فقال ﷺ وهو مسرور بإنابة خوات: «الله أكبر، الله أكبر، اللهم اهد أبا

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة ح (٢٦٢٤١)، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٣٤٩/٢٣)، ومعنى: «أمتهوكون»: أمتحيرون أنتم في الإسلام حتى تأخذوه من اليهود والنصارى؟.

عبد الله»، فحسن إسلامه وهداه الله[(١)].

وأحياناً لا يجدي اللوم والتذكير مع بعض الناس، بل لابد من التقريع الشديد الذي قد يصل إلى التشهير بالمخطئ وفضحه على الملأ ؛ خلافاً للأصل في معاملة المسلمين بستر عيوبهم، والتغافل عن هفواتهم ؛ وقد أجاز الرسول ﷺ هذا الأسلوب من العقاب، حين جاءه رجل يشكو جاره ، ويقول: يا رسول الله، إن لي جاراً يؤذيني، فأمره النبي ﷺ بالصبر، فعاد الرجل بعد برهة للشكوى، فأوصاه ﷺ ثانية بالصبر ، ثم ثالثة.

فلما جاءه في المرة الرابعة قال ﷺ: «انطلق، فأخرج متاعك إلى الطريق» ، فانطلق فأخرج متاعه، فاجتمع الناس عليه يسألونه عن سبب إخراجه لمتاعه في الطريق، ولما عرفوا ذلك جعلوا ينالون من جاره المؤذي ويلعنونه، فلما بلغه سباب الناس له قال الجار المؤذي: «ارجع إلى منزلك، فوالله لا أؤذيك»[(٢)].

لكن ينبغي التنبيه هنا أن على المربِّي أن لا يُفْرط في استخدام التوبيخ، وأن لا يبادر إليه إلا في وقت ضرورته؛ تحاشياً لآثاره السلبية ونتائجه العكسية، فما كل معصية، وما كل أحد يحتاج هذا الأسلوب، بل الكثير من الناس تكفيه الإشارة أو النظرة أو الكلمة العابرة الحانية، وهو ما ينبغي ان نربي عليه أبناءنا ومن حولنا.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (٤٠٨٣)، قال الهيثمي: «أخرجه الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد، وهو ثقة». مجمع الزوائد (٩/٤٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ح (٩١٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد ح (٩٢).

ثانياً: الهجر والإعراض:

الهجر أو الإعراض عن المخطئ نوع آخر من أنواع التربية والتهذيب، وهو أمر مشروع نزل به القرآن: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وفعله النبي ﷺ، وأمر به .

لكن ينبغي أن ندرك أن الهجر والإعراض ليس هو الأصل في معاملة المخطئين، بل هو مبضع الجراح الذي يضطر إليه الداعية والمربي حين يرى ما يستدعيه، كغلظ أمر المعصية التي يقع فيها المدعو، أو مجاهرتِه فيها، أو استمراءِ صاحبها لها، وإصرارهِ عليها، أو لغيره من الأسباب التي قد تجعل الهجر ضرورة دعوية فاعلة للتأثير على المذنب وسوقِه إلى ترك معصيته، «فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين»[١].

ولفقه مسألة الهجر نعرض جملة من الضوابط لهذه الممارسة الشرعية، نتقلها عن الإمام ابن تيمية: «وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلَّتهم وكثرتهم؛ فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخُفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجورُ ولا غيرُه يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف؛ بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته، لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٤).

أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف»[1].

لذا لم يكن الهجر ديدناً للنبي ﷺ مع كل العصاة ، فقد ثبت وقوع العديد من أصحابه في بعض المعاصي، ومنها ما هو من الكبائر، فلم يهجرهم النبي ﷺ؛ وإن أقام عليهم الحد، ففي قصة مخلفي غزوة تبوك نرى النبي ﷺ يهجر كعباً وصاحبيه، ولكنه ﷺ لم يهجر غيرهم من المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين تخلفوا عن نفس الغزوة ، فقد «يكون التأليف لبعض الناس أنفعُ من الهجر، والهجرُ لبعض الناس أنفعُ من التأليف، ولهذا كان النبي يتألف قوماً، ويهجر آخرين، كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيراً من أكثر المؤلفة قلوبهم، لما كان أولئك سادة مطاعين في عشائرهم كانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم»[2]، فمناط هذا الحكم الشرعي وجود المصلحة منه بردع المهجور وتأديبه ؛ وإلا فلا يشرع الهجر في كل حال.

ولأجل ذلك أيضاً ، فإن المسلم العاصي أو الفاسق يهجر، بينما الكافر لا يهجر، وهو أشد جرماً منهما، «فإن لله أحكاماً فيها مصالح للعباد، وهو أعلم بشأنها، وعليهم التسليم لأمره فيها، فجنح [أي ابن بطال] إلى أنه [أي هجر المسلم العاصي دون الكافر] تعبدٌ لا يعقل معناه، وأجاب غيرُه بأن الهِجران على مرتبتين: الهِجران بالقلب، والهِجران باللسان، فهِجران الكافر بالقلب، وبترك التودد والتعاون والتناصر؛ لا سيما إذا كان حربياً، وإنما لم يُشرع هِجرانه بالكلام لعدم ارتداعه بذلك عن كفره؛ بخلاف العاصي

---

(١) المصدر السابق (٢٨/٢٠٦).

(٢) المصدر السابق (٢٨/٢٠٦).

المسلم، فإنه ينزجر بذلك غالباً»[(١)].

والهجر والإعراض المشروع له صور متعددة ، منها ترك كلام العاصي وعدم مجالسته، أو العبوس في وجهه إلى غير ذلك مما يشعر العاصي بنفور الناس من معصيته وكراهيتهم لها.

ولكن ينبغي على الهاجرين مراعاةُ آداب الهجر وأحكامه، فالهجر ليس للانتقام أو لتصفية الحسابات الشخصية، بل هو رحمةٌ بالمخطئ، طمعاً في هدايته إلى الخير، وتغيير حاله، قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر اللهُ بها ورسولُه، فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله، وأن تكون موافقة لأمره ، فتكونَ خالصة لله صواباً، فمن هجر لهوى نفسه، أو هجر هجراً غيرَ مأمورٍ به: كان خارجاً عن هذا، وما أكثرَ ما تفعلُ النفوسُ ما تهواه ظانةً أنها تفعله طاعة لله!»[(٢)].

ودعونا نتأمل تطبيق النبي ﷺ لهذه الوسيلة في قصة ينقلها لنا أنس بن مالك رضي الله عنه، فقد رأى رسول الله ﷺ قبة مشرِفة فسأل: «ما هذه؟» فقال له أصحابه: هذه لفلان ، فسكت وحملها في نفسه، حتى إذا جاء صاحبُها رسولَ الله ﷺ يسلم عليه في الناس؛ أعرض عنه، صنع ذلك مراراً حتى عرَف الرجلُ الغضبَ فيه والإعراضَ عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، فأخبروه بكراهية رسول الله لقُبَّته، فهدمها حتى سواها بالأرض ، فرآها النبي ﷺ وقد

(١) فتح الباري (١٧/ ٢٤٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٠٧).

هدمت، فقال: «أما إن كلَ بناء وبالٌ على صاحبه إلا ما لا؛ إلا ما لا»[١]، يعني ما لا بد منه.

ومن صور التأديب النبوي بالإعراض عن المخطئ قصة الثلاثةِ المخلفين بغير عذر عن غزوة تبوك، فقد أمر ﷺ أهل بيتهم والناس في المدينة بهجرهم وعدم الكلام معهم حتى ضاقت عليهم الأرض، ولنسمع إلى كعب بنِ مالك ﷺ أحدِ هؤلاء الثلاثة ، وهو يحكي لنا الخبر فيقول: «نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، فاجتنبَنا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرتْ الأرضُ في نفسي، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، وكنت آتي رسولَ الله ﷺ، فأسلمُ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقُه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إلي [أي بنظره]، وإذا التفتُ نحوَه أعرض عني» [٢].

وحين استكمل الدرسُ التربوي دورَه البالغ في ردع كعب وصاحبيه ؛ أنزل الله توبتهم، ووصف حالهم بسبب العقوبة النبوية ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (التوبة: ١١٨).

وتأسى سلف الأمة بنبيهم ﷺ من بعده، فأوصوا بهجر أهل البدع

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٥٢٣٩)، وصححه الألباني من غير طريق أبي داود في السلسلة الصحيحة ح (٢٨٣٠).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٤١٨)، ومسلم ح (٢٧٦٩).

والفسق وتعمد المخالفة لسنة النبي ﷺ، ومن ذلك ما فعله عبد الله بن مُغفَّل رضي الله عنه حين رأى رجلاً يخذِف [بالحصا]، فقال له: لا تخذِف ، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذْف، أو كان يكره الخذْف، وقال: «إنه لا يُصاد به صيد، ولا يُنكأ به عدو، ولكنها قد تُكسر السن، وتُفقأ العين»، ثم رآه ابن مغفَّل رضي الله عنه بعد ذلك يخذف، فقال له: «أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخذْف أو كره الخذْف وأنت تخذِف؟! لا أكلمك كذا وكذا»[1].

ولرب سائل يقول : قد صح عن النبي ﷺ النهي عن الهجر أكثر من ثلاث أيام في قوله: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[2]، فهل يؤقت هجر التأديب بثلاث أم يمكن استمراره ما دعت المصلحة إلى ذلك؟

يجيبنا الإمام ابن تيمية رحمه الله: « الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها كما هجر النبي ﷺ والمسلمون الثلاثةَ الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم .. والهجر لأجل حظ الإنسان لا يجوز أكثر من ثلاث كما جاء في الصحيحين»[3]، ولعل مما يدل عليه ما نقل عن النبي ﷺ بإسناد ضعفه بعض أهل العلم، وحسنه آخرون أن النبي ﷺ هجر زوجته زينب لما عَيَّرت صفية بنت حيي بقولها: «أنا أعطي تلك

(١) أخرجه البخاري ح (٥٤٧٩)، ومسلم ح (١٩٥٤).
(٢) أخرجه البخاري ح (٦٢٣٧)، ومسلم ح (٢٥٦٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٠٤-٢٠٧).

اليهودية؟»، فغضب النبي ﷺ ، وهجرها ما يقارب الثلاثة أشهر(١).

ونحوُ ذلك ما وقع من عبد الله بن عمر رضي الله عنه مع ابنه، فقد ذكر ابن عمر أنه سمع من النبي ﷺ قوله: «لا يمنعن رجل أهله أن يأتوا المساجد» فقال ابنٌ لعبد الله بن عمر: فإنا نمنعهن، فغضب ابن عمر رضي الله عنه وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول هذا. قال: فما كلمه عبد الله حتى مات(٢).

وهكذا فالهجرَ عقوبةٌ تربويةٌ مشروعة، لكن ينبغي أن نتذكر أنها تنجح في إصلاح البعض دون الآخرين، فهي وسيلة تعتمد على كمال الحب بين المعاقَب والمربي، كما هو الحال بين النبي ﷺ وصاحبه كعب بن مالك رضي الله عنه.

وأما حين نفقِد محبة الآخرين، فإنهم لن يبالوا بهجرنا، بل لربما رحبوا به، ووجدوه فرصة للتخلص من التزاماتنا الأدبية ، وحينها يصبح الهجر وسيلة خاطئة، يُفضَل اجتنابُها، ويحسُنُ تركُها.

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٦٠٤)، وأحمد ح (٢٥٠٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود ح (٩٩٩).

(٢) أخرجه أحمد ح (٤٩٣٣) بهذا الوجه، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٥٢٧/٨)، والأثر أصله في الصحيحين.

الفصل الرابع:

موضوعات الدعوة

أولويات الدعوة

يتساءل الداعية عن الموضوعات التي ينبغي أن يبادر إلى الحديث عنها مع مدعويه في المسجد أو اللقاء العائلي أو المناسبة الاجتماعية التي سيحضرها، وقد يحار في الموضوع الذي ينبغي أن يدرجه في أولويات وعظه، هل يركز على العقيدة فحسب؟ أم ينتقل للوعظ في مسائل السلوك والعبادة؟ أم يتفرغ لتعليم الناس أحكام الدين وشرائعه؟ أم يقصر نشاطه على تعليم الناس قراءة القرآن وتجويده؟

المتأمل في أحوال بعض دعاتنا يدهش لما يسمع منهم، إذ يطيب لهم أن يتحدثوا إلى مدعويهم عن موضوعات انقضت في الدهر الأول .. يحذرون من فرق انقرضت واختفت في زوايا التاريخ كالكرامية والمعطلة .. وهم يغفلون أو يتغافلون عن أخرى ترتع في كل واد وصعيد!

وأيضاً، رأينا بعضهم ينقل خطبة الجمعة من كتاب مرَّ على تأليفها سنين مديدة، من غير أن يكلف نفسه البحث في حاجات مدعويه، ولربما اقتبس من الإنترنت خطبة أو موعظة لا يحتاجها مدعووه ، أو تتعلق بمجتمعات بعيدة عنهم، فتراه يخطب في مجتمع فقير طالباً منهم الزهد في دنيا لا يملكونها!

وأيضاً رأينا أناساً من أهل الفضل ما زالوا قابعين على الوعظ والتذكير ببعض مسائل العبادات الظاهرة كالسواك واللحية وقصر الثوب ، متناسين غيرها من الشرائع المهمة، فهل يحسن بالخطيب أن يقصر حديثَه على باب من أبواب الخير، ويغفل عما هو أجدى للناس وأحوج؟

وعلى الطرف الآخر رأينا من ينتقصون الوعظ في أمثال هذه المسائل التي يسمونها قشوراً، ويرون ضرورةَ إهمالها والاهتمامَ بمسائل أخرى سموها لباباً، فصار الدين عندهم لباب وقشور! أي مهمٌ وغيرُ مهم.

والحق أن الإسلام كلٌ لا يتجزأ، والمسلم مدعو إلى الالتزام بشرائعه كلها ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨)، والآية كما صرح التابعي عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دعاء للمؤمنين إلى رَفض جميع المعاني التي ليست من حكم الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيء من حدوده»[1]، وهذا المأمور به، هو كل الإسلام، ويشمل ذلك العقيدة والعبادة والسلوك والفقه، ويتضمن أيضاً العباداتِ الباطنةَ كالتقوى والخوف والرجاء، والعباداتِ الظاهرةَ كالسواك واللحية والثوب، فهذا كله من الإسلام الذي لا نفرط بشيء من أصوله وفروعه، فليس فيه قشور ولباب، بل كله من عند ربنا، وقد تعبدنا به، وشرعه لنا لما فيه من خيرنا في الدنيا والآخرة.

ولو شئنا أن نضرب المثل في بعض هذه العبادات التي يستنكف عن التذكير بها بعض الدعاة؛ كإعفاء اللحية، وهي من العبادات الظاهرة التي أكد عليها النبي ﷺ في زهاء عشرين حديثاً، فكيف يتسنى لداعية أن يهمله ويعتبره من القشور التي يتغافل عنها في مواعظه؟

وأما إماطة الأذى عن الطريق، فعلى الرغم من كونه أدنى شعب الإيمان،

---

(١) جامع البيان (٤/٢٥٦).

فإن النبي ﷺ لم يمل من التذكير به في أحاديث كثيرة ليس هذا مقام سردها، لكن يكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق، فقد ذكر رسول الله ﷺ خبر رجل أدخله الله الجنة لإماطته الأذى عن طريق المسلمين، قال ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»(١)، أفيليق بعد هذا أن يستهين داعية في طرح هذا الموضوع الذي يُدخل صاحبه الجنة؛ بذريعة أنه ليس من أصول الدين وأركانه؟

إن الإسلام مزيج من العقائد والشرائع والقيم والعبادات التي تتكامل لتكون رسالة شاملة تصلح الظاهر والباطن؛ الدنيا والآخرة؛ الخاص والعام؛ الفرد والجماعة، ولا يمكننا تفكيك هذا الكيان وانتقاص شيء منه، فالكل حبيب إلى الله، ويقرب إليه وإلى مراضيه.

وإلا كيف لنا أن نفهم إجابة النبي ﷺ حين سئل: أي الإسلام خير؟ فأجاب ﷺ بذكر أمر قد يغفل عن قدره الكثيرون : « تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »(٢)، ولما قيل له: أي الإسلام أفضل قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٣)، فذكر أمراً لا يأبه له الكثيرون.

وإذا رفضنا تقسيم الإسلام إلى لباب وقشور؛ فإن هذا لن يعني بحال أن شرائع الإسلام على مرتبة واحدة، بل هي متفاوتة في أقدارها عند الله وفي

---

(١) أخرجه مسلم ح (١٩١٤).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٢)، ومسلم ح (٣٩).

(٣) أخرجه البخاري ح (١١)، ومسلم ح (٤٢).

شريعته، فمنها ما فِعلُه أو تركه كفر لا ينفع معه عمل، ومنها ما يستوجب فعلُه أو تركه غضبَ الرب دون الحكم بالكفر، ومنها ما يحب الرب فاعله، ولا يكره تاركه، أو العكس.

وبعبارة أخرى: الإسلام فيه ما هو ركن، وفيه أيضاً الواجب والمسنون، وبعض هذه في المرتبة دون بعض، كما قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[١]، وهكذا تنتظم شرائع الإسلام فيما بين إماطة الأذى وكلمة التوحيد، والمؤمن الكامل يوفي بهما وبما بينهما من شعب وخصال.

ولما تحدث النبي ﷺ في حديث جبريل عن الإسلام؛ ذكر أركانه الخمس، فقدمها على سائر العبادات، لأنها أركانُ الإسلام ودعائمه، لكنها ليست الإسلام كله، فالإسلام اسم جامع يشمل عقائدَ مرقومة، وعباداتٍ مشروعة، وأخلاقاً وقيماً وآداباً ، وشرائع تنظم شؤون الحياة ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام: ١٦٣).

ولما سأل معاذ النبي ﷺ: «أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني من النار؟» ، أجابه ﷺ بجواب جامع يؤكد ترابط شعائر الدين، ولا يتجاهل تفاضلها؛ قال: «قد سألتَ عن أمر عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه،

---

(١) أخرجه البخاري ح (٩)، ومسلم ح (٣٥).

تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُ البيت»، ثم قال: «ألا أدلّك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاةُ الرجل في جوف الليل ... ألا أخبرك برأس الأمر وعمودِه وذروةِ سنامه؟ .. رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذِروة سنامه الجهاد»[(١)].

وحين أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن أخبره بأولوياته في الدعوة: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمسَ صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم ، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوقَّ كرائم أموال الناس»[(٢)].

وهذا الحديث العظيم أصل في مسألتنا؛ وفيه ترتيب المسائل بدءاً من الأهم فالمهم، فالتوحيد هو الأصل الأصيل الذي لا يُقبل عمل إلا به، لذا لم يكن حسناً البدءُ بالصلاة أو الزكاة أو غيرها من الشرائع؛ إذ لو أجاب إليها المدعو من غير الإيمان بالله وتوحيده؛ لم يكن لكل هذه العبادات أدنى فائدة.

ومثله يقال حين نرى رجلاً يقصر لحيته ولا يصلي؛ فإنه ليس من

---

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٦١٦)، وابن ماجه ح (٣٩٧٣)، وأحمد ح (٢٢٠١٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري ح (٧٣٧٢)، ومسلم ح (٩).

الحكمة أن ننصحه بإعفاء اللحية، وننشغل بها عن عمود الإسلام، وكذلك لو رأينا من يسمع الموسيقى ويعاقر الخمر أو غيرها من الموبقات؛ فإن أولى ما ينبغي على الداعية إنكارُ الكبائر والتوجهُ بكلّيته إليها؛ حتى إذا أقلع أصحابها عنها؛ انتقل إلى غيرها مما هو دونها ، ونستذكر هنا قول الإمام مَعمرِ بنِ المثنى رَحِمَهُ اللَّهُ: «من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم»[١]، وقولَ غيره: «من شغله الفرض عن النّفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور»[٢].

هذا الغرور يحدثنا عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، فيرى أن الانشغال بالدون عن الأصل بعضٌ من كيد الشيطان الذي يزين للصالحين والدعاة الانشغال بالأمور المفضولة عن الفاضلة: «فأَمرَه بها، وحسنَّها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً .. فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها .. ولا يقطع هذه العقبة [أي عقبة الانشغال بالفضول عن الفاضل] إلا أهلُ البصائر والصدق من أولى العلم السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه»[٣].

ومن مراعاة أحوال المدعوين ما يختص بالمسلم الجديد، فلقد يفرح كل منا بإسلام كافر، وانتقاله من الوثنية إلى التوحيد، ومن الظلام إلى النور،

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي (٢/١٦٠).

(٢) فتح الباري ، ابن حجر (١١/٣٤٣).

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم (١/٢٢٥).

ومن زمرة أهل النار إلى طالبي الجنة .. ونستطيع أن نلحظ جموع الفرحين من المسلمين، وهي تحيط بالمسلم الجديد، وكل يريد أن يعلمه شيئاً من الإسلام، وهنا يختلط على البعض سلم الأولويات، فيمسكه بالمقلوب، فتسمع بعضهم يبادر المسلم الجديد إلى وجوب الختان، أو ضرورة طلاق المهتدية من زوجها الكافر، أو دعوة المهتدي إلى هجر والديه وأسرته ، أو ترك الخمر والتدخين ... فيُهيأ للمسلم الجديد أن تكاليف الإسلام مما لا يطاق، ولربما كان ذلك اليوم الأولَ والأخيرَ له في الإسلام، بسبب رعونة بعض المتحمسين، واختلاط الأولويات عليهم، وتسرعهم غير المحمود في البلاغ، وجهلهم بحكمة التدرج التي تشرحها لنا أم المؤمنين عائشة بقولها: «إنما نزل أول ما نزل منه [أي من القرآن] سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام؛ نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»(١).

إن التدرج في عرض الإسلام ليس إقراراً لأحكام الجاهلية، ولا هو تصالح معها، ولا استحلال لها، بل هو مراعاة لأحوال الخلق، وتدرج في الوصول إلى مراد الله، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التزايد منها، ومتى عسرت عليه أوشك

(١) أخرجه البخاري ح (٤٩٩٣).

أن لا يدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم، أو لا يستحليها»[(١)].

وقد تروَّى النبي ﷺ قريشاً لما أسلموا بعد فتح مكة، فلم يُعِد الكعبة إلى أساس إبراهيم عليه السلام، بل تركها على صفة بناء أهل الجاهلية تألفاً لقلوب مسلمة الفتح، وقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرتُ بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغتُ به أساس إبراهيم»[(٢)].

وحتى لا نقع في التنفير غير المقصود، فإننا نذكر الدعاة بالتروي والنظر في مصلحة المهتدي، واعتماد التدرُّج في البيان والتأليف، فلئن سكتنا عن شرب المهتدي الخمر بعيد إسلامه لن يعني تحليل الخمر له أو لغيره، بل يعني أنَّا سكتنا عن المعصية خشية وقوعه في الردة التي هي معصية أشد من شرب الخمر وأنكى.

قال ابن تيمية رحمه الله: «الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمرَ بجميع الدين ويذكرَ له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعَه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفى

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٤١).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٥٨٦)، ومسلم ح (١٣٣٣).

الرسول عما عفى عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع ، ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء؛ وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي؛ وإن كان واجباً في الأصل»[١].

ونستذكر هنا قصة تشهد لمفتيها بالفقه والكياسة، ويحسن بنا تدبرها، فقد ذكر الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ أن سلطان التتار غازان بن آرغون - حفيدَ جنكيز خان – أسلم سنة ٦٩٤هـ، وأسلم لإسلامه من التتار خلق كثير، ثم قيل له: إن دين الإسلام يحرم نكاح زوجات الآباء، وهو كان قد تزوج بلغان خاتون زوجة أبيه، فهمَّ أن يرتد عن الإسلام؛ لولا أن بعض خواصه أفتاه بجواز زواجه منها، بدعوى أنها لم تكن تحت أبيه الكافر بعقد صحيح.

وعقب الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ بالقول: «ولولا ذلك لارتد عن الإسلام، واستُحسن ذلك من الذي أفتاه به لهذه المصلحة، بل هو حسن، ولو كان تحته ألف امرأة على سفاح، فإن مثل هذا السلطان - المتولي على أكثر بلاد الإسلام -في إسلامه من المصلحة ما يسوِّغ ما هو أكبر من ذلك، حيث يؤدي التحريج عليه والمشي معه على أمر الحق إلى رِدَّته، فرحم الله ذلك المفتي»[٢] لما دفع بحكمته من بلاء عن المسلمين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٦٠).

(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني (٢/٣).

وهكذا فإن الداعية مطالب بعرض الإسلام كله، وأن يقدم الأهم على المهم، والأصل على الفرع، والعاجل على الآجل.

حدثوا الناس بما يفهمون

يتجه الداعية إلى مدعويه بالوعظ والإرشاد، وهم متفاوتون في قدراتهم على الاستيعاب والفهم، فمنهم الذكي اللماح الذي يدرك المراد بالإشارة، ومنهم الذي يحتاج للتفسير والشرح، ومنهم البليد الذي قد يفهم الكلام على عكس مراد قائله، فكيف يتحدث الداعية مع هذا النوع الأخير من الناس؟

بداية نقول: إن الداعية الحصيف والموجه البارع يقرأ أحوال مستمعيه ، ويجول بثاقب نظره في أفكارهم، ليتعرف على قدراتهم، فيكلمهم على قدرها، ويجنبهم من الكلام ما لا يفهمونه، أو ما يوردهم موارد الزلل؛ فإذا ما اتفق خطابه في محفل يجمع الذكي والبليد أو في قناة فضائية يشاهدها القاصي والداني؛ فإنه - أي الداعية - يدرك أن الموقف يستدعي أن يحترز فيه عن كل ما قد يساء فهمه، أو يشكل معناه على بعض مستمعيه.

وهذا الأدب نتعلمه من النبي ﷺ ، فقد قال يوماً لفقيه الصحابة معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه؛ إلا حرمه الله على النار».

فسُرَّ معاذ رضي الله عنه بما سمع من خبر يطرب له قلب كل مؤمن، وأراد أن ينقل هذه البشارة إلى سائر الصحابة، ولم يفطن إلى أنهم ليسوا مثله في العقل والحكمة، فقال: «يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا»، فمنعه النبي

ﷺ عن ذلك، وبرر ذلك بقوله: «إذاً يتكلوا»[١].

فأسرَّ معاذ هذا الحديث في نفسه، ولم يخبر الناس به إلا عند موته حذراً من أن يضيع هذا العلم بموته، فيأثم بكتمانه.

قال الإمام ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «منعه من التبشير العام خوفاً من أن يسمع ذلك من لا خبرة له ولا علم، فيغتر ويتكل، وأخبر به ﷺ على الخصوص من أَمِن عليه الاغترارَ والاتكال من أهل المعرفة، فإنه أخبر به معاذاً، فسلك معاذ هذا المسلك، فأخبر به مِنَ الخاصة مَن رآه أهلاً لذلك»[٢].

ويروي الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحواً من هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، فقد دخل عليه الصنابحي، وهو على فراش الموت، فقال له عبادة: والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه، إلا حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم، وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار»[٣]، وفي كتمان عبادة رضي الله عنه لهذا الحديث «دليل على كتم ما خشي الضرر فيه والفتنة مما لا يحتمله عقل كل واحد، وذلك فيما ليس تحته عمل، ولا فيه حد من حدود الشريعة، ومثل هذا عن الصحابة رضي الله عنهم كثير في ترك الحديث بما ليس تحته عمل، ولا تدعو إليه ضرورة ، أو لا تحمله

---

(١) أخرجه البخاري ح (١٢٨)، ومسلم ح (٣٢).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٤١).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٩).

عقول العامة ، أو خُشيت مضرته على قائله أو سامعه، لا سيما ما يتعلق بأخبار المنافقين والإمارة، وتعيين قوم وصفوا بأوصاف غير مستحسنة، وذمِ آخرين ولعنِهم»[١].

واستنتج المهلب من هذا الحديث : «أنه يجب أن يُخَص بالعلم قومٌ لما فيهم من الضبط وصحة الفهم ، ولا يُبذل المعنى اللطيف لمن لا يستأهله من الطلبة ومن يُخاف عليه الترخص والاتكال لقصير فهمه»[٢].

ولدقيق فقه الصحابة رضوان الله عليهم لهذا المبدأ الدعوي المهم، فقد تطابقت أقوالهم في تحذير طلاب العلم والموجهين من إلقاء الكلام على العامة دون النظر في عواقبه عليهم، لذا لما سئل ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات﴾، قال لسائله: ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت؟ وكفرُك تكذيبُك بها[٣]، فقد فطن رضي الله عنه إلى غرابة جوابه عند السائل، فلم يجبه رحمة به، ودرءاً للفتنة المتوقعة منه.

ومن الفتنة التي يحذرها ابن عباس رضي الله عنه على الداعية أن السامعين العوام قد يكفرونه إذا حدثهم بما لا تحتمله عقولهم، وهذا من أعظم أبواب الشر، قال ابن عباس: «ليحذر الخوض في الأصول، فإنهم [أي العوام] لا يفهمون ذلك ، لكنه يوجب الفتن ، وربما كفَّروه مع كونهم جهلة»[٤].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٩/١)، وقد نقله عن القاضي عياض.

(٢) شرح ابن بطال (٢٠٦/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٩)، وانظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤/ ١٥٧ - ١٥٨).

(٤) الآداب الشرعية (٨٧/٢).

وأما علي رضي الله عنه فقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون ؛ أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟!»، وقد استنتج منه الإمام ابن تيمية رحمه الله أن بعض المسائل الخبرية: «قد تكون معرفتها مضرة لبعض الناس، فلا يجوز تعريفه بها .. فإذا كان العلم بهذه المسائل قد يكون نافعاً، وقد يكون ضاراً لبعض الناس؛ تبين لك أن القول قد ينكر في حال دون حال، ومع شخص دون شخص»[(١)].

ولهذا المعنى شاهد ، ولكنه من حديث ضعيف، لا نذكره إلا على جهة الاستئناس، وفيه: « إذا حدثتم الناس عن ربهم، فلا تحدثوهم بما يفزعهم ويشق عليهم»[(٢)].

وأما الإمام ابن الجوزي رحمه الله فاعتبر أن : «من المخاطرات تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده»، وضرب له مثالاً بتشبيه بعض العوام الله بخلقه، فيعتقدون باطلاً أن استواءه على العرش يقتضي الملاصقة والتناسب ، وذكر أن هؤلاء العوام لا يفهمون التنزيه «لغلبة الحس عليه، والحس على العوام أغلب... لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجهل منه.

فالمخاطِب لهذا مخاطر بنفسه.. فاللهَ اللهَ أن تحدث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله دون احتيال وتلطف، فإنه لا يزول ما في نفسه، ويخاطر

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٩/٦) ، وانظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١٥٧/٤ – ١٥٨)، وأثر علي رضي الله عنه أخرجه البخاري ح (١٢٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ح (٨١٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير ح (٤٦٢).

المحدِّث له بنفسه، فكذلك كل ما يتعلق بالأصول»[١].

وقد سمى ابن مسعود ﷺ تعليم أمثال هذه المسائل العويصة لغير أهلها (فتنة)، فقال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[٢]، وذلك لما يستتبعه من تكذيب العامة لخبر الله عز وجل أو نبيه ﷺ إذا سمعوا ما لم تحط به عقولهم من دقيق العلم ، فينكرونه لما فيه من معنى غريب عن أذهانهم، فيعتقدون بطلانه، ويبادرون إلى تكذيبه، فيقعون في الكفر أجارنا الله من الفتنة.

قال الشاطبي رحمه الله: «التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه، فإنه من باب وضع الحكمة في غير موضعها، فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها، وهو الغالب، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق، والعمل بالباطل، وإما أن لا يفهم منها شيئاً ، وهو أسلم، ولكن المتحدِث لم يعطِ الحكمة حقَّها من الصون، بل صار في التحدث بها كالعابث بنعمة الله»[٣].

قال الشافعي رحمه الله:

أأنثر درّاً بين سارحة النَّعم
وأنظم منثوراً لراعية الغَنم

---

(١) صيد الخاطر ، ص (٤٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١١/١).

(٣) الاعتصام (٣١٥/١).

فمن مَنَحَ الجُهَّال علماً أضاعه

ومن منع المستوجبين فقد ظلم [١]

وإخفاء هذا القدر من العلم ليس من كتمان العلم المحرم؛ الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة: ١٥٩)، فالآية تتوعد على كتم العلم الذي هو بينات وهدى، فهذا القدر لا يجوز كتمانه لما فيه من النفع للناس، كآي القرآن الكريم، وأحكام الدين، ولكن من العلم ما هو غير بيِّن ولا واضح، ولا يحتاجه الناس في دينهم ولا دنياهم، فلا يدخل كتمانه عن العوام في ذم الآية الكريمة، وهذا ما فهمه الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ من الآية ، فقال: «دل على أن ما كان من غير ذلك [البينات والهدى] جائز كتمه»، واستدل له بكتمان أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لبعض العلم «مما يتعلق بأمر الفتن والنصِّ على أعيان المرتدين والمنافقين ونحو ذلك، فهذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى»[٢].

وخبر أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي أشار إليه القرطبي نموذج عجيب في كتم بعض العلم عن غير أهله حذراً من سوء التفسير والتأويل، فقد قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «حفظت من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته [أي بين الناس]، وأما الآخر فلو بثثته؛ قطع هذا البلعوم»[٣]، وأشار إلى نفسه، يعني أنه يخاف

---

(١) ديوان الشافعي، ص (٩٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨١/٢).

(٣) أخرجه البخاري ح (١٢٠).

القتل بسبب ما في هذا العلم من أخبار الفتن، كخبر قتل عثمان ﷺ ورمي الكعبة بالمنجنيق على يد الحجاج، قال ابن عمر ﷺ: لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم، وتهدمون البيت وغيرَ ذلك؛ لقلتم: كذب أبو هريرة، «فكان أبو هريرة ﷺ يمتنع من التحديث بأحاديث هذه الفتن قبل وقوعها، لأن ذلك مما لا يحتمله رؤوس الناس وعوامهم»[١]، وكان يقول: «رُبَّ كِيسٍ عند أبي هريرة لم يفتحه»[٢]، ويقول: «لو حدثتكم كل ما في كيسي لرميتموني بالبعر»[٣]، وفي مقابله فقد أذاع ﷺ من علومه وكنوزه ما يحتاجه المسلمون في عبادتهم لربهم في أحاديث بلغت الألوف.

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا [الخبر] دال على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك فتنة في الأصول، أو الفروع؛ أو المدح والذم ؛ أما حديثٌ يتعلق بحل أو حرام، فلا يحل كتمانه بوجه»[٤].

وهذا الوصف الضابط لما يجوز كتمه أكد عليه الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحَّت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول ، فإن قبلَتها فلك أن تتكلم فيها إما على العموم، إنْ كانت مما تقبَلها العقول على العموم، وإما على الخصوص، إنْ

(١) أخرجه أبو بكر ابن أبي خثيمة في التاريخ الكبير ح (١٥٧٨).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٥٦).

(٣) أخرجه أبو بكر ابن أبي خثيمة في التاريخ الكبير ح (١٥٧٥)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/٤٨٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٥٩٨).

كانت غير لائقة بالعموم ، وإنْ لم يكن لمسألتك هذا المساغ ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية»[١].

وقد نقل الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صوراً ذكرها العلماء لمسائل من دقيق العلم التي يحسن حجبها عن بعض العوام، فقال: «المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة .. وممن كره التحديث ببعض دون بعض: أحمدُ في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالكُ في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومِن قبلهم أبو هريرة .. في [حديث] الجرابين .. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين ، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذ بظاهره؛ مطلوب»[٢].

وفي موسم الحج زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقف رجل بين الناس فقال: لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً. فلما بلغ ذلك عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لأصحابه: لأقومَن العشية، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم.

فاعترضه عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ناصحاً بالقول: «يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاعَ الناس وغوغاءهم .. وأنا أخشى أن تقوم، فتقول مقالة يطيِّرها عنك كلُ مُطيِّر، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على

(١) الموافقات (٤/ ١٩١).

(٢) فتح الباري (١/٢٢٥).

مواضعها، فأمهل حتى تقْدُم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلتَ متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها»[١]، فامتثل عمر لنصحه، رضي الله عنهما وأرضاهما.

ومِن كتمِ العلم المندوب إليه ما صنعه منصور بن عبد الرحمن الأشل البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد روى بسنده عن النبي أنه قال: «أيما عبد أبَق من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم»، لكنه كتمه في البصرة وقال: «قد والله روي عن النبي ﷺ ، ولكنني أكره أن يروي عني ها هنا بالبصرة»، أي لما فيها من المعتزلة والخوارج، فيتعلقون بظاهر الحديث في قولهم بتكفير أرباب الكبائر[٢] ، لأن ظاهر الحديث يقول بكفر العبد الآبق، وهو ليس على ظاهره كما هو مقرر في قواعد أهل السنة والجماعة.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره ، وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم، فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص»[٣].

وذكر ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آدابه أمثلة من سامق خبرته لما يوقع العوام في الفتنة بسبب جهلهم، وعدم مراعاة الواعظ لذلك، منها أن واعظاً ذكر عند عوام

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٨٣٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/٥٧).

(٣) الموافقات (٥/١٦٧).

أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه شرب الخمر حين كانت مباحة، فهجروه وسبوه.

وذكر آخر أن علياً أول من أسلم من الصبيان، فغضب العوام بين يديه ، لأنهم كرهوا أن يقال بأنه رضي الله عنه لم يخلق مسلماً.

ولما سئل واعظ : هل يسمع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة من يصلي عليه في ليلة الجمعة؟ قال: ليس هذا بصحيح. فضجوا بلعنته.

ثم قال ابن مفلح رحمه الله: «ولا ينبغي للواعظ أن يتعرض لغير الوعظ، فإنه يعادَى، وما يتغير ذو عقيدة، واعلم أن أغراض العوام لا يقدر العلماء على تغييرها .. فالحذر الحذر من مخاطبة من لا يفهم بما لا يَحتمل»(١).

ولأجل هذه المعاني النفيسة بوَّب البخاري رحمه الله باباً عنوانه: «باب من ترك بعض الأخبار مخافة أن يقصُر فهمُ بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه»، وعقد باباً آخر بعنوان: «باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألاّ يفهموا».

وأخيراً، فإن كثيراً الحضرمي رحمه الله ينصح العالِم بقوله: «إن عليك في علمك حقاً، كما أن عليك في مالك حقاً، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهَّل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك»(٢).

(١) الآداب الشرعية ، ابن مفلح (٢/١٦٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (١/٤٥٤).

السؤال المحمود والسؤال المذموم

الداعية مشعل هداية، يحمل الخير للناس، فيبذل لهم ما يفيدهم في دنياهم أو أخراهم، رائده قول النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، أي ما لا فائدة منه للعباد في العاجل والآجل، فشأن الداعية يختلف عن أقوام يهمهم الإثارة أو يسعون للشهرة، فلا يبالون في سبيلهما بمصلحة عامة أو خاصة ، فأولئك يطيرون خلف كل ناعق، ويحتفون بكل خبر مثير أو علم غريب ، فتطير به ركبانهم؛ ولو حمل الضرر البالغ.

حديث «من حسن إسلام المرء» استشهد به الإمام ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن كراهية تعلم العلوم الضارة وغير المفيدة ، فقال: «الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا ، أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا ... وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر؛ فلا أقل من تركه قربةً إلى الله ، فإن (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)»[1]، لذا يُعرِض الداعية عن كثير من المسائل لكونها مما لا حاجة للمسلمين به، فيطوي صفحتها، ويتجاوزها إلى ما يحتاجه الناس في حياتهم من المسائل والعلوم، كقضايا الحرام والحلال، فهذا أمر واجب على العبد السؤال عنه، وواجب على العلماء والدعاة إجابتهم، فالسؤال هنا طريقة من طرائق تحصيل المعرفة ورفع الجهل عن النفس، وهو أمر محمود لا يجوز التقصير فيه، بل دعا النبي ﷺ على من توانى فيه ، كما في قصة الرجل الذي احتلم بعدما أصابه جرح، فأمره بعض أصحابه بالاغتسال، فمات، فبلغ ذلك رسول

(١) مقدمة ابن خلدون (٢/١٩٩ – ٢٠٠).

الله ﷺ فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ [الجهل] السؤال»(١)، فالسؤال لتعلم الحلال والحرام ومعرفةِ أحكام الله من أوجب ما ينبغي على المسلم تعلمُه، ليصلح له أمر دينه ودنياه ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (النحل : ٤٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من سأل مستفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه؛ فلا بأس به، فشفاء العي السؤال، ومن سأل مُعنِّتاً غير متفقه ولا متعلم؛ فهذا لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره»(٢)، هذا القول من ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى أن من الأسئلة ما هو مذموم ومنهي عنه، وهو مقصود ﷺ بقوله: «إن الله كره لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»(٣)، أي بأنواع الأسئلة غير المفيدة، ومنها:

أولا: السؤال في العلم الذي لا ينبتي عليه عمل:

كره العلماء الخوض في المسائل التي لا طائل تحتها، ولا عمل يتعلق بها، لما فيه من إضاعة الأوقات ، وقادهم إليه استقراؤهم لنصوص الوحيين، وتوصلوا إلى قاعدة يلخصها الإمام أبو إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي. الدليل على ذلك: استقراء الشريعة، فإنّا رأينا الشارع

(١) أخرجه أبو داود ح (٣٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.
(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١/٢٩٢).
(٣) أخرجه البخاري ح (١٤٧٧)، ومسلم ح (٥٩٣).

يعرض عمّا لا يفيد عملاً مكلفاً به»[١].

ونقل ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ نحو هذا المعنى عن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ اللَّهُ ، قال: «أدركتُ أهل هذا البلد - يعني المدينة - وهم يكرهون المناظرة والجدال إلا فيما تحته عمل»[٢].

وكان القرآن الكريم قد سبق وأرشد إلى الإعراض عن المسائل التي لا ينبني عليها عمل ، وذلك في مسألة الأهلة حين كانت اليهود تغشى مجالس المسلمين، ويسألونهم عن الأهلة: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (البقرة: ١٨٩)، وفيها إعراض عن جواب سؤال اليهود، وتنبيه المؤمنين إلى ما هو أهم من جواب سؤالهم.

ومثل هذا الإعراض عما لا يضر جهله منهج قرآني نجده كثيراً في آيات القرآن الكريم التي تعرض عن التفاصيل التي لا تزيد إيمان المؤمن، فما الذي يفيد في إيماننا لو عرفنا اسم الأخ الكبير ليوسف الذي ذكره الله بقوله: ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ (يوسف: ٦٦)، وماذا يضيرنا لو جهلنا اسم صاحب القرية الذي نصح إخوته ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ (القلم: ٢٨)، فمثل هذه التفاصيل يعلمنا القرآن الإعراض عنها وعدم الغرق في تفاصيلها التي لا تقدم لنا ترسيخ إيمان أو مزيد يقين.

---

(١) الموافقات (٤٣/١).

(٢) التمهيد (٢٣١/١٩).

ولما تحدث الله عن عدد أصحاب الكهف ، وذكر اختلاف الناس فيهم: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ (الكهف: ٢٢).

ثم أرشد القرآن إلى ما هو أهم من معرفة عددهم، فقال آمراً نبيه ﷺ: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ (الكهف: ٢٢)، فعددُ أصحاب الكهف علم لا طائلَ من معرفته، ولا ضررَ من جهله، وقد قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبع ، وقلب لا يخشع ، ودعوة لا يستجاب لها»(١).

ووفق هذا الهدي نجد النبي ﷺ يرشدنا إلى الإعراض عن العلم الذي لا عمل تحته في مواقف عديدة ، منها أن جمعاً من الصحابة رضي الله عنهم جلسوا مجلساً تنازعوا فيه في القَدَر، وهل الإنسان مسير أم مخير وأمثال ذلك من المسائل، فجعل هذا يستشهد بآية، والآخر يرد عليه بآية أخرى.. هم يختلفون في مسألة دينية، لكنها مسألة لا ينبني عليها عمل دنيوي ولا أخروي، فماذا صنع النبي ﷺ؟

يقول أبو سعيد الخدري ﷺ: فخرج علينا رسول الله ﷺ كأنما تفقأ في وجهه حب الرمان [أي احمر وجهه من الغضب]، فقال: «يا هؤلاء أبهذا بعثتم؟ أم بهذا أمرتم؟ لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم ح (٢٧٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (٥٣٠٤)، ونحوه في مسند أحمد ح (٦٦٠٨) ، وصححه الألباني في تخريجه للمسند (١١/٢٥٠).

ونلحظ في موقف النبي ﷺ غضبَه الشديد لهذا الجدال بين الصحابة، كما نلحظ إعراضه عن تبيان الحق في المسألة التي اختلف فيها الصحابة .. لأنهم لم يؤمروا بمثل هذا «يا هؤلاء أبهذا بعثتم؟ أم بهذا أمرتم؟».

وذات يوم سأل أعرابي النبيَ ﷺ عن الساعة فقال: «متى الساعة؟»، وهو سؤال لا يفيد جوابُه السائلَ ولا المستمعين، فسواءٌ كانت الساعة بعد ألف سنة أو ألفين أو عشرة، ما الذي يفيد السائل معرفته بموعدها؟

لذلك امتنع النبي ﷺ عن جواب سؤاله، وبادره بتوجيهه إلى ما هو خير له في دينه، فقال: «وماذا أعددت لها؟»[١].

وفي رواية أن النبي ﷺ غضب من سؤال الأعرابي، يقول أنس: «فبسر [أي عبس] رسول الله ﷺ في وجهه. فقلنا له: اقعد فإنك سألت رسول الله ﷺ ما يكره، ثم قام الأعرابي ثانية فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فبسر رسول الله ﷺ في وجهه أشدَ من الأولى»[٢].

ومن بعده ﷺ، كره الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ سؤال رجل جاءه يسأله عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥)، كيف استوى؟ فقال مالك: «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً»، وأمر به فطُرد من

(١) أخرجه البخاري ح (٣٦٨٨).

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ح (٥٨٤٢)، وأحمد ح (١٢٧٠٣)، وجوّد إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢٠/١٢٨).

مجلسه[١]، لأنه رآه يتتبع المتشابه، ويسأل عنه، والله يقول: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب وأخر متشابهاتٌ فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ (آل عمران: ٧).

ثانياً : السؤال على وجه التعنت لا التعلم

أحياناً ترِد على الداعية أسئلة ظاهرها أنها ليست في طلب علم غائب، بل هي نوع من اللجاج والتفقه والتفصح، والتعنت والتشديد أحياناً، كما حكى الله في القرآن الكريم خبر بني إسرائيل في قصة البقرة التي أمرهم بذبحها، فلو بادروا إلى ذبح أي بقرة لوفوا بأمر الله على التمام، لكنهم تلكؤوا، وشددوا على أنفسهم، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ (البقرة: ٦٨) ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ (البقرة: ٦٩) ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ (البقرة: ٧٠)، فكان فعلهم مذموماً، وفيه التعنت والتعسير على النفس، والله يريد بعباده اليسر؛ لا العسر.

وقد نهى القرآن الكريم عن الاستغراق في المسائل التي ظاهرها التعنت، أو السؤال لمجرد السؤال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ (المائدة: ١٠١)، وقد ورد في سبب نزول الآية أن النبي ﷺ قال لهم: «لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به»، فسأله الصحابة رضي الله

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٣٩٨).

عنهم عن مسائل لا فائدة منها ، كسؤال بعضهم النبي عن ناقته الضائعة، وسؤال آخر: من أبي؟ فنزلت الآية[١].

كما ذكر العلماء سبباً آخر في نزولها، فحين نزل قول الله: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧) قال ﷺ: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحُجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال ﷺ: «لو قلتُ: نعم. لوجبت، ولما استطعتم».

ولنا أن نتخيل المشقة التي ستتعرض لها لو أوجب الله على المسلمين الحج في كل سنة بسبب سؤال متعنت لا يطلب علماً، وقد قال ﷺ: «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»[٢].

لذلك عقّب رسول الله ﷺ على السائل في موضوع الحج بقوله: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[٣].

ومن هذه الأسئلة التي كره الله اشتغالنا بها؛ تلك المتعلقة بالافتراضات لما لم يحصل بعد في حياة الناس، فيقول أحدهم: أرأيت لو حصل كذا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٢٨)، ومسلم ح (٢٣٥٩).
(٢) أخرجه البخاري ح (٧٢٨٩)، ومسلم ح (٢٣٥٨).
(٣) أخرجه مسلم ح (١٣٣٧).

وكذا؟ ما هو الحكم الشرعي؟ يسأل عن أمر من تأليف خياله وبنات أفكاره.

وجوابه عند العلامة ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول: «وكان زيد بن ثابت وأُبي بن كعب وجماعة من السلف يكرهون السؤال في العلم عما لم ينزل، ويقولون: إذا نزلت النازلة وُفِّقَ المسؤول عنها ، ويرون الكلام فيما لم ينزل من التكلف ... [و] أن الذي أمر الله عباده بالسؤال عنه هو ما ثبت وتقرر وجوبه، مما يجب عليهم العمل به ، والذي جاء فيه النهي هو ما لم يتعبد الله عباده به ، ولم يذكره في كتابه»[١].

لذا وقف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المنبر فقال: أُحرّج بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن، فإن الله قد بين ما هو كائن[٢].

وأما زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان إذا سأله إنسان عن شيء قال: آلله أكان هذا؟ فإن قال: نعم، نظر، وإلا لم يتكلم[٣].

والواجب على الدعاة والمفتين الإعراض عن جواب أمثال هذه السؤالات الباردة ، وتوجيه سائليهم ومدعويهم إلى ما يفيدهم في صلاح الحال والمآل، كما صنع الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ مع أبي جعفر القطيعي لما جاء يسأله: «عن الوضوء بماء النورة؟ فقال أحمد: ما أحب ذلك، قلتُ [أي القطيعي]: أتوضأ بماء الباقلاء؟ قال: ما أحب ذلك، قلتُ: أتوضأ بماء الورد؟ قال: ما أحب ذلك، قال: فقمتُ، فتعلق في ثوبي، ثم قال: إيش تقول إذا

(١) شرح ابن بطال (١٠/٣٤٠).

(٢) أخرجه الدارمي ح (١٢٤).

(٣) أخرجه الدارمي ح (١٢٢).

دخلت المسجد؟ فسكتُ، قال: وإيش تقول إذا خرجتَ من المسجد؟ فسكتُ، قال: اذهب فتعلم هذا»[١].

ولما جاءه رجل يسأله عن يأجوج ومأجوج، أمسلمون هم؟ أجابه: أحْكمتَ العلم حتى تسأل عن ذا؟»[٢].

ثالثاً: السؤال عن الأغلوطات والمتشابهات

ومن أنواع السؤال المكروه والعلم المذموم؛ المسائل التي سماها النبي ﷺ (الغُلوطات) أو (الأُغلوطات)، فعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ «نهى عن الغُلوطات»[٣]، ومعناه كما شرحه الخطابي رحمه الله: «أن يُعترض العلماءُ بصعاب المسائل التي يكثر فيها الغلط ليُستزلوا بها، ويُستسقط رأيهم فيها، وفيه كراهية التعمق والتكلف فيما لا حاجة للإنسان إليه من المسألة، ووجوبُ التوقف عما لا علم للمسؤول به»[٤].

قال الأوزاعي رحمه الله: «إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط»، وقال الحسن رحمه الله: «إن شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل يعنتون بها عباد الله»[٥].

---

(١) طبقات الحنابلة، لأبي يعلى (٤١/١).

(٢) الآداب الشرعية ، ابن مفلح (٧٠/٢).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٣٦٥٦)، وأحمد ح (٢٣٦٨٨)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

(٤) معالم السنن (١٨٣/٤).

(٥) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي (٢٩٥/٢).

وعلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهر بالكوفة رجل مولع بالحديث عن متشابه القرآن ومسائلَ من التكلف لا يضر الجهل بها، ويدعى صَبيغ بن عسل ، فبعث إليه عمر رضي الله عنه، وقال له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ. فقال عمر رضي الله عنه: وأنا عبد الله عمر.

ثم قام إليه فضربه ، فما زال يضربه حتى قال صَبيغ: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي(١)، فكان ضربُ عمر له تأديباً منه على استغراقه فيما لا يضر جهلُه، وخشية عليه من الفتنة، وهو يضيع الأوقات فيما لا طائل منه.

ومن مسائل العنت التي يكره على الداعية الخوض فيها ما سماه النبي صلى الله عليه وسلم بالتنطع بقوله: «هلك المتنطعون»(٢)، وقد فسره العلماء ببعض مظاهره وصوره، ومنها الخوض فيما لا تبلغه العقول من عويص المسائل الغيبية التي لا تدرك بالعقل، أو المبالغة في العبادة بما يخرج بها عن الاعتدال، أو الإغراق في المسائل التي يندر وقوعها ، أو التشديد في موضع التيسير.

وقد أجمل ابن حجر رحمه الله معنى التنطع بقوله: «تضييع الزمان بما لا طائل تحته، ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع، وهي نادرة الوقوع جداً، فيصرف فيها زماناً كان صرفُه في غيرها أولى .. وأشد من ذلك في كثرة السؤال والبحث عن أمور مغيبة وردَ الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه ح (١٤٤).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٦٧٠).

الحس، كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح، وعن مدة هذه الأمة، إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصِّرف، والكثير منه لم يثبت فيه شيء، فيجب الإيمان به من غير بحث، وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة »(١).

وقد وقع مثل هذا في عهد الصحابة فأنكروه، ومنه إنكار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين خرج في ركب من أصحابه، فورَدُوا حَوضاً ، فقال بعض أصحابه : يا صاحب الحوض ، هل ترد حوضَك السباع؟ [يريد بسؤاله الاستيثاق لطهورية الماء] فقال الفقيه عمر بن الخطاب: «يا صاحب الحوض ، لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع ، ترد علينا».

وزاد في رواية: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لها ما أخذت في بطونها ، وما بقي فهو لنا طهور وشراب»(٢).

ولما سألت امرأةٌ عائشةَ رضي الله عنها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت أم المؤمنين : «أحرورية أنتِ؟ [أي: هل أنت من الخوارج؟].. كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(٣).

هذا، وقد وفق الله أصحاب النبي ﷺ لتجنب أنواع المسائل التي لا نفع فيها، يقول ابن عباس ﷺ: «ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله

---

(١) فتح الباري (١٣/٢٦٧).

(٢) أخرجه مالك في موطئه ح (٤٥).

(٣) أخرجه البخاري ح (٣٢١)، ومسلم ح (٣٣٥)، واللفظ له.

ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهنَّ في القرآن: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ (البقرة: ٢١٧)، ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ (البقرة: ٢١٩)، ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ (البقرة: ٢٢٠)، ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم»[1]، وعلى مثل هذا الهدي ينبغي أن تكون أسئلتنا وإجاباتنا لمن سألنا من عوام المسلمين.

إنا إذا تبصرنا بالكثير مما يفرق صفوفنا ويؤجج الخلافات بين مثقفينا وطلاب العلم بيننا؛ ألفينا اختلافهم في مسائل من أنواع ما ذكرنا، جُلها أمور نظرية فكرية لا ينبني عليها عمل في حياتنا الشخصية والاجتماعية والدينية والدعوية، فما زلنا نختلف في سبيل إيجاد الخلافة الإسلامية، وأحدنا لا يستطيع إقامة الإسلام في بيته.

إن إعراضنا عن هذا الهدي النبوي سبب في كثير من الفتن التي تقع بين المسلمين، وقد نبه على ذلك الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج من الصراط المستقيم ، ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب حتى تفرقوا شيعاً ، وإذا فعلوا ذلك خرجوا عن السنة ، ولم يكن أصل التفرق إلا بهذا السبب ؛ حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني، وخرجوا إلى ما لا يعني ، فذلك فتنة على المتعلم والعالم»[2].

---

(١) أخرجه الدارمي ح (١٢٥).

(٢) الموافقات (١/ ٥١).

الفصل الخامس:

النبي الداعية

تحدثنا عن الداعية الناجح المؤثر في جمهوره، ويتواصل كلامنا عن الأنموذج الأكمل والأمثل في الدعوة .. من كمَّله ربه وجمَّله .. فكان أكثر الأنبياء تابعاً .. وأعظم البشرية أثراً .. أصلح الله به معاش الناس ومآلهم .. وماتزال كلماته الرائعة تدوي عبر القرون .. وينبعث منها نور يستضيء به كل من أراد الله هدايته ودلالته على الخير والفلاح، إنه محمد ﷺ.

ولقد يتساءل المرء: كيف أثَّر النبي ﷺ في أصحابه حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس؟ وكيف كان يدعوهم ويربيهم؟ هل كان يخطب فيهم الخطب الطوال؟ وماذا كان يقول في خطبته؟ وكيف عالج قضاياهم الدعوية؟ وكيف لنا أن نهتدي بهديه ونسلك سبيل البصيرة التي يسير عليها تابعوه ﷺ إلى يوم القيامة؟ ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (يوسف: ١٠٨).

في الإجابة عن هذه الأسئلة نستطيع أن نلحظ معالم مهمة في مسيرته الدعوية ﷺ:

أولاً : الدعوة بالحُب

تزداد حاجة الداعية يوماً بعد يوم إلى تمزيق الحجب التي تحول بينه وبين الناس ، وأن يكون قريباً من نفوسهم، فلا يكلمهم من علو ، ولا يطل عليهم من برج عاجي، بل ينفذ إلى شغاف قلوبهم قبل أن يلامس كلامه أسماعهم، تأسياً بالنبي الداعية ﷺ، فقد كان يكتنز في قلبه حباً لمدعويه ليس له حدود، وهذا الحب الدفاق منحه مزية عظيمة في التأثير على أصحابه؛ فأفلح وأنجح في استمالتهم إلى الهدى والنور الذي جاء به، فلقد كان يخيل لكل واحد منهم أنه الأثير عنده، والمقدم على سائر أصحابه .. سرى بينهم جميعاً هذا الشعور، يقول علي رضي الله عنه: «كان ﷺ يُعطي كل جُلسائِه بنصيبه ، لا يحسَب جليسُه أنَّ أحداً أكرمُ عليه منه»[1]، فهل تراك أخي الداعية تملك قلوب مستمعيك جميعاً؟ أم أنك تهيم في واد ، وهم في واد آخر؟

سندهش حين ننظر في هذا الموقف العجيب في حياة النبي ﷺ، لسوف يزداد عجبنا إذا عرفنا أنه وقع لواحد من دهاة العرب وسادتهم؛ عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقد جلس إلى رسول الله ﷺ بُعيد إسلامه، فكان ﷺ يقبل عليه بوجهه وحديثه، ويهتم به، يقول عمرو: «حتى ظننت أني خير القوم» أي الصحابة، لما يرى من إقبال النبي ﷺ عليه.

وأراد عمرو رضي الله عنه أن يستوثق مما توصل إليه من حدس، فسأل النبي ﷺ: يا رسول الله، أنا خير أو أبو بكر؟ فقال ﷺ: «أبو بكر»، فدار في خَلَد عمرو أنه ربما يكون الثانيَ بعده، فسأله: يا رسول الله، أنا خير أو عمر؟ فأجابه ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية ح (٣٣٧)، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل ح (٦).

«عمر»، فردد عمرو في نفسه أن ربما يكون الثالثَ بعد الصاحبَين، فقال: يا رسول الله، أنا خير أو عثمان؟ قال: «عثمان».

حينها فقط أدرك عمرو أن الاهتمام الذي حظي به من النبي ﷺ لم يكن لخيريته وتقدمه على الصحابة، بل كان تلطفاً من النبي ﷺ بهذا المسلم الجديد، وحسنَ مراعاة لخاطره، وتألفاً لقلبه، فكان ؓ بعدها يقول: «كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشرِّ القوم، يتألفهم بذلك، فكان يقبل بوجهه وحديثه عليَّ .... فلما سألته صدقني، فلودِدتُ أني لم أكن سألته»(١).

وقد عبَّر النبي ﷺ مراراً عن حبه لأصحابه ، واستثمره في غرس الخير في قلوبهم وسلوكهم، فقال لأبي ذر ؓ: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي»، وقال لمعاذ بن جبل ؓ: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك .. أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(٢).

ولنصخ السمع إلى أبي سفيان بن حرب، يحدثنا ؓ عن حال الحب التي رآها قبل إسلامه بين أصحاب النبي ﷺ ونبيهم الداعية: «لقد وفَدت على الملوك، ووفَدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ [أي: ما] رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية ح (٣٤٥)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل ح (٢٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود ح (١٥٢٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

(٣) أخرجه البخاري ح (٢٧٣١).

أمور كثيرة تلك التي حببتِ النبيَ ﷺ إلى أصحابه، فقد كان بارعاً في اصطناع الحب وتأليف القلوب، ومن ذلك ما يحكيه كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه، فقد خاطبه ﷺ بلهجة أهله في اليمن، وقال له : «ليس من امْ بِر امْ صيام في امْ سفر»[(١)]، أي: ليس من البر الصيام في السفر، فقالها النبي ﷺ لصاحبه اليماني بلهجته وعبارة قومه تحبباً وتقرباً.

وفي السير أن النبي ﷺ خرج من الطائف وقد آذاه أهلها، فدخل بستاناً يعمل فيه مولى نصراني لهم، يدعى عداس، من أهل نينوى، فقدم عداس له قطفاً من العنب، فلما وضع رسول الله ﷺ يده، قال: «بسم الله»، ثم أكل.

فنظر عداس إلى وجهه، وقال: والله، إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذا البلد.

فبادر النبي ﷺ إلى استثمار اللقاء في دعوته، فقال متألفاً لقلب عداس: «ومن أي البلاد أنت؟ وما دينك؟».

قال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال له رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟ .. ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي».

خلال لحظات أثمر اللقاء وبلغ غايته، فأكب عداس على رسول الله ﷺ، فقبَّل رأسه ويديه ورجليه، وقال لسيده: «ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد ح (٢٣٦٧٩)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (١١٣٠)، والحديث في الصحيحين بلفظ «ليس من البر الصيام في السفر».

(٢) ذكره ابن هشام في سيرته (٢/٤٩).

ثانياً : لا يؤثر إلا المتأثر

وكما حاز النبي ﷺ حباً عارماً في صدور أصحابه .. حباً ملك به العقولَ والقلوبَ ، فإنه أوتي أيضاً من مجامع الصدق والإخلاص، ما تجلى تأثيراً سابغاً في أصحابه، جعل منهم خير أمة أخرجت للناس، ألان قلوبهم، وأذرف عيونهم، يقول أنس ﷺ: «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلَها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»، يقول أنس ﷺ: «فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، لهم خنين»[(١)] أي من البكاء.

ومن المعلوم أن البكاء في الرجال عزيز، والقسوة فيهم غالبة، فكيف استذرف ﷺ دموعهم، واستوقد مشاعرهم، وحلق بأرواحهم؟ إنه نموذج الداعية المؤثر.

ويصف لنا العِرباض بنُ سارية ﷺ المشهد في مجلس آخر، فيقول: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرَفتْ منها العيون، ووجلت منها القلوب»، فقال رجل: «إنَّ هذه موعظة مودع»[(٢)].

وأما حنظلة الأُسَيِّدِي ﷺ فيزيد المشهد وضوحاً وهو ينقل صورة استشعرها هو وأصحابُه بين يدي النبي ﷺ ، فقال: «نكون عند رسول الله ﷺ، يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٢١).

(٢) أخرجه الترمذي ح (٢٦٧٦)، وأبو داود ح (٤٦٠٩)، وابن ماجه ح (٤٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٧٥٠).

وفي الصحيحين عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قام على المنبر فذكر الساعة ، وذكر أن بين يديها أموراً عِظاماً.. قال أنس: «فأكثر الناس البكاء»[١]، أي تأثراً بما سمعوه من النبي ﷺ عن يوم القيامة وما فيه من أهوال يصفها لهم، فكأنهم يرونها أمامهم.

إن من أهم أسباب التأثير في المستمعين أن يسبق الداعية مدعويه إلى التأثر بكلامه، ويمكنهم أن يلحظوا ذلك بدمعة عابرة تسبق إلى وجنته، أو حشرجة الكلمات وهي تقعقع في صدره، أو برؤية معالم وجهه وهي تعبر عن مكنون قلبه وصدق قوله، أو بنبرة صوته التي تحكي تأثره بالموضوع الذي يطرقه.

ولنسمع إلى أصحاب النبي ﷺ ، وهم يصفون لنا النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطُب فيهم، يقول جابر ﷺ: «وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه نذير جيش، يقول: صبحكم مساكم»[٢] ، وفي رواية من حديث الزبير بن العوام ﷺ، قال: «كان رسول الله ﷺ يخطُبنا، فيذكرنا بأيام الله حتى يُعرف ذلك في وجهه، وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة»[٣]، فمثل هذا الموضوع؛ موضوع اليوم الآخر، وما يقع فيه من أحداث عظام، وما يتلوه من جنة ونار ؛ موضوع تلتهب فيه

---

(١) أخرجه البخاري ح (٧٢٩٤)، ومسلم ح (٢٣٥٩).

(٢) أخرجه النسائي ح (١٥٧٨)، وأحمد ح (١٤٦٣٠)، وصححه الألباني في صحيح النسائي، وأصله في مسلم، وليس فيه ذكر الساعة ح (٨٦٧).

(٣) أخرجه أحمد ح (١٤٣٧)، وأبو يعلى ح (٦٧٧)، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٤٧/٣).

المشاعر، وتجيش فيه الأحاسيس، وتتسابق فيه الكلمات، فيظهر تأثر النبي ﷺ في علو صوته وحمرة وجهه.

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كونه ﷺ تحمرُّ عيناه ، ويعلو صوته ، ويشتدّ غضبه [في حال خطبته] ؛ كان هذا منه في أحوال ، وهذا مُشعر بأن الواعظ حقُّه أن يكون منه في وعظه بحسب الفصل الذي يتكلم فيه ما يطابقه، حتى لا يأتي بالشيء، وضدُّه ظاهرٌ عليه ، وأما اشتداد غضبه [ﷺ] ؛ فيحتمل أن يكون عند نهيه عن أمر خولف فيه ، أو يريد أن صفتَه صفةُ الغضبان»(١).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٣٦/٧).

ثالثاً : الدأب في الدعوة

ولم تكن الدعوة في حياة النبي ﷺ حدثاً عابراً ، بل كانت همًّا يعيشه النبي ﷺ في سائر أيامه وأحاديثه ومجالسه، وفي طريقه وسفره ومقامه وسائر مناشطه ، فالدعوة ليست لفضول الأوقات، ولا هي لوقت دون وقت، لقد كانت الدعوة متمثلة في شخصه ﷺ ، فحياته كلها تدور حول هداية الناس واستنقاذهم مما يوبق دنياهم وأخراهم.

لكن أرجو أن لا يفهم هذا على معنى أنه ﷺ كان يقيم محاضرة أو درساً أو خطبة أو موعظة أينما ذهب وارتحل، فما كان مفهومه ﷺ للدعوة قاصراً على هذه الوسيلة من وسائلها، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا»[(١)]، وفيه «بيان رفق النبي عليه السلام بالأمة وشفقته عليهم، ليأخذوا منه بنشاط وحرص.. المعنى أن النبي كان يعظ الصحابة في أوقات معلومة، ولم يكن يستغرق الأوقاتِ خوفاً عليهم من الملل والضجر»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري ح (٦٤١١)، ومسلم ح (٢٨٢١).
(٢) عمدة القاري ، بدر الدين العيني (٢/٤٥).

مراعاة الفوارق بين المدعوين واحتياجاتهم

الداعية الحصيف يعيش عصره ، ويحيط بقضايا مجتمعه، وهو أيضاً يدرك الفروق الشخصية والمجتمعية لمستمعيه، فيعطي كلاً ما يحتاجه ، ويجيب كلاً بحسَبه ، فتختلف موضوعاته وطرائق عرضه باختلاف أحوالهم وخصوصياتهم .. فلكلٍ ما يصلحه، وقد يكون بعض هؤلاء محتاجاً إلى ما يستغني عنه الآخرون، فالناس يتباينون بحسب بيئتهم وظروف نشأتهم وأسباب أخرى ليس هذا محل تعدادها.

النبي الداعية ﷺ الذي آتاه الله معالم النجاح وأدواته، كان أعرَفَ الناس بمدعويه ، وأسرعهم إلى إصلاحهم .. بما أوتي من مراعاة أحوال مدعويه، ومعاملة كل منهم بحسبه.

وفي هذا الصدد يمكننا أن نلمح حكمة بالغة في الدعوة النبوية، نقف عليها ونحن نتابع إجابات النبي ﷺ على سؤال تكرر كثيراً عليه، من غير أن يتكرر جوابه ﷺ، فكثيراً ما سئل عليه الصلاة والسلام :«يا رسول الله أوصني»، فكان ﷺ يجيب كل سائل بحسبه.

لما قال له أبو ذر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أوصِني . أجابه ﷺ: «اتقِ الله حيثما كنتَ ، وأتْبع السيِّئةَ الحسنة تمحُها ، وخالِقْ الناسَ بخلُقٍ حسن»[1].

وحين سأله سليم بن جابر الهجيمي رضي الله عنه السؤال نفسه قال: «عليك باتقاء الله، ولا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي،

(١) أخرجه الترمذي ح (١٩٨٧)، وأحمد ح (٢١٣٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

وتُكلم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، ولا يحبها الله، وإن امرؤ عيَّرك بشيء يعلمُه فيك، فلا تعيِّرْه بشيء تعلمُه منه، دعه يكون وبالُه عليه ، وأجرهُ لك، ولا تسبَّنَّ شيئاً»[١].

وأما أبو هريرة ﷺ فقال لرسول الله: أَوْصِني بشيءٍ ، ولا تُكْثِر عليَّ لَعَلّي أَعيهِ ، فقال : «لا تَغْضَبْ»، فردَّد ذلك مِراراً ، كلُّ ذلك يقول: «لا تَغْضَبْ»[٢].

ولما جاءه ﷺ رجلٌ يريد سفراً، فقال : يا رسول الله أوصني، فقال له: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شَرَف»[٣] أي مرتفع.

وأما أم سُليم رضي الله عنها فقالت: يا رسول الله أوصني، فأجابها: «اهجري المعاصي، فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض، فإنها أفضل الجهاد، وأكثري ذكر الله ، فإنك لا تأتين اللهَ بشيء أحبَّ إليه من كثرة ذكره»[٤].

ومثل هذا التنوع في إجابات سؤال واحد نجده في أسئلة كثيرة سُئلها النبي ﷺ، كسؤاله: «أي العمل أفضل؟» أو عن «أحب الأعمال إلى الله»، أو «مَن خير الناس؟» إلى غير ذلك من الأحاديث التي تؤكد على أهمية تخير الداعية الإجابة المناسبة لمدعويه.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ح (٥٢١)، وصححه الألباني في تخريج المشكاة ح (١٩١٨).

(٢) أخرجه البخاري ح (٦١١٦).

(٣) أخرجه أحمد ح (٨٣١٠)، وابن حبان ح (٢٦٩٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (١٧٣٠).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ح (٦٧٣٥)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (٥١١٩).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «محصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث [حديث أفضل الأعمال] وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة .. أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم [ﷺ] كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات؛ بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره»(١).

وحين أدرك النبي ﷺ أسرار التباين بين أصحابه، أرشد إلى مراعاة الفروق بين المدعوين فقال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»(٢)، فكأني به ﷺ ينبه إلى مراعاة أحوال الناس وخصوصياتهم بحسب المحيط الذين يعيشون فيه.

واستجابة لموجبات هذا التباين كان ﷺ يجيب بالجوابين للسؤال الواحد، لأن ما يصلح لهذا قد لا يصلح لذاك .. يروي عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن شاباً سأل رسول الله ﷺ: أُقَبِّل وأنا صائم؟ فأجابه ﷺ: «لا»، فجاء شيخ فقال: أُقَبِّل وأنا صائم؟ قال: «نعم».

قال عبد الله: فنظر بعضنا إلى بعض، فقال ﷺ: «قد علمتُ لم نظر بعضكم إلى بعض، إن الشيخ يملك نفسه»(٣).

ومثله أمر النبي ﷺ الشباب دون الشيوخ بالنكاح طلباً للعفاف: «يا معشر

(١) فتح الباري، ابن حجر (٩/٢).
(٢) أخرجه البخاري ح (٤٣٨٨).
(٣) أخرجه أحمد ح (٦٧٣٩)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٣٥١/١١).

الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[١]، فقد «خص الشباب بالخطاب؛ لأن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ»[٢].

ومن مراعاة أحوال المدعوين ما رأيناه من النبي ﷺ من تفريق بين خواص الناس وعوامهم في المعاملة والإلزام، ففي حين قبِل من ضمام بن ثعلبة قبوعه عند المحافظة على الفرائض لما عرض عليه أركان الإسلام فقال: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» ، فقال ﷺ: «أفلح إن صدق»[٣]، لكنه ﷺ لم يقبل التوقف عند هذا ومثله من خواص الصحابة، بل بايعهم، وأخذ عليهم العهد أن يلتزموا بأكثر من ذلك، يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»[٤]، وفي بعض الروايات تمتد البيعة لتشمل بعض السنن، يقول جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: «بايعتُ النبي ﷺ على النصح لكل مسلم»[٥] أو لتشمل ترك بعض المباحات، كالترفع عن بعض الحلال، يقول أبو ذر رضي الله عنه: «بايعني رسول الله ﷺ .. وهو يشترط علي أن لا تسأل الناس شيئاً .. ولا

---

(١) أخرجه البخاري ح (١٩٠٥)، ومسلم ح (١٤٠٠).

(٢) فتح الباري (٩/١٠٨).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٦)، ومسلم ح (١١).

(٤) أخرجه البخاري ح (٧١٩٩).

(٥) أخرجه مسلم ح (٥٦).

سوطَك إن يسقطْ منك حتى تنزلَ فتأخذه»[١].

وحين كان النبي ﷺ يستقبل سؤالاً من أصحابه لم يكن ليكتفي بجواب مقتضب ، وهو يرى حاجة سائله إلى ما هو أكثر من الجواب المختصر السريع، فكان يجيب سائله بما هو أوسع من سؤاله، وهذا من بذل العلم لأهله، وهو بعض حكمة المجيب وما يقتضيه إدراكه لما يجيش في صدور جمهوره من المسائل، وإنْ لم ينطقوا بها.

ذات يوم تقدمت إلى النبي ﷺ امرأةٌ تحمل غلاماً، فقالت: ألهذا حج؟ فقال ﷺ: «نعم، ولك أجر»[٢]، فقد أجاب ﷺ سؤالها، وزادها بقوله: «ولك أجر».

ولما سأله رجل: يا رسول الله ، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ .. أدرك النبي ﷺ أن السائل الذي يجهل طهورية ماء البحر لن يعرف حكم ميتته، لذلك توسع رسول الله ﷺ في جوابه ، فقال عن البحر: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»[٣].

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من محاسن الفتوى أن يجاء في الجواب بأكثر مما يسأل عنه تتميماً للفائدة وإفادة لعلم آخر غير مسئول عنه ، ويتأكد ذلك عند ظهور الحاجة إلى الحكم كما هنا لأن من توقف في طهورية ماء البحر فهو عن العلم بحِلِ ميتته مع تقدم تحريم الميتة أشد توقفاً»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ح (٢١٥٠٩)، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٤٠١/٣٥).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٣٣٦).

(٣) أخرجه البخاري ح (٦٩).

(٤) سبل السلام، الصنعاني (١٨/١).

وبينما الرسول ﷺ جالس في مسجده إذ دخل رجل فصلى، ولم يحسن صلاته، فأمره النبي ﷺ بإعادة الصلاة، فأعادها من غير أن يحسنها، فأمره بإعادتها، فقال الرجل: «والذي بعثك بالحق! ما أُحْسِن غيره، فعلِّمني!» فشرع النبي ﷺ يعلمه الطمأنينة في الصلاة ركوعاً وسجوداً، وقبل ذلك قال له: «إِذا قُمتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغْ الوُضُوءَ، ثُمَّ استقبِل القِبلة، فكبِّر، واقرَأْ بِمَا تيسَّر معك من القرآنِ»(١)، فالنبي ﷺ لم يقتصر في تعليم الرجل على كيفية الصلاة، بل حدثه عن إسباغ الوضوء واستقبال القبلة، لأن من جهل شرطية الطمأنينة في الصلاة، فهو - ولا ريب - محتاج إلى تعريفه بلزوم إسباغ الوضوء وغيره مما حدثه عنه النبي ﷺ.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه أن المفتي إذا سئل عن شيء وكان هناك شيء آخر يحتاج إليه السائل، ولم يسأله عنه؛ يستحب له أن يذكره له، ويكون هذا من النصيحة، لا من الكلام فيما لا يعني، وموضع الدلالة أنه قال: علمني يا رسول الله، أي علمني الصلاة، فعلمه الصلاة واستقبال القبلة والوضوء، وليسا من الصلاة، لكنهما شرطان لها، وفيه الرفق بالمتعلم والجاهل، وملاطفته، وإيضاح المسألة، وتلخيص المقاصد، والاقتصار في حقه على المهم دون المكملات التي لا يحتمل حاله حفظها والقيام بها»(٢).

ومما نلحظه في معالم الدعوة النبوية استخدام النبي ﷺ الآلية المناسبة في علاج المستجدات الواقعة، وتنوعه في هذه الوسائل بحسب حال

(١) أخرجه البخاري ح (٦٢٥١)، ومسلم ح (٣٩٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٨/٤).

المدعويين، فبعض هؤلاء يحتاجون إلى مناقشة عاطفية، وآخرون يحتاجون إلى إقناع عقلي، فلكل واحد من النوعين مفتاحه.

فأما الإقناع العقلي في دعوة النبي ﷺ فمثاله ما أخرجه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن رجلاً أتى النبي ﷺ مستفهماً متشككاً متحيراً، فقال: يا رسول الله، وُلِد لي غلام أسود؟! فقال: «هل لك من إبل؟ قال: نعم ، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر. قال: هل فيها من أورق؟ [الأورق هو اللون بين الأسود والأغبر] قال: نعم .

فسأله النبي ﷺ فأنى ذلك؟ فأجاب الرجل: نزعه عرق [يعني شابه لونُه لونَ بعضِ أسلافه وآبائه]. فقال ﷺ: فلعل ابنك هذا نزعه»[١] أي كان سواده بسبب وراثة بعيدة عن واحد من أجداده.

وفي موقف آخر جاءته ﷺ امرأة، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فماتت قبل أن تحج ، أفأحجُ عنها ؟ فلم يكتف ﷺ بجوابها المباشر، بل عمد إلى مناقشته لتقريبه إلى عقلها ولمزيد إقناعٍ لها، فقال: «نعم ، حجي عنها ، أرأيتِ لو كان على أُمِّكِ دَيْن أكنتِ قاضِيتيه؟ اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء»[٢].

وفي مواضع أخرى ومع أشخاص آخرين اعتمد النبي ﷺ الحديثَ العاطفيَ أسلوباً للإقناع الذي يعتمد على إثارة المشاعر وتجييش العواطف لطرد ما ران على القلوب من صدأ الدنيا والتطلع إلى مباهجها، ومن ذلك ما صنعه النبي ﷺ مع الأنصار حين أحزنتهم قسمة النبي ﷺ لغنائم حنين بين

(١) أخرجه البخاري ح (٥٣٠٥).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٨٥٢)، ومسلم ح (١١٤٩).

المؤلفة قلوبهم وحديثي العهد بالإسلام، فجمعهم النبي ﷺ ، وقال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي .. أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا»، فذكر أشياء من مآثر الأنصار ذكرها ابن المنذر وغيره: «أما والله لو شئتم لقلتم، ولصَدَقتم، ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ، ووكلتُكُم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟».

ثم قال لهم: «فوالذي نفس محمد بيده ، أن لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً، وسلك الأنصار شِعباً لسلكتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فماذا كان أثر هذه الموعظة النبوية العاطفية؟

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه راوي الحديث: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم [بالدموع]، وقالوا : «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً»(١).

وهكذا فإن الداعية يفطن لأحوال مدعويه، ويُلِم بمتغيرات مجتمعه ومفارقات عصره، فينوع من وسائله الدعوية، ويتخير من درره ما يصيب به هدفه، ويبلغه إربه.

---

(١) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ح (٣١٧٦)، وصححه الألباني في تخريجه لفقه السيرة (٣٩٧)، والحديث أصله في البخاري ح (٤٣٣٠) ومسلم ح (١٠٦١).

المعلم الناجح

لا ريب أن أول غرض بعث الله لأجله أنبياءه ورسله تعليم أممهم ودلالتهم على الخير قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (الجمعة:٢) ، ﴿ كما أرسلنا فيكم رسول منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (البقرة:١٥١).

وقد سمى النبي ﷺ نفسه معلماً لما خرج يوماً على أصحابه ، فوجدهم يقرؤون القرآن ويتعلمون، فكان مما قال لهم: «وإنما بعثتُ معلِّماً»[١]، وقال: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً وميسراً»[٢].

وقد أدى النبي المعلِّم ﷺ مهمته على أكمل وجه وأحسنه، فخرج من تحت عباءة هديه أعظم أمة أخرجت للناس، والواصف لهم بذلك ليس أهل الأرض ولا جند السماء، بل رب العالمين: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (آل عمران: ١١٠).

ويشهد لعلو كعب هذا المعلم أيضاً معاوية بن الحكم رضي الله عنه بقوله: «ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه»[٣]، وفي رواية: «فما رأيت

(١) أخرجه ابن ماجه ح (٢٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه.

(٢) أخرجه مسلم ح (١٤٧٨).

(٣) أخرجه مسلم ح (٥٣٧).

معلماً قط أرفق من رسول الله ﷺ»[1].

وإذا كان كذلك؛ فقد وجب علينا تلمس معالم النجاح وأدواته التي أمكن الله نبيه منها، لنتأسى به، ونمشي على غرزه وهداه.

أول ما يستوقفنا في هديه ﷺ أنه لم يكن ممن يكثر في الحديث ويطنب حين يخطب أو يعظ .. حتى لا يثقل على سامعه، فكان كلامه جزلاً فصلاً، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنْ كان رسول الله ﷺ ليحدِّث الحديث لو شاء العاد أن يحصيَه؛ أحصاه»[2]، وفي رواية: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردَكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلامٍ يبينُه، فصلٌ، يحفظه من جلس إليه»[3]، وفي رواية : «كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً، يفهمه كل من سمعه»[4].

ويصف جابر بن سمُرة ﷺ طول خطبته ﷺ فيقول: «كنت أصلي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً»[5]، كيف لا وهو ﷺ القائل: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ مِن فقهه، فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، فإن من البيان لسحراً»[6]، فهل يفقه الخطيب المطول أن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً ، وأن خيره ما قل ودل، وأن ما قل وكفى خير مما كثُر وألهى.

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٩٣١)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.
(٢) أخرجه أبو داود ح (٣٦٥٦) وصححه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.
(٣) أخرجه الترمذي ح (٣٦٣٩) وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.
(٤) أخرجه أبو داود ح (٤٨٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.
(٥) أخرجه مسلم ح (٨٦٦).
(٦) أخرجه مسلم ح (٨٦٩).

قال حكيم بن حزام ﵁: «شهدت مع رسول الله ﷺ الجمعة، فكان متوكئاً على عصا، فحمِد الله وأثنى عليه، فكانت كلماتٍ خفيفاتٍ، طيباتٍ مباركاتٍ»(١).

وقد أوتي رسول الله ﷺ خصيصة مهمة لكل داعية، تغنيه عن التطويل والشرح والإسهاب، ألا وهي ما أعطاه الله من جوامع الكلم، أي يعبر عن المعاني الجزلة بأقل الكلمات وأوقعها، قال ﷺ: «فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحِلتْ لي الغنائم، وجعلتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون»(٢).

وقال هند بن أبي هالة التميمي ﵁ في وصفه ﷺ : «كان رسول الله ﷺ مُتواصِلَ الأحزان ، دائمَ الفِكرة ، ليست له راحة، طويلَ السَّكْت، لا يتكلم في غير حاجة ، يَفتَتِحُ الكلام ويختِمُه باسم الله تعالى، ويتكلَّم بجوامع الكَلِم، فصلٌ، لا فضول، ولا تقصير»(٣).

وقد ضرب العلماء أمثلة من جوامع كلمه ﷺ وما أكثرها! فمنها قوله البليغ: «حُفّت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره»(٤)، وقوله: «المسلم

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٧٨٥٦)، وأبو داود ح (١٠٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

(٢) أخرجه مسلم ح (٥٢٣).

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ح (٤١٤)، والبيهقي في الشعب ح (١٣٦٢)، والترمذي في الشمائل ح (٢٢٦)، واللفظ له، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ح (٧٥٣٠)، وابن حبان ح (٧١٩)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٤٩٧/١٢).

من سلِم المسلمون من لسانه ويده»[١]، وقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢]، وقوله: «لا ضرر ولا ضرار»[٣]، وغيرها من الكلمات القليلات التي صارت أصولاً في الشريعة، يعرفها المبتدئ، ويحفظها الصغير من المسلمين قبل الكبير.

وكان ﷺ حريصاً على أن يَفهم سامعوه كلامه، فلا يلتبس منه شيء على واحد منهم، ولأجل ذلك كان ﷺ يكرر عبارته لتُعقل وتحفظ عنه، يقول أنس رضي الله عنه: «كان ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه»[٤]، وفي رواية في إسنادها مجهول عن بعض الصحابة أنه قال: «كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل، أو ترسيل»[٥]، أي لم يكن يسرع في الكلام.

ومما نقل عن النبي ﷺ أن كرر فيه الكلام قوله: «ألا أحدثكم بأكبر الكبائر»، فقد قالها ﷺ ثلاثاً قبل أن يفصِّلها لهم بقوله: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، .. وشهادة الزور»، ولما أراد تنبيههم على أهمية شهادة الزور التي قد يتهاون فيها الناس صار ﷺ يكررها ويكررها حتى أشفق عليه الصحابة: «فما زال يقولها حتى قلنا: ليته سكت»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ح (١٠)، ومسلم ح (٤١).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٧١٨).

(٣) أخرجه أحمد ح (٢٨٦٥)، والطبراني ح (١١٨٠٦)، وحسنه لشواهده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٥/٥٥).

(٤) أخرجه البخاري ح (٩٥).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (٢٦٨١٩)، وننقلها هنا للاستئناس فحسب.

(٦) أخرجه البخاري ح (٢٦٥٤)، ومسلم ح (٨٧).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لهم ذلك ثلاث مرات ، وكرره تأكيداً لينتبه السامع على إحضار فهمه .. وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعاً على الناس، والتهاونُ بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرِف عنه الطبعُ، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة ، كالعداوة والحسد وغيرهما ، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه»(١).

ولما قَتل أسامةُ بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتعوذَ من القتل بلا إله إلا الله قال له ﷺ: «يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟» يقول أسامة: «فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «في تكريره ذلك والإعراضِ عن قبول العذر زجرٌ شديدٌ عن الإقدام على مثل ذلك»(٣).

ومما كرر فيه النبي ﷺ الكلام ثلاثاً قوله: «هلك المتنطعون»(٤)، وقوله: «الدين النصيحة»(٥)، وقوله: «بين كل أذانين صلاة»(٦)، وقوله: «ألا إن القوة القوة الرمي»(٧)، وغيرها من الشواهد التي يطول المقام بتتبعها.

وهكذا ؛ فإن النبي ﷺ كان يكتفي بقليل الكلام عن كثيره، وهي دعوة

---

(١) فتح الباري (٥/٢٦٢-٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري ح (٤٢٦٩)، ومسلم ح (٩٦).

(٣) نقله عنه ابن حجر في الفتح (١٢/١٩٦).

(٤) أخرجه مسلم ح (٢٦٧٠).

(٥) أخرجه أحمد ح (١٦٩٤٢)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢٨/١٤١).

(٦) أخرجه البخاري ح (٦٢٤)، ومسلم ح (٨٣٨).

(٧) أخرجه مسلم ح (١٩١٧).

لكل واعظ يكره أن يملَه سامعوه ، وأن يناموا بين يدي حديثه وخطبته.

وكما أسلفتُ، فإن الدعوة لم تكن في مفهوم النبي ﷺ تقتصر على خطبة أو موعظة في المسجد ، بل كانت مشروعاً يعيشه ﷺ في كل لحظة، في البيت والسوق والشارع، وكان عليه الصلاة والسلام يجد في كل زاوية من زوايا الحياة حوله فرصة للتعليم والتوجيه.

وهكذا فكل موقف من حولنا يمكن استغلاله في فائدة سريعة أو موعظة قصيرة أو ملاحظة عابرة ، ولربما كانت أكثر فائدة من مطولاتنا التي نلقيها في مساجدنا أو محاضراتنا العامة.

ودعونا نتأمل بعض المواقف الحياتية العادية التي حوَّلها النبي ﷺ إلى درس بليغ على الرغم من قصره، فقيمة الموعظة لا تقاس بطولها، بل بتأثيرها، فقد مرَّ ﷺ يوماً هو وأصحابه على امرأة في السبي تبحث عن ولدها، فلما وجدته ضمته إلى صدرها بحنان يثير الشجون .. موقف عاطفي يمكن للنبي الداعية استثمارُه في غرس عقيدة مهمة، وهي تبيان رحمة الله، وأنه لا يعذب أحبابه المؤمنين، فقال ﷺ للصحابة مستغلاً الحدث: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قالوا: لا، فقال ﷺ: «للهُ أرحمُ بعبادِه من هذه بولدها»(١).

وفي ليلة مقمرة جلس النبي ﷺ يوماً مع أصحابه ينظرون إلى القمر، ويتأملون بديع صنعة الله فيه .. مشهد يمكن ربطه بمسألة إيمانية وأخرى عبادية ، فقال لهم ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامُّون

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٩٩٩)، ومسلم ح (٢٧٥٤).

في رؤيته [أي لا تتزاحمون]، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم أنهى موعظته التي استغرقت ثوان معدودات بقراءة قوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ (ق: ٣٩)(١).

والسوق أيضاً مكان مناسب للتذكير والوعظ البليغ، فقد مر ﷺ بجَدْيٍ ميّتٍ أَسَكَّ [أذنه صغيرة]، فأخذَ ﷺ بأُذُنِه ثم قال: «أيُّكم يُحِب أنَّ هذا له بدرهم؟» قالوا : ما نُحبُّ أنه لنا بشيء، وما نصنعُ به... واللهِ لو كان حيّاً؛ كان هذا السَّكَكُ عَيْباً فيه ، لأنه أَسَكّ، فكيف وهو ميّت؟! فقال ﷺ: «فواللهِ للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم»(٢)، درس بليغ لا ينسى في السوق، وهو مكان غفلة عادة، لكن الداعية الحصيف محمد ﷺ يستثمر اشمئزاز الصحابة من رؤية جيفة بربطها ذهنياً بجيفة كبرى يتناوشها الناس، ويصطرعون عليها ويقتتلون ، وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

ولما رأى النبي ﷺ أصحابه يوماً وهم يتوضؤون في سفر، لم يفته تذكيرهم بحسن الوضوء وتبليغ الأرجل بالماء، فجعل ينادي بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار»(٣)، يكررها مرتين أو ثلاثة .. موعظة سريعة قصيرة لا تزيد على أربع كلمات.

وهكذا فالمواقف العابرة وغيرها فرصة سانحة للتذكير بأمور كبار،

---

(١) أخرجه البخاري ح (٧٤٣٤)، ومسلم ح (٦٣٣).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٩٥٧).

(٣) أخرجه البخاري ح (٦٠)، ومسلم ح (٢٤٠).

يطبعه الداعية في ذاكرة المستمع بربطه بحدث عابر يمر علينا أمثالُه في كل يوم من غير أن يرِّف لنا جِفن أو ننبس بنت شفة.

والمعلم الناجح يستخدم في درسه وسائل إيضاحية تجعل درسه راسخاً في أذهان طلابه؛ فإن منهم من يوصفون بأنهم (بصريون)، أي يعتمدون على الرؤية أكثر من السماع الذي يعتمد عليه (السماعيون)، وفي استخدام هذه الوسائل الإيضاحية ما يعين البصريين والسماعيين على استحضار المعلومة ورسوخها لاشتراك حاستي السمع والبصر فيها.

والداعية القدوة محمد ﷺ استخدم الوسائل الإيضاحية، في صور عديدة رسخت في عقول أصحابه، فنقلوها إلى الأمة، فوعتها عنهم.

من ذلك أن رسول الله ﷺ أراد أن يبين لأصحابه الفرق بين الحق والباطل بصورة منظورة قريبة من ذهنيتهم، فماذا صنع ﷺ؟

يجيب ابن مسعود رضي الله عنه: «خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلكم وصَّاكم به لعلكم تَتَّقون﴾ (الأنعام: ١٥٣)»(١).

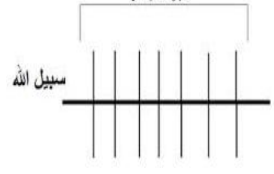

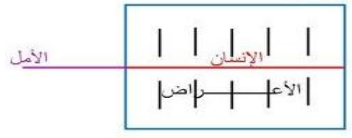

(١) أخرجه أحمد ح (٤٤٣٧)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٤٣٦/٧).

وفي موعظة أخرى أراد رسول الله ﷺ أن يرسم في أذهان الصحابة صورة الإنسان مع الدنيا وآماله فيها التي لا تنتهي، فرسم مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خُطَطاً [أي خطوطاً] صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان؛ وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارجٌ أملُه، وهذه الخُطَط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»(١).

وفي مرة ثالثة خَطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرض أربعةَ خُطوط، وقال: أَتَدْرون لِمَ خَطَطْتُ هذه الخطوط؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، فقال ﷺ: أفضلُ نِساءِ أهلِ الجنة: خَديجةُ بنتُ خُوَيلد، وفاطِمةُ بنتُ محمد ، ومريم ابنةُ عِمْران ، وآسِيَةُ بنتُ مُزاحِم امرأةُ فِرْعَون»(٢) ، فاستعان ﷺ بهذه الوسيلة المبسطة لتشويق الصحابة ولفت انتباههم؛ وإلا فقد كان بإمكانه ﷺ أن يذكر الخبر الذي يريده من غير أن يخط هذه الخطوط.

ولما أراد رسول الله ﷺ إعلام الصحابة بحرمة لبس الحرير والذهب على الرجال؛ لم يكتف بالقول الذي قد يغفل عنه بعض الحاضرين أو ينسوه، بل صعد المنبر، ورفع حريراً بشِماله ، وذَهَباً بيمينه ، وقال: «إنَّ هذينِ حرامٌ على ذُكورِ أُمَّتي، حِلٌّ لإناثِهم»(٣).

وهكذا فالداعية متسلح بأنواع المعرفة، ومنها مهارات التدريس، لا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٦٤١٧).

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٩٥٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٥/١١٣).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٠٥٧)، وابن ماجه ح (٣٥٩٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه ح (٢٤٦٥٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

يمتنع عن شيء من وسائل الإيضاح التي تفيد مستمعيه، وتحول كلماته إلى معانٍ راسخة في أذهان مستمعيه.

وفي أحيان أخرى كان ﷺ يشرك مع كلماته بعضاً من حركات يديه أو إيماءات جسمه، ومن ذلك ما نحفظه جميعاً : عوام ومتعلمين، من قول النبي ﷺ: «أنا وكافِلُ اليتيم في الجنَّةِ كهاتَيْنِ»[1]، فقد قرن ﷺ هذا القول بإشارة إصبعَيْه : السبَّابةِ والوُسْطى ، وفَرَّجَ بينهما شيئاً.

قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام ، مثل قوله عليه السلام: (بعثت أنا والساعة كهاتين)[2] [فأشار بالسبابة والوسطى] ، ومتى كان يبلغ البيان إلى ما بلغت إليه الإشارة ، والإعراب بما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة ، وفي إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام»[3].

ومن صور هذا الفعل الرشيد أنه ﷺ قال: «المؤمِنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضاً»، ولم يفته ﷺ أن يشرك يديه في تصوير هذا المشهد، فشَبَّك بين أصابِعه[4].

ومن ذلك أيضاً ما حفظه سفيان بن عبد الله الثَّقَفي رضي الله عنه من فعل وإشارة

(١) أخرجه الترمذي ح (١٩١٨)، وابن ماجه ح (٣٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.
(٢) أخرجه البخاري ح (٦٥٠٢)، ومسلم ح (٨٦٧).
(٣) شرح ابن بطال (٧/٤٦٠).
(٤) أخرجه البخاري ح (٤٨١)، ومسلم ح (٢٥٨٥).

رسول الله ﷺ، فقد سأله: «يا رسول الله، ما أَخوَفَ ما تخافُ عليَّ؟» فأخَذَ رسول الله ﷺ بلسانِ نَفْسه، ثم قال: «هذا»[١]، فكان إشارته في يده تغني عن الكثير من الشرح والتطويل والوصف.

ولعل من أهم ما يجتذب المدعوين إلى وعظ الداعي وخطبته ذكره للقصة المفيدة؛ سواء كانت من قصص السابقين أو المعاصرين، فالقصة درس وعبرة يقدمه التاريخ والواقع بالمجان، لمن أراد أن يلتقط الفائدة والعظة منه، فالحكمة ضالة المؤمن، وأنى وجدها فهو أحق بها.

وقد أمر الله نبيه ﷺ باستخدام القصص في البلاغ والتربية، فقال: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ (الأعراف: ١٧٦)، فامتثل النبي ﷺ أمر ربه، وحكى للصحابة الكثير من قصص السابقين، كقصة أصحاب الأخدود، وقصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، وقصة قاتل المائة، وقصة الأعمى والأقرع والأبرص، وغيرها من القصص النبوية المؤثرة ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى﴾ (يوسف: ١١١).

وهذا ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد أعاجيب الدنيا في الوعظ والتأثير يكشف لنا سر تفوقه في هذا الفن، فيقول: «لو قلتُ: إني طالعتُ عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعبادتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع»[٢].

(١) أخرجه الترمذي ح (٢٤١٠)، وابن ماجه ح (٣٩٧٢)، وأحمد ح (١٥٤١٩).
(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص (١٣).

ومما ينبغي التذكير به هنا ؛ أن على الداعية أن يحذر من القصص المكذوب الذي يكثر على ألسنة القصاص، وكذلك يحسن اجتناب الغرائب التي لا يصدقها الناس عادة؛ ولو كانت موثوقة لديه، فما كل ما يعلم يقال.

والموعظة النبوية لم تكن رحلة من طرف واحد، أي كلاماً يسرده ويُلقيه المتحدث، بينما يكتفي الآخرون بالسماع وهز الرؤوس، كما يحصل مع مجمل دعاتنا اليوم، فالنبي ﷺ كان يشرك مستمعيه معه في الحديث، فيجتذب اهتمامهم، ويطرد عنهم الوسن بسؤالهم ، وتحفيز أذهانهم بالبحث عن الجواب وتوقعه ، فكثيراً ما كان يسألهم: (أتدرون؟)، فيكتفون بالقول تأدباً بين يديه: «الله ورسوله أعلم»، فيبين لهم ﷺ ما أراد، وهم متشوقون لمعرفة الجواب.

وأمثلته كثيرة في السنة النبوية، ومنها قوله: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»[1]، «أتدرون أي يوم هذا؟»[2]، «أتدرون ماذا قال ربكم؟»[3]، «أتدرون ما الكوثر؟»[4] وغيرها من الشواهد.

قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: «طرحُ المسائل على التلاميذ لتَرسُخَ في القلوب وتثبُت ، لأن ما جرى منه في المذاكرة لا يكاد يُنسى»[5].

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٣).

(٢) أخرجه البخاري ح (١٧٤١)، ومسلم ح (١٦٧٩).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ح (٣١٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ح (٤٠٠).

(٥) شرح ابن بطال (١/١٤١).

ومن وسائل الشرح النبوي ضرب الأمثال والتشبيه؛ لربط القضايا المعنوية بأمور محسوسة، تجعل الغائب قريباً من الذهن، وتحوله من معنى تجريدي إلى صورة حاضرة تستعصي على النسيان ، فقد أراد ﷺ يوماً أن يرسخ المفارقة بين أربعة أصناف من الناس في أحوالهم مع القرآن الكريم ، فشبههم بأربع تشبيهات محسوسة، فقال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب، وريحها طيب، مثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مُر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح، وطعمها مُر»(١).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التمثيل - في الحقيقة - وصف لموصوف اشتمل على معنىً معقولٍ صِرف؛ لا يبرزه عن سكونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهَد ... وإبرازُ هذه المعاني وتصويرها إلى المحسوسات ما هو مذكور في الحديث، ولم يوجد ما يوافقها ويلائمها أقربُ ولا أحسنُ ولا أجمعُ من ذلك»(٢).

ولما أراد ﷺ ترسيخ إيمان الصحابة بوحدة الدين الذي بعث الله به الأنبياء من لدن آدم إلى خاتَمهم وخاتِمهم ﷺ قال مشبهاً ومقرباً للأذهان: «إن مَثلي ومَثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لَبِنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٥٠٢٠)، ومسلم ح (٧٩٧).

(٢) تحفة الأحوذي (١٣٣/٨).

وضعت هذه اللَّبِنة؟ قال: فأنا اللَّبِنة ، وأنا خاتم النبيين»[١]، فكان تشبيهاً عجيباً لا ينسى منه ﷺ.

وأراد ﷺ تشبيه حال المنافق المتردد بين الكفر والإيمان ، فلا هو جعل نفسه في عداد المؤمنين، ولا أعلن صراحةً كونَه من الكافرين، فقال ﷺ: «مثل المنافق، كمثل الشاةِ العائرةِ بين الغنمين، تَعِيرُ في هذه مَرَّةً ، وفي هذه مرَّةً، لا تدْري أيّها تَتْبَعُ»[٢] أي من جمعي الغنم اللذَين تتردد بينهما.

وأما أنواع الناس في تقبل الهدى فشبهه النبي ﷺ للصحابة بما يعرفونه من بيئتهم: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقَوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فقِه في دين الله ونفَعَه ما بعثني الله به، فعلِم وعلَّم، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٣].

والتشابيه النبوية كثيرة لا تحصى، فقد شبه ﷺ أمتَه بالغيث، والمؤمنَ بالنخلة والنحلة والسنبلة، والمجتمعَ بالسفينة ، والقلبَ بالريشة، والصاحبَ بحامل المسك ونافخ الكير؛ إلى غير ذلك من التشبيهات النبوية التي جمع منها المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ زهاء أربعين مثالاً صريحاً، وقال: «قد أكثر المصطفى -

(١) أخرجه البخاري ح (٣٥٣٥)، ومسلم ح (٢٢٨٦).
(٢) أخرجه مسلم ح (٢٧٨٤).
(٣) أخرجه البخاري ح (٧٩).

اقتداء بالقرآن - من ضرب الأمثال زيادة في الكشف، فإنه أوقع في القلب، وأقمع للخصم الألد، لأنه يريك المُتخَيلَ محققاً، والمعقولَ محسوساً، ولشأنه العجيب في إبراز الحقائق المستورة ووضع الستور عن وجه الحقيقات؛ كثُر في القرآن»[١].

وأستاذ الدعاة محمد ﷺ لم يكن جافاً في درسه ووعظه، بل كان يشوق سامعيه بأن يذكر لهم كلاماً يلهب أذهانهم من غير أن يتمه، ليدعَ لهم الفرصة للتفكر في خبره، قبل أن يطلعهم على تفسيره وتمامه وتفصيله، ففي مرة قال لأصحابه: «رَغِمَ أَنْفُه! ثمّ رَغِمَ أَنْفُه! ثمّ رَغِمَ أَنْفُه!» ثم سكت ﷺ، فسألوه: من يا رسول الله؟ فقال : «مَن أدرَك والِدَيْهِ عند الكِبَرِ؛ أحَدَهما أو كليهما، ثم لم يَدْخُل الجنّة»[٢].

وفي جلسة أخرى قال لهم: «واللهِ لا يؤمِن! واللهِ لا يؤمِن! واللهِ لا يؤمِن!» ، ولم يبين لهم اسم أو صفة هذا الذي يتحدث عنه، وهم راغبون في ذلك، متشوقون إليه، فسألوه: من يا رسول الله؟ فقال: «الذي لا يَأمَنُ جارُه بَوائِقَه»[٣].

وفي مرة ثالثة ارتقى ﷺ درجة من منبره، ثم قال: «آمين»، وارتقى الدرجة الثانية فقال: «آمين»، والثالثة فقال: «آمين». ثم خطب ما شاء الله، ونزل من على منبره، وهم متشوقون لمعرفة سرِّ الدعاء الذي كان ﷺ يؤمِّن

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (٢/٧١٦).
(٢) أخرجه مسلم ح (٣٥٥١).
(٣) أخرجه مسلم ح (٤٦).

عليه، ويتساءلون في قلوبهم عن الداعي .. من هو؟، فقالوا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه، فقال: «إن جبريل عليه الصلاة والسلام عرض لي فقال: بُعداً لمن أدرك رمضان فلم يغفر له، قلتُ: آمين.

فلما رقيتُ الثانية قال: بُعداً لمن ذكرتَ عنده فلم يصل عليك، قلتُ: آمين.

فلما رقيتُ الثالثة قال: بُعداً لمن أدرك أبواه الكبرَ عنده أو أحدهما، فلم يدخلاه الجنة قلتُ: آمين..»(١)، فلا ريب أن هذه الطريقة في العرض تشوق المستمع إلى تمام الكلام، وتركزه في ذهنه.

ومرَّت عليه ﷺ جنازة ، فأثنى الصحابة عليها خيراً ، فقال ﷺ: «وجَبَتْ ، وجبت ، وجبت». ثم مرَّت جنازة أخرى، فأثنوا عليها شراً ، فلم يزد ﷺ على أن أعاد القول: «وجَبَتْ ، وجبت، وجبت».

ولنا أن نتخيل الحيرة التي ارتسمت على وجوه الصحابة من سماعهم لهذه الكلمات المبهمة التي تحتاج إلى بيان، وقد تشوقوا إلى معرفة تفصيلها، فسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «من أَثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أَثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شُهداء الله في الأرض ، أنتم شُهداء الله في الأرض ، أنتم شُهداء الله في الأرض»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم (١٥٤/٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح (١٦٧٧).
(٢) أخرجه مسلم ح (٩٤٩).

الفصل السادس:

خلاف الدعاة
والوحدة الإسلامية الجامعة

الوحدة الإسلامية غرض أصيل من أغراض الشرع الحنيف، أمر الله عباده بتحقيقه والمحافظة عليه ، وحذرهم من الإضرار به بالفرقة والتنازع والاختلاف ﴿وَلاَ تَنازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦) ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران: ١٠٥) ، وهكذا أضحى «من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ (الأنفال: ١) .. وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف»[١].

لكن أهم ما ينغص هذه الوحدة اختلاف المسلمين، وتعدد طرائقهم المذهبية والدعوية والعلمية والحركية، فما زال الناظر إلى أعيان المسلمين ودعاتهم يحار لكثرة ما يقع بينهم من اختلاف!!

ويتساءل المرء: هل كان حتمياً أن يقع هذا الخلاف؟ والإجابة التي يصدقها تاريخنا الطويل : نعم، كان لابد للناس أن يختلفوا .. لكن لم يكن من ضرورة لتحول هذا الخلاف إلى اختلاف وشقاق وتباعد، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه، لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغيُ بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥١).

منه في النشأة الإنسانية»[١].

وهنا يظهر سؤال مهم: ما هو الحد الذي يمكننا أن نغض الطرف عنه من أخطاء الآخرين في سبيل الإبقاء على الوحدة الإسلامية؟ متى نقدم الوحدة على الخلاف؟ ومتى نضحي بالوحدة والاجتماع؟

نعم، ثمة مسائل لا يسوغ لنا التنازل عنها في سبيل المحافظة على وحدة الأمة وتماسك الصف، إذ أن أحداً لا يقول ولا يقبل أن نتخلى عن مبادئ ديننا في سبيل وِحدة مزعومة، فالوحدة إنما تكون حول حبل الله ووفق صراطه المستقيم ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وهذا الحبل المتين هو ما تركنا عليه النبي ﷺ من محجة بيضاء سار عليها أصحابه الكرام ثم التابعون لهم بإحسان من سلف الأمة ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (الأنعام: ١٥٣).

لكن ثمة مسائل أخرى يجوز التضحية بها أو التغاضي عنها استبقاء للأخوة الإسلامية والوحدة الجامعة التي هي الأخرى فريضة من فرائض الإسلام ومصالحهم العامة التي ينبغي على المسلمين الاستمساك بها خشية التردي في منزلقات الفرقة والتنازع.

وفيما يلي قواعد يحسن بالداعية أن يأرز إليها في خلافه مع إخوانه الذين يجمعه معهم وحدة الأصول والهدف؛ وإن اختلفت السبل وتعددت الرايات:

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/٥١٩).

تكامل الدعاة والتعصب المذموم

تتنوع اليوم مدارس العمل الدعوي للإسلام، فلكل برنامجه واهتماماته التي يقدمها على غيرها لما يراه من مسيس الحاجة إليها، فهذا يرى ضرورة التركيز على تنمية الحس الإسلامي بين جماهير المسلمين، وذاك يركز على إرساء مسائل العقيدة، وثالث مهتم بتحفيظ القرآن الكريم، ورابع بنشر العلم الشريف، وخامس وسادس...، ولكل وجهة هو موليها في خدمة هذا الدين ونصرته، نسأل الله أن يتقبل من الجميع.

والمفروض في هذا التنوع أن يكون مدعاة للإثراء والفرح بين أبناء الإسلام، فكل يخدم الإسلام في ثغر من ثغوره، ويعمل في اختصاصه وبحسب إمكاناته، فيقدم من خلال ما يحسنه جهداً مباركاً في خدمة المشروع الإسلامي، لينضاف إلى جهود إخوانه الآخرين الذين لا غناء له عنهم، ولا غناء لهم عنه.

لكن واقع العمل الدعوي يكشف عن صور يتألم لها كل غيور، فترى الدعاة يختلفون ويتخالفون ويتنازعون ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (المؤمنون: ٥٣) ، فواحد يطعن في إخوانه، وثانٍ يشكك في منهج من خالفه منهم، وكل يدعي بفعله الذود عن الإسلام ، وذَبَّ الأخطار التي يتوقعها من فعل إخوان له شاركوه أهداف الدعوة العامة، وخالفوه في المنهج والطريقة والأولويات.

لقد تناسى هؤلاء أن ما نجتمع عليه أكثر بكثير مما نختلف فيه، إذ يجمعنا الإسلام بأركانه ، والإيمان بأسسه وفروعه، وغاية ما نختلف عليه هو

أولويات العمل الإسلامي التي تختلف بسبب اختلاف قراءاتنا ورؤانا لمشكلات مجتمعنا وتفاعل واقعنا الدعوي معها.

وهنا تطل علينا آفة مقيتة، وهي تعصب البعض الأعمى لمدرسته الدعوية، أو لانتمائه الفكري، أو لجماعته وتياره، فيشيطن إخوانه الآخرين ، وينتقد منهاجهم الدعوي متطاولاً على تاريخهم النبيل .. لا بل قد يتشكك بنواياهم، ويبخس جهودهم، ويركز بنظارته السوداء على أخطائهم متناسياً إنجازاتهم وسابقتهم في الدعوة الإسلامية.

هذه واحدة من صور العصبية المقيتة، وهي بقية أدران الجاهلية، وتسري للأسف حتى بين العاملين للإسلام، حيث يصبح الولاء للشيخ أو الجماعة أو المدرسة الدعوية مقدماً على الولاء للإسلام والتعصب له، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذم التعصب: «ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً - يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها - غيرَ النبي ﷺ ، ولا ينصِب كلاماً يوالي عليه ويعادي؛ غيرَ كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون بين الأمة، يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون»[1].

وأما ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: «الدُّعَاء إلى القبائل والعَصبِيَّة لها وللأنساب، ومثلهُ التعصبُ لِلمذاهب، والطرائِق، والمشايخ، وتفضيلُ بعضها على بعض بالهوى والعصبية وكونِهُ منتسباً إليه، فيدعو إلى ذلك، ويُوالى عليه، ويُعادِى

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٤).

عليه، وَيزِنُ الناس به، كُلُّ هذا مِن دعوى الجاهلية»(١).

واستخدام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لمصطلح الجاهلية في هذا الموطن؛ جرى متابعة للنبي ﷺ الذي سماها «دعوى أهلِ الجاهلية»، وذلك في حديث بالغ العظة والعبر، يحدثنا به جابر رضي الله عنه فيقول: كسع [أي ضرب] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فاجتمع قوم ذا وقوم ذا، وقال هؤلاء: يا للمهاجرين! وقال هؤلاء: يا للأنصار!

فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «دعوها فإنها منتنة .. ألا ما بال دعوى أهلِ الجاهلية، ألا ما بال دعوى أهلِ الجاهلية»(٢).

ونلحظ هنا أن الطرفين (المهاجرين والأنصار) انتسبا إلى أسماء شرعية، فالقرآن هو من سمى المهاجرين والأنصار بهذين الاسمين الشريفين، حين امتدحهما بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ (التوبة: ١٠٠)، والانتساب لهما محمود، فما زال الصحابة يُعرفون بالمهاجري أو الأنصاري، لكن النبي ﷺ سمى التحزب حول هذين الاسمين «دعوى الجاهلية»، لانتقالها من الانتساب المحمود إلى التحزب المذموم، ولأنه أصبح لواء بعد أن كان مجرد انتساب.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذان الاسمان [المهاجرون والأنصار] اسمان شرعيان جاء بهما الكتاب والسنة، وسماهما الله بهما .. وانتساب الرجل إلى المهاجرين أو الأنصار انتساب حسن محمود عند الله وعند رسوله .. ثم مع

---

(١) زاد المعاد في خير هدي العباد (٤٧١/٢).

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٥١٨)، ومسلم ح (٢٤٨٤)، وأحمد ح (١٤٦٣٢)، واللفظ له.

هذا لما دعا كل منهما طائفة منتصراً بها؛ أنكر النبي ﷺ ذلك، وسماها دعوى الجاهلية .. .. إذا كان هذا التداعي في الأسماء والانتساب الذي يحبه الله ورسوله؛ فكيف بالتعصب مطلقاً .. وذلك أن الانتساب إلى الاسم الشرعي أحسن من الانتساب إلى غيره»(١).

والتعصب المذموم كان سبباً في الكثير من المآسي التي تعرض لها المسلمون، فما كان لمسيلمة الكذاب أن يحظى بتصديق واحد من العقلاء لولا هذه الآفة .. طلحة النمري واحد من عقلاء العرب دخل على مسيلمة الكذاب، فسأله عن الوحي الذي يدعيه: «أيأتيك في نور أم في ظُلمة؟ فأجابه مسيلمة: في ظلمة، فقال طلحة : أشهد أنك الكذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذابَ ربيعةَ أحبُ إلينا من صادقِ مضر»(٢).

وقد وقع في تاريخنا بين علمائنا وأفاضلنا صور مذمومة من التعصب شوهت نقاء الصورة، وأفسدت بهاءها، ومن ذلك ما نقله الحافظ الذهبي رحمه الله عن المحدث ابن معين الحنفي رحمه الله ، فقد قال في الإمام الشافعي رحمه الله: «ليس بثقة»، وتعقبه الحافظ بقوله: «ليس من هذا اللفظ الذي كان عن اجتهاد، وإنما هذا من فلتات اللسان بالهوى والعصبية، فإن ابن معين كان من الحنفية الغلاة في مذهبه ؛ وإن كان محدثاً»(٣).

ومثله وقع من محمد بن شجاع بن الثلجي الحنفي رحمه الله، وهو رجل

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٤١/١) بتصرف يسير.

(٢) إمتاع الأسماع، المقريزي (٥٢٩/١٤).

(٣) الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب رداً، ص (٢٩-٣٠).

يصفه الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «وكان مع هنَّاته ذا تلاوة وتعبد»، ومن هناته - رحمه الله - قوله في الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عند أحمد بن حنبل كتب الزندقة»، وكان يقول في أصحابه الحنابلة: «أصحاب أحمد بن حنبل يحتاجون أن يذبحوا»، وكذلك قوله في الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَن كان الشافعي؟ إنما كان يصحب بربرا المغني»[1].

ومثله قول الفقيه الحنفي العلاء بن محمد العجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من سماه شيخ الإسلام كافر مثله»[2]، وليس هذا من الذنوب، فضلاً عن كونه من المكفرات، لكنه التعصب يعمي ويصم.

وقد رد عليه ابن ناصر الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد نطق فيه من لا خبرة له بتراجم الرجال، ولا عبرة له فيما تقلده من سوء المقال، ولا فكرة له فيما تطرق به إلى تكفير خلق من الأعلام بأن قال: من سمى ابن تيمية: شيخ الإسلام؛ كان كافراً، لا تصح الصلاة وراءه، وهذا القول الشنيع الذي نرجو من الله العظيم أن يعجل لقائله جزاه ، قد أبان قدر قائله في الفهم، وأفصح عن مبلغه من العلم، وكشف عن محله من الهوى، ووصف كيف اتباعه لسبيل الهدى»[3].

ولأن التعصب يستولد مثله على الطرف الآخر ، فإن السراج الحمصي

---

(١) ميزان الاعتدال (٣/٥٧٨).

(٢) التعصب المذهبي الإسلامي ، الدكتور خالد كبير علال [نسخة إلكترونية].

(٣) الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، ابن ناصر الدين القيسي الدمشقي، ص (١٩).

رَحِمَهُ اللَّهُ انتصر لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بقصيدة كفّر فيها من كفَّر شيخ الإسلام ، فردّ عليه الفقيه محمد بن زُهرة الدمشقي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكفّره[1]، ليصبح التكفير لعبة يلوكها المتعصبون في كل طرف بلا حساب ولا رقيب.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيت جماعة من المنتسبين إلى العلم يعملون عمل العوام، فإذا صلى الحنبلي في مسجد شافعي، تعصب الشافعية، وإذا صلى الشافعي في مسجد حنبلي، وجهر بالبسملة، تعصب الحنابلة، وهذه مسألة اجتهادية، والعصبية فيها مجرد أهواء يمنع منها العلم.

قال ابن عقيل: رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز ، ولا أقول العوام بل العلماء ، كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يونس ، فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع حتى ما يمكنوهم من الجهر بالبسملة والقنوت، وهي مسألة اجتهادية ، فلما جاءت أيام النظام ، ومات ابن يونس، وزالت شوكة الحنابلة ، استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة، فاستعدوا بالسجن ، وآذوا العوام بالسعايات والفقهاء بالنبذ بالتجسيم.

قال (أي ابن الجوزي) : فتدبرت أمر الفريقين ، فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم»[2].

---

(١) الضوء اللامع ، السخاوي (٧١/١٠).

(٢) الفروع ، لابن مفلح (٢٢/٣)، نقلاً عن السر المصون في أصول الدين لابن الجوزي، وابن عقيل هو أبو الوفاء الحنبلي، صاحب كتاب الفنون المفقود.

ومن صور التعصب ما نقل عن القاضي محمد بن موسى الحنفي، فقد كان يقول: «لو كانت لي ولاية لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية، وكان مبغضاً لأصحاب مالك»[(١)].

وبمثله قال محمد البروي الطوسي الشافعي في حق الحنابلة: «لو كان لي أمر لوضعت على الحنابلة الجزية»، فكان جزاء تعصبه ما ذكره الإمام الذهبي: «فيقال أن الحنابلة أهدوا له مع امرأة صحن حلو مسمومة»، فأصبح ميتاً[(٢)].

ولئن وقع مثل هذا التعصب والجفاء من الفقهاء والمحدثين، فلن يستغرب وقوعه من العوام، كأولئك الظاهرية الذين تمالؤوا على إمام زمانه؛ الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله، فنسبوه إلى الرفض والإلحاد، فلما مات منعوا من دفنه، فدفن في بيته[(٣)]، وقد منعوا أيضاً دفن الشيخ محمد بن عبد الله الشافعي رحمه الله في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل، لأنه شافعي، وليس حنبلياً، وحدثت فتنة بين الطائفتين استوجبت تدخل الخليفة العباسي المقتفي رحمه الله الذي أمر بدفنه فيها[(٤)].

هذه الصور المزعجة من التعصب موجودة في تاريخنا بلا ريب، لكنها لا تعكس بالضرورة حالة للمجتمع المسلم الذي وصل بمجموعه إلى الكثير

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر (٥٦/٧٦).

(٢) العبر في خبر من ذهب، الذهبي (٣/٥٢).

(٣) البداية والنهاية (١١/١٤٦).

(٤) انظر: التعصب المذهبي الإسلامي ، الدكتور خالد كبير علال [نسخة إلكترونية].

من معاني الرقي والتسامي .. رسمه علماء أفذاذ لم يتوقفوا عند مظاهر التعصب للأشخاص والمدارس الفقهية، بل تجاوزوها، صوناً لوحدة المجتمع المسلم وتجانسه، ومن ذلك أن مالك بن انس لقي في الحج أبا جعفر المنصور، فقال له: «إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها - يعني الموطأ - فينسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدون إلى غيره ، ويدعون ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث؛ فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم».

فأجابه الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل أهل بلد لأنفسهم»[1].

ولما وفد فقيه شافعي للتعلم عند أبي يعلى الحنبلي رحمه الله قال له أبو يعلى: «إن هذا لا يصلح، فإنك إذا كنتَ في بلدك على مذهب أحمد، وباقي أهل البلد على مذهب الشافعي لم تجد أحداً يعبد معك ولا يدارسك، وكنتَ خليقاً أن تثير خصومة، وتوقع نزاعاً، بل كونك على مذهب الشافعي حيث أهل بلدك على مذهبه أولى»[2].

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ح (٧٨٠).
(٢) المسودة في أصول الفقه ، ص (٥٤١).

وفي علاج التعصب المذموم نقول: يا معاشر الدعاة، لا يمكن لأحد أن يدعي العصمة لشيخه أو مدرسته ، فكلنا خطاء، ولن يشين بحور الحسنات بعض الرذاذ المتطاير هنا وهناك، فالحسنات تُذهب السيئات، وليس العكس، فأمهلوا على إخوانكم، وإياكم والفجور في الخصومة، فأنتم أبناء مشروع واحد، ويمكن لكل منكم الصعود والترقي في إرضاء الله ونصرة دينه من غير أن يدوس على أكتاف إخوانه أو يطأ ظهورهم وأعناقهم، فالمجد في خدمة الإسلام يتسع للجميع.

وهنا قد يحسن أن ننتقل من التنازع والاختلاف إلى التنافس في خدمة مشروعنا الإسلامي المشترك، إذ لا يحسن بنا أن نهمل مساحة الاتفاق الكبيرة، وأن ننحصر في زاوية خلافاتنا الفرعية والجزئية، وهي في جملتها اجتهادات تخطئ وتصيب.

لعلنا نجد في حديث حذيفة ﵁ المروي في الصحيحين بعضاً من الدروس التي تؤكد لنا إمكان خطئنا وزللنا، وما ينفي عنا وعن مناهجنا العصمة التي نستشعرها ونعيشها في قلوبنا وتصرفاتنا؛ وإن أنكرنا ادعاء ذلك بألسنتنا وأقلامنا.

وهذا الحديث أيضاً درس في تعلم الصبر على إخواننا، والتماس العذر لهم، والتوقف عن نقدهم واتهامهم، يقول حذيفة ﵁: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم.

فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن» [أي غبش وخلل].

وقبل أن نكمل الحديث نلحظ أن النبي ﷺ يتحدث في الفقرة الأخيرة عن خير قادم في أمته، ويسجل عليه أنه ليس خيراً محضاً كذاك الخير الذي جاء به ﷺ، فهو ليس معصوماً، فقد مضى المعصوم ﷺ إلى ربه، وبقي متبعوه، وفيهم السابق والمحسن والمقصر.

فإذا انقضت النبوة المعصومة المسددة من السماء، فقد غدونا في زمن الاجتهادات البشرية التي تصيب وتخطئ، ولا يجوز لمنهج ما أن يدعي هذه العصمة لشخصه أو منهجه أو مدرسته الدعوية.

إذن الخير الموعود تشوبه شوائب ونقائص « دخن»، وهي لا تخرجه عن سمة الخيرية، لأنه في الجملة كذلك، فهو خير لغلبة الخير والهدى عليه.

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيراً خالصاً، بل فيه كدر، وقيل: المراد بالدخن الدخان، ويشير بذلك إلى كدر الحال، وقيل: الدخن كل أمر مكروه»[1].

يقول حذيفة: «فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن.

قلت: وما دخنه؟

قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر».

فهؤلاء الذين يعتبرهم النبي ﷺ خيراً فيهم بعض دخن من شر وزلل

---

(١) فتح الباري (١٣/٣٦).

وخطأ، أي كحال جميعنا؛ جماعات ودعاةٍ وطلابِ علم وعوام، فما يخلو واحد منا من خلل يبعُد فيه عن سنة النبي ﷺ ، أو يهدي فيه بغير هديه القويم، فيصدق فيه قوله ﷺ: «قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر»[١].

وهذا الدخن والخلل الذي سيخالط الخير مردود على أصحابه، مستلزم التقويم والتوجيه، لكنه لا يخرجهم من سياق الخيرية الغالبة على عملهم «وإنما العبرة بكثرة المحاسن»[٢]، ولا يجعل أصحابه في عداد الأشقياء الذين يمكرون بالإسلام وأهله بالليل والنهار كدعاة العلمانية والليبرالية والخوارج وأضرابهم، فهؤلاء وأمثالهم يصدق فيهم تمام الحديث، وفيه: «فقلت: هل بعد ذلك الخير [الذي فيه دخن] من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها».

فقلت: «يا رسول الله صفهم لنا. قال: نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»[٣].

فهل يسوغ لبعضنا أن يتهم إخوانه في طريق الدعوة بأنهم شر من اليهود والنصارى؟ أو أنهم أخطر من دعاة الزندقة والإلحاد؟ وهل هذا من الإنصاف والعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض؟

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٦٠٦)، ومسلم ح (١٨٤٧)، واللفظ له.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٤/ ٤٥٠).

(٣) الحديث السابق.

إنصاف المخالف

لا تنفك مسيرة الداعية عن خصومة الرافضين لدعوته، وتربص المناوئين لها، فهو معهم في صراع طويل تفرضه طبيعة العلاقة المحتومة بين الحق والباطل.

وخلال خصومة الداعية مع هذا أو ذاك؛ فإنه مطالب بامتثال الكثير من القيم الإسلامية في معاملته مع كارهي دعوته، ومن أهمها؛ الإنصاف والعدل، الذي أمر الله به ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ (النحل: ٩٠)، وحذر من ضده ، الذي هو الجور والظلم: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»[١]، فليس الداعية ممن إذا خاصم فجر في الخصومة، وظلم في الحكم، كابر عن قبول الحق.

إن من المفهوم والمعقول أن يظن الداعية بنفسه أنه أصاب الحق، وأن يظن بالآخرين الخطأ أو الزلل، لكن ذلك لن يجيز الوقوع في ظلم الآخرين وتسفيههم حتى عندما يصيبون، وكما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق»[٢]،

لذا يفترض فينا - معاشر الدعاة - أن لا نتجاوز في خلافاتنا ضوابط الخلاف والنزاع التي وضعها الإسلام، ومنها الاعترافُ بحق المخالف وإنصافه، وعدمُ التنكر لخيره ، والإذعانُ للحق إذا جرى على لسانه، إذ ليس

(١) أخرجه مسلم ح (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود ح (٤٦١١)، والبيهقي في سننه (٢٠٩١٦)، وصحح الألباني إسناده في صحيح أبي داود.

من العدل أن نحدق إلى المخالفين بمنظار الشر المحض، وأن نعتقد أن ما يقوله المخالف هو الباطل الصراح، وفي المقابل ننظر إلى الموافقين على أنهم الخير المطلق، ونرى قولهم الحق الذي لا معقب عليه، فالناس وأقوالهم وسلوكياتهم لا يمكن الحكم عليها من خلال اللونين الأبيض أو الأسود، فليس في الناس من هو خير لا تشوبه شائبة، ولا من هو بلاء مستطير تجتمع فيه خصال الشر ونوازعه جميعاً.

والحق أن الألوان ليست الأبيض والأسود فقط، بل بين هذين اللونين الكثير من الألوان؛ مما يتأرجح بين هذا وذاك، ووفق هذا التعدد ينبغي أن ننظر إلى من حولنا من الموافقين والمخالفين، حتى لا نجانب الحقيقة، فنقع في ظلم الآخرين أو تقديسهم.

وقد علمنا القرآن الكريم النصَفَة في الحكم على الآخرين، وإن اختلفنا معهم وتباعدت قلوبنا عنهم أو تباغضت وتنافرت ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون﴾ (المائدة: ٨)، فالكراهية لا تسوغ الظلم والجور.

لذا لما بعث النبيُ ﷺ عبدَ الله بن رواحة رضي الله عنه لخرص ثمار اليهود في خيبر واستيفاء حق المسلمين منها؛ أخذ منهم الحق المعلوم، ولم يتجاوزه، ثم قال لهم: «أنتم أبغض الخلق إليّ، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم» ، فقالوا: بهذا قامت

السموات والأرض[1].

وهذا النهج العادل في الحكم على المخالفين ليس أمراً نادراً دفعت به الصدف، بل هو منهج قرآني مستقر لا تخطئه عين ألفت التأمل في آياته التي كثيراً ما رأيناها تتحدث عن الكافرين فتنصفهم، رغم أنهم حطب جهنم ووقودها؛ فتَلبُسُهم بحال الكفر لم يحل دون ذكر ما عندهم من الخصال الجميلة، ومن ذلك ما جاء عن أمانة بعض أهل الكتاب: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطارٍ يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ (آل عمران: ٧٥)، ففيهم الأمين، وكذلك المماطل.

ولما ذكر الله موطن آخر ابتداع أهل الكتاب للرهبانية قبل الإسلام وعزوفَ قسسهم عن الزواج؛ بيَّن الأثر السيئ لهذه البدعة التي كانت باباً عظيماً من أبواب الفساد والتحلل الأخلاقي الذي أزكم أنوف رواد الكنائس، ولكن رغم ذلك فإن القرآن أثبت الصلاح لبعض هؤلاء الرهبان ، فقال: ﴿ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ (الحديد: ٢٧)، فبعض من ترهبن قبل الإسلام سيؤجر مع المؤمنين ، لأن ترهبنه كان في طلب مرضاة الله؛ خلافاً للكثيرين ﴿وكثيرٌ منهم فاسقون﴾.

وكذا أثنى النبي ﷺ على النجاشي بما فيه من خِلال الخير، وهو يومئذ على الكفر، فقال لأصحابه: «إن بالحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد، فلو

(١) أخرجه مالك في موطئه ح (١٤١٣)، وأحمد في مسنده ح (١٤٩٥٤)، وقوى إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢٣/٢١٠).

خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجاً»[١]، فالثناء على الكافر بما فيه من خير وصواب حق له، ولن يعني أبداً تسويغ كفره، ولا مدحة دينه.

وإذا كان الشيطان هو المصدر الرئيس للشرور والآثام، فهو مفتاح الباطل وعنوانه ، لكنه صدق ذات مرة، فحُسبت له، فقال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «صدقك وهو كذوب»، وذلك عندما قال له الشيطان: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح»[٢]، وفي الحديث من الفوائد «أن الكافر قد يصدِّق ببعض ما يصدِّق به المؤمن، ولا يكون بذلك مؤمناً، وبأن الكذاب قد يصدُق»[٣].

ولما تحدث القرآن عن الخمر والميسر ؛ وهما أم الخبائث وأبوها؛ أعلن أنهما من سيء المنكر والإثم، ولكنه أيضاً أخبر أن فيهما منفعة ثانوية للناس، لكنها مصلحة مرجوحة أهدرتها مفاسدهما الكثيرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (البقرة: ٢١٩)، فما فيهما من المفاسد التي لا تحصى، كإفساد الدين، وإذهاب العقل، لم يمنع القرآن من ذكر قليل المنفعة فيهما بالاستفادة من تكثير الأموال بهما، لكنها منفعة منقوصة لا توازي ما ينتج عنهما من تدمير للفرد والأسرة والمجتمع.

وفي درس نبوي بليغ للإنصاف وتقبل الحق من غير أهله، قبِل النبي ﷺ

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٣٢١/١).
(٢) أخرجه البخاري ح (٢٣١١).
(٣) فتح الباري (٤٨٩/٤).

من يهودي نصيحته للمسلمين، فقد أتاه حبر من أحبار اليهود، فقال: يا محمد، نِعمَ القوم أنتم لولا أنكم تشركون؟ قال: «سبحان الله! وما ذاك؟» قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة.

قالت عائشة رضي الله عنها: فأَمهل رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «إنه قد قال، فمن حلف فليحلف برب الكعبة».

فقال الحبر: «يا محمد، نِعمَ القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله نداً». قال: «سبحان الله وما ذاك؟» قال: «تقولون ما شاء الله وشئت».

فأَمهل رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «إنه قد قال، فمن قال: ما شاء الله؛ فليفصل بينهما: ثم شئت»[(١)].

إن مجانبةِ العدل والولوغ في الظلم والإسفاف مع المخالف؛ مستنكر من كل من فعله، كائناً من كان؛ مسلماً أو كافراً، فالقيم ثابتة، ولا تقبل التجزئة والمحاباة، فحين أسلم الحبر عبد الله بن سلام سأل النبيُّ ﷺ اليهودَ عنه قبل أن يعرفوا بإسلامه ؛ فقالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا ، وأَخْيَرنا وابن أَخْيَرنا.

فلما علموا بإسلامه قالوا: «شرنا وابن شرنا»[(٢)]، ووقعوا فيه وفي والده، وانقلب مدحتهم له إلى سباب وشتائم لمجرد أن خالفهم في الدين، فما هكذا تكون خصومة العقلاء.

ولأن فقد الإنصاف حال الخلاف خلق ذميم فقد حذر النبي ﷺ من

(١) أخرجه أحمد ح (٢٧٠٩٣)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٤٥/٤٣).
(٢) أخرجه البخاري ح (٣٣٢٩).

النساء، فقد قال لهن: «أُريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء؛ يكفرن» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»(١).

وعلى هذا الأدب درج أصحاب النبي ﷺ ، فاعترفوا لمخالفيهم بما عندهم من صور إيجابية، فالمسلم فضلاً عن الداعية لا يستحي من الإقرار بالحق لأصحابه المخالفين له، فالحقيقة مصونة محترمة من أي جهة صدرت، قال المستورد القرشي ﷺ وهو عند عمرو بن العاص ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»، فقال له عمرو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله ﷺ.

فقال عمرو ﷺ: «لئن قلتَ ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلَمُ الناس عند فتنة، وأسرعُهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فرة، وخيرُهم لمسكينٍ ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ جميلة: وأمنعُهم من ظلم الملوك»(٢).

فهذه شهادة من النبي ﷺ ثم صاحبه عمرو ﷺ للروم، وهم أعداء المسلمين حينذاك، لكنها الحقيقة التي لا يحجبها كراهية ولا شنئان ، وهي ليس مادة مبذولة للمساومة في سوق الأفكار، فالداعية رائده الحق، كائناً من كان قائله.

ومن بعدهم أقر الإمام ابن تيمية رحمه الله لبعض الظلمة والمبتدعة ما

---

(١) أخرجه البخاري ح (٢٩)، ومسلم ح (٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٨٩٨).

أحسنوا فيه، ولم يمنعه مخالفته الشديدة لهم بالاعتراف بفضلهم، فقال: «وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار، فأسلم على يديه خلق كثير، وانتفعوا بذلك، وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خير من أن يكونوا كفاراً، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار، ويكون آثماً بذلك؛ ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً، فصاروا مسلمين؛ وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير»[1].

ومضى رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ما لو قاله أحد اليوم لتعرض لأنواع النكير والتخوين والتشكيك: «والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء، فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأدين، والكذب والفجور فيهم أقل منه في الرافضة، والزيدية من الشيعة خير منهم، وأقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج.

ومع هذا فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرام مطلقاً .. بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون هم به ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً»[2].

ومثل هذا الإنصاف للمخالف نقرأه عند الإمام الذهبي وهو يتحدث عن

---

(١) دقائق التفسير (١٤٣/٢).

(٢) منهاج السنة (١٥٧/٥).

غلاة المبتدعة: «غلاة المعتزلة، وغلاة الشيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن»[١].

وحين أسمع عن بعضهم يقيم حفلة بمناسبة حرقه لكتاب «فتح الباري»، أو آخرين جمعوا الكتب من مكتبات المساجد، وأحرقوها، بذريعة أن أصحابها أخطؤوا في بعض المسائل ... حين أرى ذلك أو أسمع عنه ، أوقن أن هؤلاء لم يتعلموا الإنصاف، ولم يسمعوا عما قاله الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ عن القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ وكتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، قال: «تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب "الشفا" لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة، عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق، والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بـ"شفائه"، وقد فعل»[٢]، فهاهنا يذكر الإمام ملاحظاته على الكتاب ومؤلفه، ولا يمنعه ذلك من الشهادة له بالنفع والنفاسة، وطلب الثواب.

وفي المقابل فإن الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ أستاذ الإنصاف على مر العصور ينقد إخوانه في المنهج، فنقد الذات دليل محبة وعنوان ولاء للإسلام، وبرهان سمو صاحبه عن التعصب، يقول الذهبي عن الشيخ عبد الساتر

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/٤٥٠).

(٢) المصدر السابق (١٥/٤٩).

المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعني بالسنة، وجمع فيها، وناظر الخصوم، وكفَّرهم، وكان صاحب حزبية وتحرق على الأشعرية، فرموه بالتجسيم، ثم كان منابذاً لأصحابه الحنابلة، وفيه شراسة أخلاق مع صلاح ودين يابس»[1]، فأثبت له فضائله وحسن اتباعه للسنة، وذكر في مقابله ما فيه من قبائح، وهذا هو عين الإنصاف.

(١) العبر في خبر من ذهب (٣/٣٤٠).

أنواع الخلاف والموقف من زلات العلماء

العلماء نور يشرق على الأرض في كل وقت وحين، هم ورثة الأنبياء، وحملة العلم الشريف .. مِن كل خلفٍ عُدوله، ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين؛ وبهم تدوم النعمة، وينجلي النور من الظلمة، ويحيا الخلق، ويبين السبيل، أوجب الله طاعتهم بعد طاعة نبيه ﷺ : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩)، وقد فسر أهل العلم قوله: ﴿أولي العلم﴾ بأن مقصوده العلماءُ، وهم الربانيون الذين يوضحون للأمة سبيل ربها، ويضيئون لها طريقها[١].

لكن أهل العلم فرقوا بين طاعة الرسول المعصوم ﷺ وطاعة العلماء الذين هم كسائر البشر يصيبون ويخطئون رغم ما أوتوا من نور العلم وبراهينه، فكلام الله وكلام رسوله المعصوم ﷺ مقدم على قولهم، فلا يطاعون إذا خالفوا هديَهما.

لاريب أن ثمة الكثير من المسائل البينات الواضحات المحكمات التي لم يختلف فيها المسلمون لجلائها وظهور أدلتها، وهي ميدان رحب ينبغي أن يقصده الدعاة ويستبق طلاب العلم إليه بالبيان والتبيين والدعوة والترغيب والترهيب.

وحين يقع الخلاف في هذه الأصول المحكمات فإن هذا الخلاف مذموم لتحريفه الدين وتمزيقه صف المسلمين ، وهو ما وقعت به الفرق الغالية التي خالفت أهل السنة في مسائل أصول الدين ، فههنا يحسن بأهل

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/٩٨٩).

الحق منازعة أهل الباطل ومخالفتهم، والتمايز عنهم، لأن المخالف لعامة المسلمين في المحكمات وقع في الفرقة والتنازع المذموم الذي حذر منه القرآن الكريم ﴿ولا تكونوا من المشركين (٣١) من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ (الروم: ٣١-٣٢).

ولذا فإن العلماء ذموا وبدّعوا المعتزلة بتقديمهم العقل على النقل، وشنعوا على الخوارج حكمهم على المسلمين بالكفر واستحلال دمائهم، وذموا القرآنيين لرفضهم الاحتجاج بالسنة النبوية؛ اكتفاء بالقرآن الكريم، وكذلك الشأن في الرافضة الذين كفَّروا الصحابة الذين رضي الله عنهم، ونصبوا العداوة لسلف الأمة وخلفها، فأمثال هذه المسائل من مسائل الأصول التي لا يسع مسلماً الاجتهاد والخلاف فيها، فالمخالف فيها للأمة مبتدع مأزور غير مأجور.

وفي مقابله ثمة مسائل من فروع الدين اختلف فيها العلماء لخفاء الدليل فيها واحتماليته أو اختلافهم في صحته وضعفه، أو عمومه وخصوصه، فعلى قصير الباع أن يمسك عن الخوض فيها، ولا يجعل من نفسه حكماً بين العلماء، فيشنع على قول بعضهم، وينتصر لآخرين ؛ لميله إليهم ، أو لموافقة اجتهادهم لرأيه وهواه، وقد يكون ترجيحه هو الصواب، وقد يكون الخطأ.

والمسائل التي اختلف فيها الفقهاء على مراتب، منها ما يسميه العلماء الخلاف السائغ الذي يقع بين العلماء في مسائل فروع الدين العلمية والعملية، هو على نوعين، ولكل منهما حكمه في مسائل الدعوة وإنكار المنكر:

الأول: الخلاف القوي، الذي تتكافأ الأدلة بين فريقيه، ومن أمثلته جواز كشف وجه المرأة، ووجوب الزكاة في الحليِّ، وحكم تارك الصلاة تهاوناً، وثبوت الشهر واختلاف المطالع، وغيرها من المسائل.

والثاني: هو الخلاف الضعيف، وهو القول الذي يختلف فيه العلماء، ولقول الفريق الأضعف حظ من النظر، أو أنه يستند إلى دليل ضعيف أو مرجوح أو منسوخ، والراجحُ الواضح غيرُه.

ومن أمثلته: النهي عن لبس الذهب المحلق، وإباحة المعازف والإيقاعات الكمبيوترية، وتحريم زواج المسلم من الكتابية، وتحليل الربا خارج بلاد المسلمين.

وفي مقابل هذا الخلاف السائغ، فإن ثمة نوعاً آخر من الخلاف، وهو الخلاف غير السائغ.

أولاً : الخلاف الشاذ (غير السائغ)

الخلاف غير السائغ على نوعين، فمنه الصورة التي ذكرناها قبلُ، أي مخالفة الفرق المبتدعة لأصول الدين، ونختصر الحديث عنها لعدم تعلقها بموضوعنا الذي ينحصر فيما يقع من خلاف بين الدعاة من أهل السنة والجماعة.

والصورة الثانية من صور الخلاف غير السائغ هو الخلاف الشاذ، وهو ما نريد التوسع فيه، ونعني به مخالفة عالم أو قلة نادرة منهم لقول سائر العلماء ، كما في تجويز بعض الفقهاء نكاح البنت من الزنا، أو القول بجواز المتعة أو إتيان الزوجة في دُبرها، أو تساوي دية الرجل والمرأة، وأمثاله مما يسميه معاذ بن جبل رضي الله عنه زيغة الحكيم أو مشتهرات العالم التي تصبح علماً على قائلها لانفراده بها عن جماهير العلماء، فإذا قيل: فلان، قالوا: صاحب الفتوى بكذا وكذا، إذ لم يقلها غيره، فصارت عنواناً يدل عليه، ولو كانت فتواه حقاً لما انفرد بها عن آلاف الفقهاء في عصره أو في غيره من العصور.

والموقف من هذا الخلاف نستبينه من هدي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال عمر رضي الله عنه لبعض جلسائه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ .. يهدمه: زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[(١)].

وقال معاذ رضي الله عنه لأصحابه: «أحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم»، فقيل له: وما يدريني أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة؟ فقال معاذ: اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال

(١) أخرجه الدارمي ح (٢٢٠).

فيها: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعتَه، فإن على الحق نوراً»[١].

وأما الصحابي الجليل تميم الداري ﵁، فيسمي هذا الرأي الشاذ بـ«زلة العالم»، ويحذر منها بقوله: «اتقوا زلة العالِم .. يزلُّ بالناس فيؤخذ به ، فعسى أن يتوب العالم ، والناس يأخذون به»[٢].

ونقل ابن عبد البر ﵁ عن الحكماء تشبيههم زلة العالم بانكسار السفينة، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ويل للأتباع من عثرات العالم.. يقول العالم من قِبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي ﷺ، فيدَع ما كان عليه»[٣].

فإذا ما شذَّ فقيه من الفقهاء بمسألة ما؛ فإنه لا يحل لمسلم يتقي الله أن يأخذ برأيه ويدعَ ما أطبق عليه المسلمون بخلاف هذا الرأي، فإنه لا يقبل الشاذ من الأقوال إلا صاحب الهوى، المتلاعب بدينه، وقد قال ابن مسعود ﵁: «لا يقلدنَّ أحدكم دينه رجلاً، إنْ آمن آمن، وإنْ كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر»[٤]، فالمسائل التي يشذ بها أصحابها ينكر فيها عليهم وعلى من تابعهم فيها، وليس لاجتهاد العالم فيها وجه معتبر، لأن شذوذه دليل على مخالفته فيها للدليل الذي هُدي إليه مخالفوه الكُثر، وأن تأويله غير مستساغ ولا مقبول .. قال معاذ ﵁ حين حضرته الوفاة: «اطلبوا العلم بعدي عند

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي (٢٥٣).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي (١/٢١١).
(٣) أخرجه البيهقي في مدخل السنن الكبرى ح (٦٨٧).
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ح (٨٧٦٤).

أربعة نفر: ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان وابن سلام، فإن أعيوك به فسائرُ الناس به أعيا، واحذر زلة العالم .. كلمةَ الضلالة يلقيها الشيطان على لسان أحدهم»[١].

وقال عبد الرحمن بن مَهدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق حديثه عن التقليد: «العالم قد يزلُّ ولابد ؛ إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وأن ينزل قوله منزلة قول المعصوم، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرموه، وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم، فإنهم يقلدون العالم فيما زلَّ فيه وفيما لم يزلّ فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولابد، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولابد لهم من ذلك؛ إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولابد»[٣].

وقال الذهبي في سياق حديثه عما انفرد به داود الظاهري من فتاوى شاذة: « لا ريب أن كل مسألة انفرد بها، وقطع ببطلان قوله فيها، فإنها هدر، وإنما نحكيها للتعجب ... فنحكي قول ابن عباس في المتعة ، وفي الصرف، وفي إنكار العول ، وقول طائفة من الصحابة في ترك الغسل من الإيلاج ،

---

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/٣١٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (٢/١٠٥).

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ١٩٢).

وأشباه ذلك، ولا نجوز لأحد تقليدهم في ذلك»[١].

ومن أمثلة تعامل الصحابة مع الاجتهادات الشاذة ما وقع لقدامة بن مظعون ﷺ وأصحابه حين استحلوا شرب الخمر ، لغلطهم في فهم معنى قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ (المائدة: ٩٣)، فقد فهموا أن الإثم مرفوع في شربها عمن اتقى وعمل الصالحات، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب ﷺ اتفق هو وعلي بن أبي طالب ﷺ وسائر الصحابة رضي الله عنهم على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا، وقال عمر ﷺ لقدامة ﷺ: «أخطأتَ التأويل يا قدامة، إذا اتقيتَ الله؛ اجتنبتَ ما حرم الله»[٢]، وفي رواية: «أخطأتْ إستُك الحفرة، أمَا إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر»[٣]، وهكذا فالخلاف الشاذ ينكر على فاعله ومجتهده، لأنه لا مسوغ له، بل أتى بخلاف الدليل الصحيح.

إن متابعة العلماء في زلاتهم وموافقتهم فيما حرم الله؛ يذكِّرنا بما نعاه الله على أهل الكتاب من اتباع أحبارهم ورهبانهم ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة: ٣١).. سمع هذه الآية عدي بن حاتم الطائي ﷺ، وهو يومئذ على النصرانية، فقال مستنكراً: إنهم لم يكونوا يعبدونهم. فقال

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/١٠٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ح (١٧٠٧٦)، والبيهقي في سننه ح (١٧٥١٦).

(٣) لم أرها مسندة، وقد ذكرها ابن أبي العز في شرح الطحاوية ، ص (٣٠٥).

ﷺ: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ فقلتُ: بلى. قال: «فتلك عبادتهم»[١]، فاتباع أي أحد في تحليل الحرام وتحريم الحلال نوع من العبودية له، لأن المشرع هو الله وحده ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ (الأعراف: ٥٤).

لكن هذا الخطأ الذي وقع فيه العالم لا يمنع من الانتفاع بعلمه، ولا يحل عرضه، ولا يجيز الطعن فيه وتقبيحه ، فهو لأهل الاجتهاد والفتوى خطأ فحسب، قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة ولا الأخذ بها تقليداً له؛ وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع، ولذلك عُدَّت زلة، فلو كانت مُعتداً بها لما جُعلت لها هذه الرتبة، ولا نُسب إلى صاحبها الزلل فيها، كما لا ينبغي أن يُنسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يُشنَّع عليه بها، ولا يُنتقص من أجلها، أو يُعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتاً، فإن هذا كله خلاف ما تقتضيه رتبته في الدين»[٢].

وعندما يخطئ هؤلاء العلماء، فإنه لا يُحِل للناس أن يلوكوهم بألسنتهم تشهيراً وتقبيحاً، ولا أن يتصيدوا عثراتهم ؛ فإنهم أئمة الهدى ومصابيح الدُنا، ولا يلتمس زلتهم ويتصيد عثرتهم إلا جاهل بقدرهم، أو متعالم مغرور لا يرى طريقاً للمجد الشخصي إلا بانتقاص قدرهم والقفزِ فوق هاماتهم، وما درى المسكين أن لحوم هؤلاء العلماء - كما يقول الإمام ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ-

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ح (٢١٨)، والبيهقي في السنن ح (٢٠٨٤٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (٣٢٩٣).
(٢) الموافقات (١٧٠/٤).

«مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراءِ مرتع وخيم، والاختلاق على من اختاره الله تعالى منهم لنعش العلم خُلق ذميم»[١].

وقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بمكارم الأخلاق وجميل الخصال، ومنها التماس المعاذير للمخطئين، وقبول اعتذارهم، فهو من قال لمن سأله: كم أعفو عن الخادم؟ : «كل يوم سبعين مرة»[٢] ، ذلك أن البشر من طبعهم الخطأ، وأنَّا كلنا ذوو خطأ، ونحب من الآخرين أن يغفروا خطأنا وينسوا زلتنا.

من الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط
ولوِ انتقَدْتَ بَني الزّما   نِ وجَدتَ أكثرَهُم سقَطْ[٣]

والعلماء والدعاة وخواص الناس هم كغيرِهم من البشر، يخطئون وينيبون، وكما قال الشيخ ابن تيمية: «ليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفوراً لهم، بل ليس من شرطهم تركُ الصغائر مطلقاً، بل ليس من شرطهم تركُ الكبائر أو الكفر الذي تعقبه توبة!»[٤].

والدعاة والصالحون؛ وإن تساووا مع غيرهم في ارتكاب الخطأ والزلل؛

(١) تبيين كذب المفتري ، ابن عساكر (٢٩).
(٢) أخرجه أبو داود ح (١٩٤٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٣) مقامات الحريري، ص (٢٣٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٦٦/١١).

فإنهم أولى من غيرهم بالمسارعة إلى التوبة، وأولى أيضاً بأن تنسى زلتهم، وأن تستر ولا تشاع؛ لكبير فضلهم، وعظيم سابقتهم، وغلبة محاسنهم، وقد قال ﷺ: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود»[١].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذوو الهيئات الذين يقالون عثراتهم: الذين ليسوا يعرفون بالشر، فيزل أحدهم الزلة»[٢] ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ (النجم:٣٢).

ويستشهد الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسألة بحديث يشهد لبالغ فقهه: «إذا بلغ الماء قدر قلتين لم يحمل الخبث»[٣]، فالحديث يفيد طهورية الماء الكثير، وعدم تأثره بقليل الدنس الذي لا يغير طعمه أو ريحَه أو رائحته، فيقيس رحمه الله أحوال الرجال على الماء بقوله: «من قواعد الشرع والحكمة؛ أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يُحتمل منه ما لا يُحتمل من غيره، ويُعفى عنه ما لا يُعفى من غيره ، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث؛ بخلاف الماء القليل، فإنه يحمل أدنى الخبث ... وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم؛ أن من له ألوف الحسنات فإنه يسامَح بالسيئة والسيئتين ونحوِها»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٣٧٥)، وأحمد ح (٢٤٩٤٦).

(٢) السنن الكبرى ، البيهقي (٨/٣٣٤).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٦٣)، وأحمد ح (٤٦٠٥)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٨/٢١١).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/١٦٧-١٦٨).

وهذا الأدب الرفيع في تجاوز أخطاء أهل الفضل؛ أسس له النبي في وصاته بالزوجة حال النفرة والشقاق: «لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة [أي لا يبغض]، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»(١)، فالفضائل تستر المعايب، والحسنات يذهبن السيئات؛ إلا عند قوم شابهوا الذباب، فلا يقعون إلا على السيئات، ولا يرون إلا المثالب، والله يقول: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ (هود: ١١٤).

قال الملا علي القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه [أي قوله: «لا يفرك..»] إشارة إلى أن الصاحب لا يوجد بدون عيب، فإن أراد الشخص بريئاً من العيب يبقى بلا صاحب، ولا يخلو الإنسانُ سيما المؤمنُ عن بعض خصال حميدة، ينبغي أن يراعيَها»(٢).

ومثل هذا الأدب نجده فيما صنعه ﷺ مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حين أرسل إلى قريش يفشي لهم أسرار جيش النبي ﷺ القادم إلى مكة لفتحها، فأطلع الله نبيه ﷺ على صنيع حاطب، فدعاه وسأله، فاعتذر حاطب رضي الله عنه لفعله: «والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله؟ أردتُ أن يكون لي عند القوم يدٌ يَدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله.

فقال النبي ﷺ: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً .. أليس من أهل بدر؟ .. لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو

(١) أخرجه مسلم ح (١٤٦٩).
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/٢١١٨).

فقد غفرت لكم»[(١)].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في حديث حاطب بن أبي بلتعة من الفقه؛ أن الإمام إذا ظهر له من رجل من أهل السِتر؛ أنه قد كاتب عدواً من المشركين ينذرهم ببعض ما أسره المسلمون فيهم من عزم، ولم يكن الكاتب معروفاً بالسفه والغش للإسلام وأهله، وكان ذلك من فِعله هفوةً وزلة من غير أن يكون لها أخوات؛ فجائز العفو عنه ، كما فعله الرسول بحاطب من عفوه عن جرمه بعدما أُطلع عليه من فعله»[(٢)].

ومثل هذا الأدب النبوي امتثلته عائشة رضي الله عنها مع حسانَ بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فرغم خوضه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الإفك مع الخائضين؛ فإن الصِّديقة لم تنس له سابقتَه في الإسلام، ولا حسنَ صحبته للنبي ﷺ، فقد سمعتْ عروةَ ابنَ أختها ينال من حسان، فقالت: «يا ابن أختي دعه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ».

قال عروة: (كانت عائشة تكره أن يُسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدَه وعِرضي

لعِرض محمدٍ منكم وِقاء)[(٣)].

وعلى هذا المنهج القويم سار سلفنا الكرام في تعاملهم مع العلماء الذين شذوا ببعض المسائل على خلاف ما عليه جمهور المسلمين وعامتهم، فما زال العلماء والمصلحون يعذرون أصحاب السابقة والفضل

(١) أخرجه البخاري ح (٣٩٨٣)، ومسلم ح (٢٤٩٤).
(٢) شرح ابن بطال (٥/ ١٦٢).
(٣) أخرجه البخاري ح (٤١٤١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

في أخطائهم، ويمنعون من الخوض فيها، ويحذرون من إشاعتها بين العامة، فتحطيم القدوات ونشر الغسيل لا يأتي بخير، ومن ذلك قول الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمته لقتادة السدوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعُه واتباعُه؛ يُغفر له زلـلُه، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»[١].

وقد نبه المحققون على ضرورة الاعتذار لأهل العلم في خطئهم وإحسانِ الظن بهم، والتيقنِ أن خطأهم لا يعدو أن يكون اجتهاداً مغفوراً لم يوفقوا فيه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة، ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديثَ ضعيفةٍ ظنوها صحيحةً، وإما لآياتٍ فهموا منها ما لم يُرَدْ منها، وإما لرأيٍ رأوه، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم»[٢].

ولئن حرمت غيبة المسلم فإن غيبة العلماء أعظم، والوعيد لمن تطاول عليهم أكبر، أما سمع البطالون قول النبي ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[٣]، فلئن قيل هذا بحق عامة المسلمين؛ فإنه يقال في علماء الأمة وورثة الأنبياء

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/٢٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١٩١).

(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٨٧٨)، وأحمد ح (١٣٣٤٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

من باب أولى؛ وبخاصة أن إشاعة أخطائهم وانتقاصهم توهينٌ لصف المسلمين وخذلان لهم بإشاعة الخطأ الذي يقع فيه خيارهم : ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (النور : ١٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ الله في سياق كلامه عمن أخطأ من الأئمة: «وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول ﷺ ، فقالوا بمبلغ علمهم، والحقُ في خلافها؛ لا يوجب اطراح أقوالهم جملة، وتنقُّصَهم، والوقيعةَ فيهم ؛ فهذان طرفان جائران عن القصد، وقَصْدُ السبيل بينهما، فلا نُؤثِّم، ولا نُعصِّم ... ومَن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قَدَمٌ صالح وآثارٌ حسنةٌ، وهو من الإسلام وأهله بمكان؛ قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده ، فلا يجوز أن يُتَّبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته ومنزلته من قلوب المسلمين»[(١)].

وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ الله: «وإنما يمدح العالِم بكثرة مالَه من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها، وقد يُغفر له باستفراغه الوُسع في طلب الحق»[(٢)].

وهكذا فإن الإسلام يعلمنا حسن التجاوز عن أخطاء الآخرين، والستر عليها، وبخاصة إذا صدرت من أهل الفضل والخير، قال ﷺ : «يا معشر من

(١) إعلام الموقعين (٣/٢٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/٢٨٥).

آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتِهم يتَّبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[1].

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٨٨٠)، والترمذي ح (٢٠٣٢) وأحمد ح (١٩٧٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

ثانياً: الخلاف السائغ

انتهينا من الخلاف الشاذ وآدابه، ليصل بنا الحديث إلى النوع الأعم الأشهر من نوعي الخلاف ، ويسميه العلماء الخلاف السائغ، ومعناه يدور حول سهولة أمره واستحسان حاله، كما يسمى الشراب سائغاً، إذا سهل مدخله في الحلق، فلم يغصَّ به شاربه، ومثله لا يَغُصُّ بالقول السائغ مخالفه.

وهذا النوع هو ما يقع فيه الدعاة والعلماء، فما زالوا في كل عصر يختلفون، ومن رام رفع خلافهم وجمعهم على رأي واحد فقد طلب محالاً، وكلف نفسه ما لم يتحقق في تاريخ المسلمين القريب والبعيد، فالمسلمون كانوا وما زالوا متعددين في اجتهاداتهم ومذاهبهم الفقهية ومدارسهم الدعوية.

وعلى هذا يحمل خلاف الأئمة الأعلام، كالأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالكٍ والشافعيِ وأحمدَ بنِ حنبل، ومثله اختلافات غيرهم من علمائنا الكرام أو دعاتنا أو مدارسنا وجماعاتنا الدعوية في كل عصر وحين.

وهذا النوع من الخلاف يكثر بين المسلمين، وينحصر في فروع الدين التي اختلف العلماء في تفاصيلها أو عِلَّتها، لاختلافهم في ثبوت نصوصها؛ تصحيحاً وتضعيفاً، أو لظنية دلالة النصوص الموثَّقة عليها، فكل منهم يؤمن بالنصوص ويُجِلُّها، لكنهم يختلفون في فهم النص أو توثيقه بحسب ما يوفِقه الله إليه وما يؤتيه من البصيرة والفقه، فقد شاء الله بحكمته أن يختلف الناس في قدراتهم وأفكارهم وأفهامهم ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى

فلا تكونن من الجاهلين﴾ (الأنعام: ٣٥).

والخلاف السائغ بين المسلمين في فروع دينهم يبقى مقبولاً ما سلم أصحابه من التنازع والشقاق الذي يخرج بالناس عن آداب الديانة، ويفضي إلى التفسيق والتبديع والتعصب، وهذا الأخير ؛ أي التعصب الأعمى للمجتهدين المختلفين أدى لإفساد علاقة المسلمين ببعضهم ؛ بتطاول بعضهم على بعض ، مما أوهن المسلمين وفرق كلمتهم ، وأغرى بهم عدوهم، كما قال الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أسباب تسلط التتار على المشرق الإسلامي، فذكر أن منها: «كثرةُ التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرِها ... وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهى الله ورسوله عنه، وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل - المتبعين الظن وما تهوى الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله - مستحقون للذم والعقاب ... فإن الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين، والفرع المتنازع فيه من الفروع الخفية، فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع»[1].

أما إذا سلم خلاف مسائل الفروع من الشقاق والتنازع فهو إثراء للفكر، وقدح للذهن، بل وعدَّه العلماء بعضاً من رحمة الله وتوسعته على عباده «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار، وقد أخذ كل قوم من العلم ما بلغهم .. لهذا كان بعض العلماء يقول: إجماعهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة.

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٥٤).

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً، وإذا اختلفوا، فأخذ رجل بقول هذا، ورجل بقول هذا؛ كان في الأمر سعة»[١].

وهو ما فسره القاسم بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل عن القراءة خلف الإمام فيما لم يجهر به قال: «إن قرأت فلك في رجال من أصحاب محمد رسول الله ﷺ أسوة، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله أسوة»[٢].

وفي مثل هذه المسائل يحسن بالداعية العمل على التوفيق بين المختلفين فيها ما أمكنه، فالخروج من الخلاف مستحب وممدوح، قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما المختَلف فيه فلا إنكار فيه، لكن إنْ نَدَبَه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب، مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف؛ إذا لم يلزم منه إخلالٌ بسنة أو وقوعُ في خلاف آخر»[٣].

ومثَّل العلماء للخروج من الخلاف بمسألة البسملة في الصلاة ، فقد أوجبها الشافعية، وأبطلوا الصلاة إذا لم يبسمل قارئ الفاتحة في أولها، في حين أن المالكية كانوا يكرهونها في الصلاة، ولكل رأيه ودليله، ولسنا هنا معنيين بالترجيح بين الرأيين، بل نريد أن نخلص إلى ما فعله الإمام المازري

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٠/٨٠).

(٢) التمهيد، ابن عبد البر (١١/٥٤).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٣).

رَحِمَهُ اللَّهُ خروجاً من هذا الخلاف، فقد كان يبسمل سراً في الفرض، ويقول: «مذهب مالك من لم يبسمل في الصلاة لا تبطل صلاته، ومذهب الشافعي من لم يبسمل في الصلاة بطلت صلاته، وصلاةٌ متفقٌ عليها خير من صلاة قال أحدهما ببطلانها»(١).

وهنا يتساءل الداعية عن حكم الحسبة وإنكار ما يراه منكراً في حدود هذه المسائل المختلف فيها، فمذهبه الذي يرى صحته بخلاف ما يفعله أخوه المسلم، فهو مثلاً يعتبر كشف وجه المرأة محرماً بينما يراه غيره جائزاً، فهل يقول بفسق تلك المسلمة العفيفة التي تكشف وجهها من غير زينة لأنها تعتبره مباحاً؟ هل يقول عنها بأنها متبرجة؟

وفي صورة أخرى: هل يحكم على مصور من مصوري اليوم بأنه مستحق للوعيد الوارد على المصورين في حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»(٢)؟ بينما يرى أخوه أن المقصود هو نوع آخر من التصوير؛ وإن اشتركا في اسمه؟

وفي صورة ثالثة: هل يصلي خلف إمام يرى أن صلاته باطلة لرعاف أصابه ، بينما يرى هذا الإمام صحة صلاة نفسه، وأن الرعاف لا يفسدها؟ هل يكمل الصلاة خلفه أم يقطعها؟

وفي الإجابة عنه نستحضر من سلفنا الكرام صورة جليلة في سمو خلافهم ينقله لنا الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فيقول: «كان أبو حنيفة وأصحابه

(١) منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، محمد عليش (١/٢٦٦).
(٢) أخرجه البخاري ح (٥٩٥٠)، ومسلم ح (٢١٠٩).

والشافعي وغيرهم يُصلُّون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية؛ وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سراً ولا جهراً، وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتجم، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، فصلى خلفه أبو يوسف ولم يعد، وكان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الحجامة والرعاف. فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ، تصلي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلي خلف سعيد بن المسيب ومالك»[(١)].

ولما سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل ترى بأساً أن يصلي الرجل تطوعاً بعد العصر والشمس بيضاء مرتفعة؟ قال: «لا نفعله، ولا نعيب فاعله».

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا نفعله» دال في اصطلاح أحمد المشهور عند الفقهاء على أنه يراه محرَما أو مكروهاً على أقل تقدير، لكنه لم ينكر على فاعله لأنه «رأى أن من فعله متأولاً ، أو مقلداً لمن تأوله ، لا يُنكر عليه ، ولا يُعاب قوله ؛ لأن ذلك من موارد الاجتهاد السائغ»[(٢)].

وفي ذلك المعنى المهم نقل الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العلماء أنهم «قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يَعترض على مَن خالفه إذا لم يخالف نصّاً أو إجماعاً أو قياساً جليّاً»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٣٧٥).

(٢) فتح الباري ، ابن رجب (٤/ ١٢٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٢٤).

ويؤكد على ترك النكير في الخلافيات الاجتهادية ابن قدامة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه، فإنه لا إنكار على المجتهدات»(١).

ونقل ابن مفلح عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية له تطبيقه هذا الأدب في مسألة شرب النبيذ من غير العنب ، فقد أباحه بعض فقهاء الكوفة، فقال أحمد: «من أراد أن يشرب هذا النبيذ يتبع فيه شرب من شربه، فليشربه وحده»(٢).

وأما العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فله في مسألة الإنكار في المختلف فيه تفصيل بديع، إذ يقول: «فمن أتى شيئاً مختلفاً في تحريمه معتقداً تحريمه، وجب الإنكار عليه لانتهاك الحرمة، وذلك مثل اللعب بالشطرنج.

وإنْ اعتقد تحليله لم يجز الإنكار عليه، إلا أن يكون مأخذ المحلِّل ضعيفاً تنقض الأحكام بمثله لبطلانه في الشرع، إذ لا ينقض إلا لكونه باطلا، وذلك كمن يطأ جارية بالإباحة معتقداً لمذهب عطاء فيجب الإنكار عليه.

وإنْ لم يعتقد تحريماً ولا تحليلاً أُرشد إلى اجتنابه من غير توبيخ ولا إنكار»(٣).

وهكذا، فهذه المسائل الاجتهادية حقها النصح والتوافق ما أمكن، ولا يشنع على المختلِف فيها، ولا يجوز تبديعه ولا تفسيقه ولا هجره، قال

(١) الآداب الشرعية ، ابن مفلح (١/١٦٦).
(٢) المصدر السابق (١/١٦٦).
(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/١٢٩).

الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً عنه من إخواني أن يأخذ به. .. وإذا رأيتَ الرجل يعمل العمل الذي أُختلف فيه، وأنت ترى غيره، فلا تنهه»[١].

ويسوغ الإمام الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدم الإنكار في الاجتهاديات بأحد طريقين: تصويب الاجتهادين، أو تردد الحق بينهما ، وتعينه في أحدهم ، لا على التعيين، يقول : «ليس للمجتهد أن يعترض بالردع والزجر على مجتهد آخر في موقع الخلاف، إذ كل مجتهد في الفروع مصيب عندنا، ومن قال: إن المصيب واحد، فهو غير متعين عنده، فيمتنع زجر أحد المجتهدين الآخر على المذهبين»[٢].

وقال الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه، وإذا كان في المسألة قولان : فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به، وإلا قلد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم في بيان أرجح القولين»[٣].

ومن بعده قال تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداةً، ولا افتراقاً في الكلمة، ولا تبديداً للشمل ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع، كالجد مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة،

(١) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي (٢/٦٩).
(٢) الإرشاد، ص (٣١٢).
(٣) المصدر السابق (٢٠/٢٠٧).

وفي الخلية والبرية والبتة، وفي بعض مسائل الربا، وفي بعض نواقض الوضوء وموجبات الغسل، وبعض مسائل الفرائض وغيرها، فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كانوا كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة ، من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغناً، ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له، ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه، فهذا الاختلاف أصحابُه بين الأجرين والأجر، وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق»[1].

وأما الذين يصرون على تحقيق نصوص الوعيد الأخروي في مخالفيهم في الاجتهاد ، فليسمعوا إلى الإمام يحيى بن سعيد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما برح أولو الفتوى يختلفون، فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يرى المحرّم أن المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه»[2].

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢/٥١٧).

(٢) جامع بيان العلم (٢/٨٠).

هل يسوغ الخلاف في مسائل العقيدة الفرعية؟

لا يخفى أن الكثير من المسلمين يسوغون الخلاف في الفقه ومسائله، ويقبلون من مخالفيهم أقوالهم الفقهية ، ويسمون هذه المسائل فروعاً.

لكن موقفهم من مخالفيهم يكون مغايراً حين يتمحور الخلاف حول بعض المسائل العقدية؛ ولو كانت ثانوية أو فرعية، إذ يعتقدون أن مسائل العقيدة كلها من الأصول التي لا يسع أحداً الخلاف فيها، فينجر هذا الخلاف إلى إعمال البراء من المخالف، وإخراجه من أهل السنة والجماعة، وعدِّه من أهل البدع، والتحذير من مجالسته وقراءة كتبه أو النظر إلى برامجه وحلقاته التلفازية.

ولا أنسى يوم نصحني أحد زملائي في الجامعة أن أهجر أحد أكابر شيوخ الإقراء في العالم، وأن أجتنب تعلم القرآن منه ، لكونه ممن يخالف في بعض هذه المسائل الفرعية العقدية التي يرى صديقي الناصح أنها مما لا عذر فيه، لتعلقه بمسائل عقدية لا فقهية.

وهذا التقسيم تعليمي فحسب، والبناء عليه خارج هذا الإطار غير صحيح، بل نبه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تناقضه، وأنه من تقسيمات أهل البدع من المعتزلة[(١)].

ونقل رحمه الله مناقشته أصحاب هذا القول: «إن قال [قائل]: مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد، ومسائل الفروع هي مسائل العمل [أي الفقه].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٦).

قيل له: فتنازع الناس في محمد هل رأى ربه أم لا؟ وفي أن عثمان أفضل من علي؟ أم علي أفضل؟ وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية»[1]، وقد نقل عن سلف الأمة اختلافهم في مثل هذه المسائل من فروع العقيدة؛ ولم ينقل عنهم شيء من الاختلاف في الأصول.

واستدل الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تسويغ وقوع الخلاف في فروع الدين باختلاف الصحابة رضي الله عنهم في بعض المسائل، مع اتفاقهم على أصول الدين: فـ«هم الأئمة الذين ثبت بالنصوص أنهم لا يجتمعون على باطل ولا ضلالة، ودل الكتاب والسنة على وجوب متابعتهم»، ولكنهم اختلفوا في بعض فروع مسائل الاعتقاد والفقه، فلم يخرجهم الخلاف عن حال الأخوة والمحبة يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية كسماع الميت صوت الحي وتعذيب الميت ببكاء أهله ورؤية محمد ربه قبل الموت مع بقاء الجماعة والألفة .. ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على من اجتهد؛ وإنْ أخطأ»[2].

لقد وقع الخلاف بين السلف الصالح في بعض المسائل الاعتقادية الفرعية، كرؤية أهل الموقف ربهم في يوم القيامة، وكذلك رؤية النبي ﷺ ربه يوم المعراج، ومثله اختلافهم في نبوة الخضِر، وفي عصمة الأنبياء من الصغائر، والحكم بكفر تارك الصلاة تهاوناً ، وكفر الخوارج، وكل هذه

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٦).
(٢) المصدر السابق (١٩/١٢٢).

المسائل عقدية، لكنها من فروع العقيدة، لا أصولها التي لا يسوغ الخلاف فيها، والتي لم يختلف عليها سلف الأمة وخيارها، ولم يشذ عن ذلك إلا أهل البدع والضلالة.

وقد أكد العلماء على التفريق بين الأصول التي لا يقبل الخلاف فيها، والتي يرمى المخالف فيها بالبدعة أو الفسق أو الكفر، وبين الفروع التي يجوز وقوع الخلاف فيها ، «فإن الله حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النُّظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق عليها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف فيها، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف.

قد نقل المفسرون عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية [﴿ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود: ١١٩)] أنه قال: أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم، يعني: لأنه في مسائل الاجتهاد التي لا نص فيها بقطعِ العذر ، بل لهم فيه أعظم العذر»[1].

وتسويغ الخلاف في فرعيات مسائل العقيدة لا يعني تصحيح أقوال المختلفين، بل فيهم المصيب، وفيهم المخطئ، لكنه يلزم بإحسان الظن بالمخطئ ، وعدم التشنيع عليه ، والتماس العذر له ، وعدم الولوغ في تبديعه أو تفسيقه أو التجرؤ على تكفيره؛ إذ هو مخطئ لا خاطئ، والخطأ مظنة

(١) الاعتصام، الشاطبي (٢/١٦٨).

تجاوز الله تعالى عنه بكرمه العميم، وقد قرر ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ثنايا حديثه عمن غلط من المسلمين في مسألة علو الله على خلقه، فقال: «وقوع الغلط في مثل هذا يوجب ما نقوله دائماً: إن المجتهد في مثل هذا من المؤمنين إنْ استفرغ وُسْعَه في طلب الحق فإن الله يغفر له خطأه، وإن حصل منه نوع تقصير فهو ذنب .. فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح لم يكن أسوأ حالاً من هذا الرجل [الذي طلب من أهله إحراقه إذا مات] فيَغفر خطأه، أو يعذبُه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدْر دينه»[(١)].

وأكد العلماء على تلمس الأعذار لأولئك الذين أخطؤوا في فروع العقيدة، وضرورة حسن الظن بهم، واعتقاد أنهم لم يفعلوا ذلك معاندة للحق، أو تربصاً بالإسلام وكيداً له، فهم رجاله يذودون عنه، وإنْ أخطؤوا في فهمٍ بعض نصوصه، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق حديثه عن طوائف من علماء الأشاعرة: «ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك، منهم من يعظمهم، لما لهم من المحاسن

(١) الاستقامة (١/١٦٣).

والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها»(١).

كذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه واتباعه السنة، وكتابُه في "التوحيد" مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة؛ فليُعذر من تأول بعض الصفات .. ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدَّعناه؛ لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنِّه وكرمه»(٢).

ولما تكلم محمد نصر المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدى مسائل الإيمان هجره علماء بلده وخطؤوه، كما نقل ذلك ابن منده رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ معقباً : «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له، قمنا عليه، وبدعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»(٣).

وقال في ترجمة قتادة السدوسي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان من نفاة القدَر: «وكان يرى القدَر نسأل الله العفو، ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذلَ

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠٢/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٣١/١١).

(٣) المصدر السابق (٢٧/١١).

وسعَه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يُسأل عما يفعل»[1]، فقد اعتذر الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقتادة القدري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه أراد تنزيه الله عن نسبة أفعالنا الشريرة إليه، فأخطأ في نفي القدر، فهذا عذره، وتلك رحمة الله التي وسعت كل شيء.

وقال الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما القدَر الذي تنازعوا فيه .. فإنما يقال: إن الله أمر كلاً منهم أن يطلب الحق بقدْر وسعه وإمكانه، فإن أصابه، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد قال المؤمنون: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال الله [في الحديث القدسي]: «قد فعلتُ»، وقال تعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ (الأحزاب: ٥)، فمن ذمهم ولامهم على ما لم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدى»[2]، وهذا المعنى الأخير الذي يذكره شيخ الإسلام نفيس، إذ لا يرى رحمه الله ذم المجتهد، ولا لومه لقصده الحق، ويرى ذلك من الاعتداء؛ لأن الله وهو الرب مالك الملك قد عفا عن خطئهم، فما بال العباد يحاسبون إخوانهم عما عفا عنه الله وغفر.

ويستدل رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا المعنى - الذي يذهل عنه الكثيرون - بالآية السالفة في موضع آخر، فيقول: «من هذا الباب ما هو من باب التأويل والاجتهاد الذي يكون الإنسان مستفرغاً فيه وسعه علماً وعملاً، ثم الإنسان قد يبلغ ذلك، ولا يعرف الحق في المسائل الخبرية الاعتقادية وفي المسائل العملية الاقتصادية، والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ (البقرة: ٢٨٦) .. وإذا كان

---

(١) المصدر السابق (٢٧١/٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٣/١٩)، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ح (٢٦).

كذلك، فما عجز الإنسان عن عمله واعتقاده حتى يعتقد ويقول ضده خطأ أو نسياناً؛ فذلك مغفور له كما قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»»[١].

والقول بغفران الله للمخطئ في قضايا الفروع العقدية والفقهية ليس رأياً خاصاً لشيخ الإسلام، بل هو قول جمهور العلماء، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ؛ فإن الله يَغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام»[٢].

ومن قبله نقل الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا عن جماهير علماء الأمة وسلفها، فقال: «وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا، وأن كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنه الحق؛ فإنه مأجور على كل حال، إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد، وهذا قول ابن أبي ليلي وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي رضي الله عن جميعهم، وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة رضي الله عنهم، لا نعلم منهم في ذلك خلافاً أصلا إلا ما ذكرنا من اختلافهم في تكفير من ترك صلاة متعمداً حتى خرج وقتها أو ترك أداء الزكاة أو ترك الحج أو ترك صيام رمضان أو شرب الخمر»[٣].

---

(١) الاستقامة (١/٢٦- ٢٨)، والحديث أخرجه البخاري ح (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٦).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/١٣٨).

ويؤكد على استواء القضايا العقدية الفرعية والفقهية الفرعية في العفو عن المخطئ فيها، خلافاً لما يظنه البعض من قصر الغفران على أخطاء فروع الفقه دون العقيدة، فيقول: «المؤمن الذي لا ريب في إيمانه قد يخطىء في بعض الأمور العلمية الاعتقادية، فيُغفر له كما يُغفر له ما يخطىء فيه من الأمور العملية [الفقهية]»[(١)].

ويقول: «ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمَّة؛ وإنْ كان ذلك في المسائل العلمية ، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمَّة»[(٢)].

ويضرب له ببعض الأمثلة فيقول: «والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية .. مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقد ثبوته ، أو اعتقد أن الله لا يُرى لقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ (الأنعام: ١٠٣)، ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١)، نُقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرى، وفسروا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣) بأنها تنتظر ثواب ربها كما نُقِل عن مجاهد وأبي صالح»[(٣)] رحمهما الله تعالى.

وفي مثال آخر يتحدث شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن اختلاف العلماء في حجب الكفار عن الله، فيقول: «هذه المسألة ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام فيها، وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة حتى يبقى شعاراً،

(١) بغية المرتاد ، ص (٣١١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦٥/٢٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٣/٢٠).

ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء ، وليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة ؛ فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا ، كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم - والناس بعدهم - في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا»[١].

وبهذه الروح العالية يسع المسلم التماس العذر لإخوانه الذين أخطؤوا في فروع مسائل العقيدة، كما وقد عذرهم في مسائل الفقه الفرعية، ولا يحسن عندها تفتيت الأمة وتجزئتها، وإخراج أفاضلها من أهل السنة والجماعة أو الفرقة الناجية ، وتمزيقها ليأكل بعضها بعضاً في مسائل قد عفا الله عن المخطئين فيها.

مع التأكيد على أن هذا العذر لا يعني تصويب المخطئ، كما لا يعني ترك المناصحة والتذكير والبيان، لكن ذلك كله ضمن ضوابط الأخوة الإسلامية، وضمن رابطة الإخوة الإيمانية التي تجمع الجميع.

---

(١) المصدر السابق (٥٠٢/٦).

سوء الظن وخلاف الأقران

لعل ما ذكرناه قبل عن شيوع قالة السوء على الدعاة بين العلماء مفهوم أو محتمل، لكن الرزية وما لا يفهم ولا يعقل ما بلي به العمل الدعوي اليوم من أمراض مزمنة أورثت نفرة بين أهله وتنافساً استغله الشيطان في الوقيعة بينهم، فصرنا نسمع تبادل اللمز والتنقص للآخرين من دعاة وكرام نحبهم ونجلهم أجمعين.

بل يصل الشقاق بين هؤلاء الأخيار في بعض الأحايين إلى التطاعن في الدين، والتشكيك في النوايا، وتخطئة الخطأ بل والصواب .. ظاهرة مزعجة وبخاصة أنها تتعلق بدعاة وطلاب علم يفترض أنهم ملحُ الأرض وزهرتها، وهم كذلك.

ولقد يحار المرء حين يسمع من هؤلاء الفضلاء طعناً في إخوانهم الدعاة الذين يماثلونهم في المكانة والمنزلة والسابقة في خدمة الإسلام، ويعجب من تشاحنهم، ولمز كل منهم للآخر، ولربما تساءل أيهما الصادق فيما يقول؟ وهو يعجب كيف للآخر أن يكون كاذباً؟ فكلاهما عنده ثقة من أهل الصدق والفضل ، فهل من مخرج لهذه المعضلة؟ وهل من طريقة نبقي فيها على منزلة هؤلاء الثقات الذين تحدث بعضهم في بعض، ونال كل منهم من الآخر؟

بداية، فإن الفاضلَ من البشر والكبير عند الناس لا يفرُقون عن غيرهم من البشر الذين يصيبون ويخطئون، ولا يتجردون - رغم فضلهم وسابقتهم - عن الهوى البشري الذي لا يكاد ينفك عنه أحد، ويقع بسببه ما يقع من

النفرة بين الفضلاء ، أو تراشق الكلام ، أو سوء الظن وجفاء العبارة، وكل ذلك من إفساد الشيطان للعلاقة التي تجمع بين هؤلاء الأماثل.

أولاً : سوء الظن

وهنا يجدر التنبيه على خطورة سوء الظن بالآخرين ، وقبول ما يقال فيهم من غير تثبت ولا برهان، فهذا أبعد ما يكون عن أخلاق الإسلام ومنهجه في تمحيص الأخبار والتعامل مع الإشاعات التي ما كان لها أن تجد آذاناً مصغية لو التزمنا المنهج الإسلامي الذي يخط القرآن أبرز معالمه.

وأولها: أن يتذكر المرء أن ما يقوله مسجل عليه في صحائف أعماله ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق: ١٨)، وأن الله حذره من القول بلا علم ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (الإسراء: ٣٦).

وثاني هذه المعالم أن المرء لا ينبغي أن يصدق كل ما يسمع؛ وبخاصة حين يأتيه الخبر عن غير ثقة أو من مصدر مجهول كالإنترنت، فالتثبت في هذه الأحوال واجب شرعي لا مناص عنه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (الحجرات: ٦) ، فكثير مما يسمعه المرء أخبار كاذبة، فلا يحل له أن يرويها قبل التثبت منها، قال الحسن البصري: «المؤمن وقاف حتى يتبين»[1].

ولأهمية التوثيق فإن النبي ﷺ استهجن من المرء أن يتحدث بما يتردد

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣٨٢/١٠)، وفي الإحياء للغزالي: «وقاف متأنٍ» (١٨٦/٣).

في المجالس من غير تثبت، فقال عليه الصلاة والسلام: «بئس مطية الرجل: زعموا»(١)، وهي تشبه قول بعضهم اليوم: الناس يقولون .. سمعنا .. وأمثالها.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يقال (زعموا) في حديث لا سند له ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء حكي عن الألسن على سبيل البلاغ، فذم النبي ﷺ من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالتثبت فيه والتوثق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتى يكون مَعزِّياً إذا ثبت، ومروياً عن ثقة»(٢).

ثم قد يُروى الخبر عن ثقة وثبت، ويكون صدقاً يقيناً، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن تلوكه ألسنتنا، فكم من خبر صادق يحسُن طيه، ويحرم نشره؛ لما يسببه من الفساد، وقد كره النبي للمؤمن أن يتكلم إلا في خير «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٣).

كما كره ﷺ ما يقع فيه بعض الناس من الثرثرة في المجالس، فقال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات. وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٤).

قال المحب الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله: «قيل وقال»: «ثلاثة أوجه أحدها: ...الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام لأنها تؤول إلى الخطأ .. ثانيها: إرادة

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٩٧٢)، وأحمد ح (١٧٠٧٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.
(٢) معالم السنن، الخطابي (٤/١٣٠).
(٣) أخرجه البخاري ح (٦٠١٨)، ومسلم ح (٤٧).
(٤) أخرجه البخاري ح (٢٤٠٨)، ومسلم ح (٥٩٣).

حكاية أقاويل الناس والبحث عنها ليخبر عنها فيقول: قال فلان: كذا، وقيل: كذا. والنهي عنه إما للزجر عن الاستكثار منه، وإما لشيء مخصوص منه، وهو ما يكرهه المحكي عنه»[(١)].

وقد وقع على عهد النبي حديث الخائضين في الإفك، وهو أمر جلل اهتز له المجتمع المسلم كله، لكن ذلك لم يمنع من وصف الله له بأنه خير ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير﴾ (النور: ١١)، ولقد يحار المرء لأول وهلة عن حقيقة هذه الخيرية التي يمكن أن ينطوي عليها أو يتعلق بها هذا الإفك والزور!!

ولكن عند التمعن في هذه القصة نجد دروساً بليغة للمجتمع والأمة المسلمة، فقد رسمت آيات سورة النور التي نزلت بسببها معالم المنهج القرآني في التعامل مع ما يشاع على ألسنة الناس من أحاديث وأخبار، فتعلُّم الأمة لهذه المعالم ووعيُها لهذا الدرس الكبير هو ولاشك من الخير.

وأول هذه الدروس إحسان الظن بالمؤمنين، وأن يظن المسلم بالآخرين من الخير والتنزه عن الشر والخطأ ما يظنه بنفسه من الخير، قال القرطبي رحمه الله: «وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وامرأته رضي الله عنها ؛ وذلك أنه دخل عليها، فقالت له : يا أبا أيوب أسمعتَ ما قيل؟ فقال: نعم وذلك الكذب. أكنتِ أنتِ يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت : لا والله. قال : فعائشة والله أفضل منك. قالت أم أيوب: نعم.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر (٤٠٧/١٠).

فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم»[١] ونزل قول الله تعالى في تأكيد صحة هذا الطريق في دفع الإشاعة: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور: ١٢).

والدرس الثاني هو درس التثبت، فالدعاوى التي لا يقيم صاحبها برهاناً عليها لا قيمة لها ولا اعتداد بمدلولات خبرها ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النور: ١٣).

وينبه القرطبي رحمه الله في شرح هذه الآية إلى أمر مهم، وهو أن المرء الذي لا يقيم دليلاً على خبره كاذب، ولو كان في حقيقة الأمر صادقاً: «﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النور: ١٣)، أي هم في حكم الله كاذبون، وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة، وهو صادق في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب؛ لا في علم الله تعالى ؛ وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا؛ لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه ، فإنما يُبنى على ذلك حكم الآخرة»[٢].

وثالث دروس قصة الإفك أن يتورع المسلم عن إطلاق الكلام السيئ، فالأَولى به أن يعتبره من البهتان والكذب ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذَا سُبْحانَكَ هذَا بُهْتانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:١٦)، والكلام إذا كان

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٢).
(٢) المصدر السابق (١٢/٢٠٣).

من البهتان فلا يجوز نقله وروايته، وكونُه مروياً متداولاً لا يسوغ ترداده، فقد قال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[(١)]، قال المناوي رحمه الله: «لأنه يسمع الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع كذب لا محالة، فالتحدث بكل مسموع مفسدة للصدق ومزراة»[(٢)].

قال النووي رحمه الله: «وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان ، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب [هو] الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو»[(٣)].

ثانياً : خلاف الأقران

ولفهم التنابذ الذي يقع بين بعض دعاتنا اليوم نقلب صفحات الماضي، لنتعرض لمسألة ذكرها العلماء حين وجدوا بين أفاضل الأمة وعلمائها الثقات شيئاً من نزغ الشيطان ووقيعته، جسَّده تراشقهم بالتوهين والتضعيف بعد أن أفسد الشيطان بينهم، واستنزلهم للوقوع في بعضهم بعد استحكام الخصومة بينه.

فماذا فعل العلماء تجاه هذه الخصومات المسطورة في الكتب بين هؤلاء الأماجد؟ هل صدقوا كلامهم في إخوانهم حال الخصومة والنفرة؟ أم التمسوا طريقاً آخر؟

---

(١) أخرجه مسلم ح (٥).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (٢/٤٠٥).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٧٥).

لقد اتفق المحققون من أهل العلم على طي صفحة تلك الخلافات، وعدم الاعتبار بما تُكلم فيها من طعن وتطاول على الآخرين ، لأن سببه الغيرة والتنافس، فأعرضوا عن أقوالهم جميعاً ، ولم يروا في ذلك تجريحاً للقائل أو المقول عنه، وعدُّوا ما صدر منهم بحق بعضهم من قبيل خلاف الأقران، الذي يقع عادة عند الاشتراك في التخصص أو البلدة بسبب التنافس والتعصب والتحاسد، وقدموا قاعدة ذهبية نستطيع تطبيقها على كل ما يصدر من الأفاضل من مشايخنا أو كبارنا حين يختلفون، وهذه القاعدة تقول: كلام الأقران يُطوى، ولا يُروى(١).

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، ولا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد لا ينجو منه إلا من عصم الله ، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سلِم أهله من ذلك سوى النبيين والصديقين ، ولو شئت لسردتُ من ذلك كراريس ، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم»(٢) .

ومن قبلِ الإمام الذهبي قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «أقبل شهادة القراء في كل شيء إلا بعضهم على بعض ؛ فإنهم أشد تحاسداً من التيوس»(٣).

وهذا التشبيه مستعار من الحبر ابن عباس رضي الله عنهما فقد قال: «استمعوا كلام العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٧٦/٨).

(٢) ميزان الاعتدال (١١١/١).

(٣) المجالسة وجواهر العلم ، أبو بكر الدينوري (٧٥/٧).

لهم أشد تغايراً من التيوس في زربها»[١].

وأما الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: «ولم ينج كثير من الناس من كلام بعض الناس فيهم، نحو ما يذكر عن إبراهيم من كلامه في الشعبي ، وكلام الشعبي في عكرمة ، وفي من كان قبلهم ، وتناولِ بعضهم في العِرض والنفس ، ولم يلتفت أهل العلم في هذا النحو إلا ببيان وحجة، ولم تسقط عدالتهم إلا ببرهان ثابت وحجة»، وعقَّب الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالقول: «لسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النادر، ولا من الكلام بنفَس حاد فيمن بينهم وبينه شحناء وإحنة ، وقد عُلم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به ، ولا سيما إذا وُثق»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن في جماعة بسبب اختلافهم في العقائد ، فينبغي التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق»[٣].

ولو شئنا أن نضرب مثلاً يتضح به المقال، فإنا نذكر اختلاف العالمين الجليلين مالك بن أنس وبلديه ابن أبي ذئب، فكلاهما من أهل المدينة النبوية، وهما من الأعلام الأثبات المفتين في مدينة رسول الله ﷺ، فقد توقف الإمام مالك عن العمل بحديث «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، وذلك لقاعدة عنده: أن المشهور من عمل أهل المدينة يقدم على مثل هذا الخبر

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي (٢/٢٩٥).

(٢) القراءة خلف الإمام ، ص (٣٩).

(٣) فتح الباري (١/٣٨٥).

الآحاد، لقرب أهل المدينة بعهد النبوة وأحوال الصحابة، فيعتبر الخبر منسوخاً بدلالة اشتهار غيره عند أهل المدينة المنورة.

فلما بلغ بلديَّه ابنَ أبي ذئب رَحِمَهُ ٱللَّهُ توقفُه في إعمال الحديث قال: «يستتاب مالك، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه»[(١)].

ولا ريب أن هذا القول غليظ من الإمام ابن أبي ذئب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فماذا نصنع؟ هل ترانا نتعصب للإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فنضعفُ ونقبحُ ابن أبي ذئب ونردُ علمه وننسى فضله؟ أم نصدقُه ونرمي مالكاً بالوقوع بالكفر فنستتيبُه، كما يطالبنا قرينه ابن أبي ذئب؟!

دعونا نتلمس هدي العلماء في التعامل مع اختلاف هذين العالمين الفاضلين ، يقول الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مالك إنما لم يعمل بظاهر الحديث؛ لأنه رآه منسوخاً... فمالك في هذا الحديث، وفي كل حديث له أجر ولا بد، فإن أصاب ازداد أجراً آخر .. وبكل حال: فكلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول على كثير منه، فلا نقصتْ جلالة مالك بقول ابن أبي ذئب فيه، ولا ضعَّف العلماءُ ابنَ أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالما المدينة في زمانهما ، رضي الله عنهما»[(٢)].

ولو عرضنا لمثال آخر لتوقفنا عند ترجمة الإمام الشافعي عند الحافظ الذهبي رحمهما الله، فقد قال: «وصنف الكبار في مناقب هذا الإمام قديماً

(١) سير أعلام النبلاء (٧/١٤٢-١٤٣)، والحديث أخرجه البخاري ح (٢١١٠)، ومسلم ح (١٥٣٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/١٤٢).

وحديثاً، ونال بعض الناس منه غضاً ، فما زاده ذلك إلا رفعة وجلالة ، ولاح للمنصفين أن كلام أقرانه فيه بهوى ، وقلَّ من برز في الإمامة ورَدَّ على من خالفه إلا عُودي ، نعوذ بالله من الهوى، وهذه الأوراق تضيق عن مناقب هذا السيد»(١) رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن كلام الأقران في بعضهم: ما وقع بين الإمامين الجليلين، أبي نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ وبلديِّه ابنِ منده الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث وقع بينهما التغاير والتنافس ، فنال كل منهما من الآخر، فماذا فعل العقلاء في هذا الخلاف؟

يقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ : «أقذع الحافظ أبو نعيم في جرحه (ابن منده) لما بينهما من الوحشة ، ونال منه، واتهمه، فلم يُلتفت إليه لما بينهما من العظائم، نسأل الله العفو ، فلقد نال ابن منده من أبي نعيم وأسرف أيضاً»(٢)، ويقول: «كلام ابن منده في أبي نعيم فظيع لا أحب حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، بل هما عندي مقبولان»(٣).

وكذلك قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن نقل قولاً للإمام مالك في عكرمة: «لو كان كل من ادُّعِيَ عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادُّعِي به ، وسقطت عدالته ، وبطلت شهادته بذلك ، للزم ترك أكثر محدثي الأمصار ؛ لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه»(٤).

---

(١) المصدر السابق (٩/١٠).

(٢) ميزان الاعتدال (٤٧٩/٣).

(٣) المصدر السابق (١١١/١).

(٤) فتح الباري (٤٢٨/١).

ويرشد الإمام السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى طريقة التعامل مع هذه الأخبار الجارحة بأفاضل الناس: «ينبغي لك - أيها المسترشد - أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح ، ثم إنْ قدرتَ على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحاً عما جرى بينهم ، فإنك لم تُخلق لهذا، فاشتغل بما يعنيك ، ودع عنك ما لا يعنيك ، ولا يزال طالب العلم نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين الماضين.

وإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، أو بين مالك وابن أبي ذئب، أو بين أحمد بن صالح والنسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، وهلم جرًّا إلى زمان العز بن عبد السلام والتقي ابن الصلاح، فإنك إذا اشتغلت في ذلك خِفتُ عليك الهلاك، فالقوم أئمة أعلام، ولأقوالهم محامل، وربما لم نفهم بعضها، فليس لنا إلا الترضي عنهم، والسكوت عما جرى بينهم كما يُفعل فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم»[1].

وأما ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيورد في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» أمثلة عديدة لخلاف الأقران وتقاولهم على بعضهم، ثم يضع ضوابط قبول هذه الأقوال، وهو يحذر طلابَ العلم وأنصافَهم من مزالق هذا الباب، فيقول: «هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس، وضلت به نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك، والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته وثبتت في العلم أمانته، وبانت ثقته وعنايته بالعلم، لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن

(١) طبقات الشافعية (٢/٢٧٨).

يأتي في جرحته ببينة عادلة تصح بها جرحته على طريق الشهادات والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب تصديقه فيما قاله، لبراءته من الغل والحسد والعداوة والمنافسة وسلامته من ذلك كله .. والدليل على أنه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين إماماً في الدين قول أحد من الطاعنين؛ أن السلف -رضوان الله عليهم- قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير في حال الغضب، ومنه ما حَمَل عليه الحسدُ»(١).

وهكذا ، فإن بعض ما يقع بين مشايخنا أو دعاتنا أو غيرهم من أهل الفضل؛ سببه نزغ الشيطان بينهم، مستغلاً النوازع الإنسانية التي لا ينفكُّ عنها أحد، ولو كان من المؤمنين الصالحين، والواجب على المسلم طرح ما يصدر عن هؤلاء حال العداوة والمنافسة والاختلاف.

ولقد أحسن أبو العتاهية رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله:

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً

وللناس قالٌ بالظنون وقيل

وقال الآخر:

وليس بناج من مقالة طاعن

ولو كنت في غار على جبل وعر

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً

ولو غاب عنهم بين خافيتي نسر

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي (٢/٢٩٦-٢٩٧).

خاتمة وأبرز النتائج:

• الدعوة إلى الله تعالى من أشرف الأعمال وأعظمها أجراً عند الله، وهي مهمة الأنبياء، وواجب الدعاة وُراث علومهم ، وخلفاؤهم في الدلالة على الله والتعريف بدينه وشرائعه.

• الدعوة فريضة شرعية وضرورة بشرية، بها تستجلب نعم الله، وتستدفع نقمه، وتطلب من كل مسلم بحسب ما أوتي من علم وملكات، ومن علم مسألة فهو بها عالم.

• الدعوة الإسلامية تعاني اليوم من ضمور الكثير من المعاني السامقة التي تزيى بها سلفنا الكرام، ونحن مدعوون إلى استعادة منهجهم.

• وسائط التقنية الحديثة جعلت الدعوة وسيلة في متناول يد الجميع على اختلاف فهومهم وقدراتهم، وهو ما يستوجب التذكير بأخلاق الدعوة وقضاياها ومحذوراتها.

• الدعاة مطالبون بتجديد وسائل الدعوة، ومقارعة الجاهلية من حولهم بوسائط التقنية الحديثة التي تتجدد كل يوم.

• تراجع تأثير الدعاة يرتبط بجهل الكثير منهم بعلوم الآلة ، كفن الإلقاء والتعامل مع الناس وسبل التعرف على خصائصهم ووسائل توجيههم.

• اختلاف العلماء بين قائل بفرضية الدعوة على الأعيان أو الكفايات لا ثمرة له في ظل تقصير المسلمين عن بلوغ هذه الكفايات.

• أهداف الدعوة وموضوعاتها العامة وقيمها وآدابها ليست مادة للابتكار

والاجتهاد، والدعاة مدعوون إلى الاستهداء بهدي الأنبياء الكرام وتطبيقاته عند السلف الصالح الكريم.

• التجديد في وسائل الدعوة ومنهاجها لا يعني الاستحداث والابتداع، بل هو عملية مراجعة لا غناء للدعوة الإسلامية عنها، لتقويم الاعوجاج ، وإعادة المسار إلى أصول الدعوة التي خطها الأنبياء عليهم السلام.

• الداعية أحوج الناس إلى خلق حسن، يجمع حوله المدعوين، ويتألف قلوبهم، ويتحببهم إلى الخير الذي يحمله إليهم.

• الدعاة أرحم الخلق بالخلق، وأنفع الناس للناس، وأحرصهم عليهم، يبذلون علومهم وأوقاتهم، وشعارهم: ﴿وما أسالكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٠٩).

• الرفق بالمدعوين لا تعني مداهنتهم في باطلهم أو تسويغه والسكوت عنه، فالمقصود: التغيير وفق الأسلوب اللّيِن.

• الداعية حكيم، يرتب أولوياته الدعوية بحسب حاجات مجتمعه، يقدم الأهم على المهم، يجتنب الغرائب، ويتجاوز عما لا طائل منه.

• النبي ﷺ هو الأنموذج الأكمل ، وهو الأسوة الحسنة لكل الدعاة ، فسيرته الدعوية تختزل آداب الدعوة وقيمها، وتتجسد فيها عذوبتها وعذاباتها.

• تتنوع وسائل الدعوة ، فليست هي بالموعظة فحسب، فثمة وسائل أنجع كالدعوة بالقدوة والحوار والدعاء والحُب.

- العمل الدعوي المؤسسي ضرورة في مواجهة الجاهلية العاتية المنظمة، ويكدره ما يشوب العاملين فيه من تعصب مذموم يفضي إلى التنازع واستعداء شركاء الطريق.

- الدعاة مدعوون إلى توحيد الكلمة، والتعاون في خدمة المشروع الإسلامي، وتوقي موارد النزاع والاختلاف، والتفريق بين ما يسوغ فيه الاجتهاد وما لا يسوغ.

آهم المصادر والمراجع:

● القرآن الكريم.

● الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح الصالحي الحنبلي (ت ٧٦٣هـ)، عالم الكتب.

● إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م.

● إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أحمد تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.

● البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

● البداية والنهاية ، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

● البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

● تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

● تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ .

● التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر ابن عبد البر

القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي ، محمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، ١٣٨٧ هـ.

• التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (ت ١٠٣١هـ)، مكتبة الإمام الشافعي ، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

• جامع البيان في تفسير القرآن ، ابن جرير الطبري (ت ٣١١هـ)، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت .

• الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

• جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

• جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط١، دار ابن الجوزي، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.

• الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الكتب العربية ، بيروت ، ١٤١٣هـ .

• الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف ، الرياض.

• زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

• السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ،

الرياض.

• سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ) تحقيق وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية .

• سنن أبي داود ، أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، دار الحديث ، ١٣٩١هـ .

• سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب، ١٤٠٦هـ.

• سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٩، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

• شرح ابن بطال على صحيح البخاري (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم ، ط٢ ، مكتبة الرشد ، الرياض، ١٤٢٣هـ.

• شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، ط١ ، عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٤هـ.

• صحيح ابن حبان ، أبو حاتم البستي ، (ت ٣٥٤هـ) ترتيب: علاء الدين بن بلبان ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، وحسين أسد ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٤هـ .

• صحيح ابن خزيمة، محمد بن خزيمة (ت٣١١هـ) ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي.

• صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، ط٢،

القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.

• صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، ط٥، الرياض، مكتبة المعارف.

• صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ) ، ترقيم: محمد فؤاد الباقي ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٧٥هـ .

• عمدة القاري، بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)، دار الفكر.

• فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، ط٢، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

• الفقيه والمتفقه ، أبو بكر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي ، ١٤١٧هـ.

• الكافية في الجدل، عبد الملك الجويني، تحقيق وتقديم: د. فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٩/١٣٩٩.

• مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، دار الفكر، بيروت ، ١٤١٢هـ.

• مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي ، ط١، دار الكتب العلمية ،

بيروت، ١٤٢٢ هـ.

• المدخل، عبد الله محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (ت ٧٣٧هـ)، دار التراث.

• مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري (ت ١٤١٤هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء ، ط٣، الجامعة السلفية ، بنارس الهند، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م.

• المسند، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، ط٢، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

• مشكاة المصابيح، محمد الخطيب التبريزي (ت ٧٣٧هـ)، تحقيق: محمد ناصر الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

• المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

• المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط٢، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل، ١٤٠٤هـ.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٤
الفصل الأول: الدعوة فريضة شرعية وضرورة بشرية.. ٧
أولاً: حكم الدعوة ٨
ثانياً: فضل الدعوة ١٢
ثالثاً: عاقبة ترك الدعوة إلى الله ١٨
رابعاً: الإنكار القلبي آخر الإيمان ٢٥

الفصل الثاني: صفات الداعية ٣١
الداعية العالم بما يدعو إليه.. ٣٢
الداعية الرفيق ٤٠
الداعية الحريص ٤٨
الداعية الحكيم ٥٤
الداعية المخلص ٦٠
الداعية الممتثل لما يدعو إليه ٧٠
الداعية الصبور ٨٠

الفصل الثالث: أساليب الدعوة الناجحة ١٠١
الموعظة الحسنة ١٠٢
وقولوا للناس حسنا ١٠٨
الدعوة بالحوار وآدابه ١١٣
المتحدث الناجح ١٣١
الدعوة بالقدوة ١٤٢
التربية بالعقوبة ١٥٥

الفصل الرابع: موضوعات الدعوة ١٦٧
أولويات الدعوة ١٦٨

حدثوا الناس بما يفهمون ١٧٨
السؤال المحمود والسؤال المذموم ١٨٨

الفصل الخامس: النبي الداعية........................ ٢٠٠
أولا: الدعوة بالحب ٢٠٢
ثانياً: لا يؤثر إلا المتأثر ٢٠٥
ثالثاً: الدأب في الدعوة ٢٠٨
مراعاة الفوارق بين المدعوين واحتياجاتهم ٢٠٩
المعلم الناجح ٢١٧

الفصل السادس: خلاف الدعاة والوحدة الإسلامية الجامعة........................ ٢٣٣
تكامل الدعاة والتعصب المذموم ٢٣٦
إنصاف المخالف ٢٤٧
أنواع الخلاف والموقف من زلات العلماء ٢٥٦
أولاً: الخلاف الشاذ (غير سائغ) ٢٥٩
ثانياً: الخلاف السائغ ٢٧١
هل يسوغ الخلاف في مسائل العقيدة الفرعية؟........................ ٢٧٩
سوء الظن وخلاف الأقران ٢٨٨
أولاً: سوء الظن ٢٨٩
ثانياً: خلاف الأقران ٢٩٣

خاتمة ٣٠٠
المصادر والمراجع ٣٠٣
الفهرس ٣٠٨

صدر للمؤلف:

- هل العهد القديم كلمة الله؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- هل العهد الجديد كلمة الله؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- الله جل جلاله، واحد أم ثلاثة؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- هل افتدانا المسيح على الصليب؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- تعرّف على الإسلام (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)
- التكفير وضوابطه
- الحوار مع أتباع الأديان (مشروعيته وآدابه)
- دلائل النبوة
- التعايش مع غير المسلمين في المجتمع المسلم
- تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين (بالعربية والفرنسية)
- الدين المعاملة (صفحات من هدي الأسوة الحسنة ﷺ)
- لهذا أسلموا (بالعربية والإنجليزية)
- سلسلة حوار مع صديقي جرجس (٣ أجزاء)
- كتيبات بعنوان: (مناظرة مع قسيس)